مقدمـــــــــــــــــــــــــة

مَنْ سَكَنَ قَلْبَهُ الوفاءُ لنْ تستوطن الخيانة داخله حتى لو وجهت له ألاف سهام الغدر من الخلف ،الوفاء الحقيقي لا ينبعُ إلّا من قلبٍ طاهرٍ، تدفعَهُ النّيةُ الطّيبةُ والروحُ النّقية إلى إخلاص النية في العلاقات والحفاظ عليها أدعو الله لكم أن تبقى قلوبُكم نابضة بالوفاء.

الوفاء لأصدقائِكم ، لأهلِكم ، لمن تحبّون

أصدقائي:

لا تجعلُوا سيلَ الوفاءِ يجفُّ من ينابيعَ قلوبِكم

اجعلُوا من قلوبِكم ميناءً ترسُو عليه أنقَى المشاعرِ وأصدقَهَا ، لتتجدّدَ أرواحُنا جميعا بتفتّحِ براعمَ الوفاءِ

براعمٌ نتمنَّى أن تزهرَ ويفوحَ شذَاها في عالمِنا ، ليصبحَ أجملَ وأعطرَ، تحيّاتي لكلّ القلوبِ الوفيّة فِي زمنِ الخيّانةِ.

كل كتاب تعيش فيه روح

وهذا الكتاب ترفرف فيه روح الوفاء

الوفاء الذي قارب علي الانقراض ككل شيء جميل، في زمن الخيانة واللاشعور واللاإنسانية ، فكن وفيا تكن إنسانا .

هذه روايتِي الأولى سطرتْها مشاعري، أملًا أن توقظَ ضمائر الإنسانية ، ليحافظُوا على رسالتِهم الّتي نزلُوا من أجلها، ألا وهي الخير والحب والعدل والحق والجمال والوفاء.

أتمنى من الله عز وجلَّ أن تنال إعجابكم

****

الإهداء

إلى من ذهبِنا إليهم كأطفالٍ يهَرولُون إلى أمّهاتِهم باكينَ لتحِتضِنّهُنَ
فأعطونا صفعةَ استفاقةٍ لِنكفّ عن البكاء
إلى كل من مارس طقوس القسوة علينا
إلى كل من خذلنا ونحن في أشدِّ الحاجةِ إليه
إلى كلّ شخصٍ اعتقدنَا أنّه لنا وطنٌ وخان
إلى كلّ من نحتَ علَى قلوبِنا مآسي وألم
نشكركُم فقد وضعتمونا تحت ضغوط لا تُحتمل، لكن رُبّ ضارة نافعة
فالفحم من شدّة الضغط والحرارة صار ألماساً
والموهبةُ تُولَدُ من رحم الضغوط
فكم من ألمٍ أليم شَابَ على غصونِ إنسانٍ فجعلَه عظيم

صفاء فوزي النزهي

الفصل الأول

في محافظةِ الإسكندريةِ السّاحرةِ ، عروسُ البحرِ الأبيضِ المتوسطِ ، وفي أحدِ أطرافِها المترامِيَة ، في مدينةٍ صغيرةٍ ساحرةٍ ، موقعُها خرافيٌّ ، تتوسّطُ ثلاثَ محافظاتٍ ، تُطّلُ على النّيلِ والبحرِ المتوسّطِ معًا منظرٌ ساحرٌ، وطبيعةٌ مبهرَةٌ ، حيثُ الحدائق والأزهار ، والجّوُ المعتدلُ ، والمناظرُ الخلابةٌ ، هنَا يقعُ منزلٌ هادئ جميلٌ ، حيثُ يعيشُ الأَخَوَان : عبد الله وعبد القادر، وأسرتيهما الصغيرتان : سناء زوجة عبد الله ، وابنهما أحمد ، وسميحة زوجة عبد القادر ، الّتي وهبها الله تعالى طفلة أسمتها {سمر} بعد خمس سنوات من الزواج.

اليوم موعد حفلة استقبال المولودة الجديدة{سمر}، ستكونُ أجملَ الحفلاتِ ، ستُذبحُ الذبّائحُ ، وتُعلقُ الزينّاتُ ، وتُوزعُ الهدايَا ، فرحًا بالصّغيرةِ الّتي وُلدتْ ، بعد صبرٍ سنينَ عجافَ.

الكلُّ يستعدُ بفرحٍ وسرورٍ، أمّا أحمد فقدْ كانتِ فرحتُه وشغفُه يفوقان الجميع ، فقدْ طال به الانتظار خمسَ سنواتٍ حيث احتلتْه الوحدةُ ، هناكَ في منزلِهم الكبيرِ، وأخيرًا سيكونُ له رفيقةٌ و صديقةٌ تفهمُه ، وتشاركُه اللّعبَ والحياةَ.

تلهف أحمد لرؤية الصغيرة وطلب من والدته مرافقتها للغرفة، ولكنها رفضت بشدّة ، وذلك لأن سمر أُصيبت بمرض الصفراء ، ومنَع عنها الطبيب الزيارة وحَظر الإضاءة ، ليتم تعافيها سريعا

لم يعِ أحمدُ كلّ هذا ، مازال صغيرا، ورغبته في رؤية سمر، كانت مُلّحة ، وأقوى من أي أعذار، اغتاظ أحمد من رد فعل والدته ، وهمَّ يفكرُ في طريقةٍ لرؤيةِ سمر دونَ أن ينتبِه له أحدٌ طالتْ جلسةُ التفكيرِ الخاصةِ به وبعدَ مدٍ وجزرٍ قرّرَ النزولَ للشارعِ ، وراحَ ينفذُ خطتَه المبتكرَة ظنًّا منه أنّهَا ستنجحُ لكن وا أسفاه خابَ ظنّهُ وخانَه عقلُه المدبرُ، حيثُ أنّه قدْ استندَ على قامةِ كرسي وثبّتَه أسفلَ نافذةِ سمر الّتي كانَ جزءٌ منها مفتوحٌ وأخذَ يتحركُ على الكرسي ذاتِ اليمينِ والشّمالِ محاولًا بثَ نظراتِه التّفحصيةِ داخلَ الغرفةِ وإرسالِ جنودَ العينِ منْ وراءِ فتحةٍ صغيرةٍ بالنّافذةِ ، في هذه الأثناء انزلقتْ رجلُه وراحَ طريحًا على الأرضِ، بعدهَا صدرتْ أصواتُ التأوهِ والألمِ منه فهرولَ إليه والدُه وحملَه للداخلِ وهو يتألمُ

من شّدةِ الوقعةِ الّتي وقعَها، في هذه الأثناء استبدلَ أحمد ملامحَ الإصرارِ والسّعادة والأمل لرؤية سمر بملامح كئيبةٍ اعتلتْ وجهَه المصّفرِ الّذي حملَ مزيجًا من خيبةِ أملٍ في تحقيقِ الرغبةِ وخجل من الموجودين حوله، كأنّهُ ارتكبَ جريمةً وكُشِفَ أمرُه قبلَ أن تكتملَ خطتَه.

كانتْ إصابةُ أحمد بليغة جدًا راحَ ضحيتَها قدمه ممَا استدعَى مراجعةً طبيّةً له و لفَ القدمْ بالجبسِ ، لم يسعدْ أحمدُ لهذَا الأمرْ إطلاقًا لأنّه من هذَا اليوم أصبحَ رهينةً بالبيتِ ولا يسعُه الخروجُ ولا المشي ، الآن كيف له أن يحققَ رغبتَه في رؤية سمر؟ .

بعد فترةٍ من الزمنِ قد تكونُ أسبوعًا كاملًا استوطنَ الملُ على أحمد وخيمتْ الكآبةُ والوحدةُ داخلَه نتيجةَ ملازمتِه الفراشَ طولَ هذه المدة، في يومِ من أيّامِ خيبتِه دقَّ جرسُ البابِ، فتحتْ والدةُ أحمد، وكانتْ المفاجأة حضرتْ سميحَة زوجةُ عمّهِ ومعهَا سمر ليطمئنُوا على أحمد.

مَا إن رأى أحمد سمرَ حتَّى فتحَ فاهُ دهشةً وفرحًا، وراحتْ سميحة تضعُها بين يديه ؛ فرح فرحةً كبيرةً لا توصفُ واحمرَ خجلًا ما إنْ رددتْ سميحة قولَها : - ها هي عروسُك بين يديك متلهفةٌ لك مثلمَا أنتَ متلهفٌ لرؤيتِها .

قالتْ قولَها هذا محاولةً التحسينَ من مزاجِه ومواساةِ آلامِه .تفحصَ أحمد بنظراتِه البريئة الّتي حملتْ كمًا هائلًا من الفرحِ والسّعادةِ والأملِ لا تصفُه الكلماتُ ولَا تعيه الحروفُ فإنّها المؤنسُ الّذي سيكسرُ روتين الوحدةِ داخلَه ويؤنسُ روحَه الظّليلة هنا وهناك ،. إنّها الملاكُ الّذي سيلفُه بعباءةِ الطمأنينة في كل ابتسامة ونظرة، والنورُ الّذي سينيرُ حياتَه المظلمةَ ، بعدمَا كان يشعرُ بالملِ ساعات طويلةٍ ؛ لا يجدُ من يشاركُه حياتَه ،إنّها الحياةُ الجديدة والحياة الأجملُ الّتي طالمَا تمناهَا وبحثَ عنهَا في رحلاتِه الطّويلةِ.

توالتْ الأيّامُ واللّيالي وسابقَنا الزمنُ فمرتْ سنواتٌ عديدةٌ وكبرُ كلٌّ من سمر وأحمد وكانَا لا يفترقَان البتة دائمًا ما تخطفُك أصواتُ ضحكاتِهما المتّعاليةِ في الأرجاءِ وهمَا يتواثبانِ هنا وهناك يتشاركان اللّعبَ ولحظات السّعادةِ والمرحِ ، وما زاد قوةَ علاقتِهما هو تلكَ الشّجارات الّتي تنشبُ بينهُما من فترةٍ لأخرَى بسببِ اختلاف رأيٍ أو ما شابهَ، مثالٌ للبراءةٍ

هما تعلمَا الحبوَ على بساطِ الطّفولةِ معًا ولم يتركَا يدَ بعضهما أبدًا، كلّ هذا كانَ في كنفِ عائلةِ محبةٍ ولطيفةٍ تحبُ العطاءَ والاحترامَ أفرادُها طيبُوا القلوب .

بعد فترةٍ من الزّمنِ حملتْ سميحة والدةَ سمر مرة أخرى ، ووضعتْ في حملِها هذا توأم { حسن وحسين} لكن لسوءِ الحظِ قد أصابتْها مضاعفاتٍ بعد الولادةِ وتعبتْ تعبًا شديدًا، وتعبَ معهَا المولودَان الجديدَان أيضًا، في هذه الأثناءِ شمرتْ الأحزانُ عن صاعديْها لتنهشَ من لحمِ هذه العائلةِ، وعمَ الخوفُ والقلقُ الشّديدُ على سميحة والولدين ، لم تسلمْ سمر من جندِ الخوفِ وشيطانِه بلْ أنّه قد أكلَ من قلبِها الطيّبِ نصيبًا وافرًا واعتلتْ وجههَا صفرةٌ شديدةٌ وامتنعتْ عن الأكلِ؛ ذلكَ من شدةِ خوفِها وقلقِها على والدتِها وإخوتِها الصّغار.

وبعدَ فترةٍ من الزمنِ تلوى فيهَا الجميعُ علىَ بساطِ القلقِ والخوفِ ، عادتْ سميحةُ والأطفالُ للمنزلِ بعدمَا تماثلُوا للشفاءِ ، ولكن سميحة لم تتعافَ تمامًا فهي لازالتْ تشعرُ بالتّعبِ ؛ هذا ما دفعَ الطبيبَ إلى إخضاعِها لمجموعةٍ من التّحاليل الطّبية والأشعةِ وللأسفِ هذه الأخيرة أظهرتْ أنّهَا قد أصيبتْ بمرضِ بالقلبِ ، ونتيجةَ هذا خرتْ قواهَا وضَعُفَ جسمُها ووهنتْ فلم تعدْ تقوَى على أداءِ أشغالِ البيتِ ولا رعايةِ الأطفالِ ، فَهّمَ الجميعُ لمساعدتِها دونَ ترددٍ خاصّةً سناء أمّ أحمد الّتي كانتْ تقومُ بأعمالِ البيتِ عنهَا وترعَى الأطفالَ دونَ مللٍ ولا كللٍ .

حاولتْ سميحةُ الانتظامَ في أخذِ العلاجِ والأدويةِ دونَ تهاونٍ في ذلك ، لكنْ هذَا لمْ يخففْ من خوفِ سمر على والدتِها فهيَ كانتْ تخافُ فكرةَ أن تفقدَ والدتَها على حينِ غرةٍ فكانتْ تدعُو لهَا بالشّفاءِ أناءَ الّليلِ وأطرافَ النّهار، فهي لا تقوَى علَى أن تعيشَ دونَها.

كبرتْ سمر وحانَ موعدُ التحاقِها بالمدرسةِ ، أخيرًا ستلتحقُ بالصّف الأوّل لكنَها لم تكنْ سعيدةً بهذَا فاعتلتْ وجهَها ملامحُ الشحوبِ والاصفرارِ وضاقتْ عينيهَا ممَّا يدلُ على استيائِها لدخولِ المدرسةِ ، وكانَ حزنُها لأسبابٍ أولّها مرضُ والدتِها وتعذر مرافقتِها للمدرسةِ أمّا السببُ الثّاني فهو سفرُ والدِها خارجَ البلدةِ ممّا يمنعُه من مرافقتِها كمَا كانتْ تحلمُ دائمًا ؛ بدأتْ هستيريَا البكاءِ عندَ سمر ورفضتْ التّوقفَ عن ذلك ممَا مزّقَ قلبَ أحمد عليهَا وجعلَّه يشعرُ بالسوءْ لحالِها.

لمْ يتخلَ أحمد عنْ سمر لحظةً واحدةً ولمْ يتركْ يدهَا بل أنّه تشبثَ بها بقوةٍ واصطحبَها معه إلى المدرسةِ وحاولَ بطرقٍ جهيدةٍ طيلةَ الطّريقِ على أن يرسمَ الضحكةَ على وجهِها ويمسحَ الدموعَ من عينيها. لكن هذا لمْ يجدِ نفعًا حيثُ ما إنْ وطأتْ أقدامُ سمر بوابةَ المدرسةِ حتّى رأتْ كلّ التّلاميذ مع أبائهم يتبادلُون الحديثَ ويتمازحُون ويودعُون بعضَهم عندَ البابِ؛ هنا عادتْ سمر لحالتِها الأولى وباشرتْ البكاءَ من جديد لأنّها وجدتْ نفسَها وحيدةً في غيابِ والديهَا.

توالتْ الأيّام وتعاقبتْ السنين ولازالَ الحالُ على ما هوَ عليه، فعّمَ الهدوءُ المنزلَ طيلةَ هذه المدةِ لكنَ مرضُ سميحة لازالَ يزدادُ يومًا بعدَ يومٍ وحالتِها في استياءٍ من يومٍ لأخر؛ ممَّا دفعَها لمراجعةِ طبيّةٍ عندَ مختلفِ الأطباءِ لكن ذهبَت هذه الجهودُ في مهبِ الرّيحِ.

اختلسَ أحمدُ السمعَ لجلسةِ والدِه ووالدتِه وهمَا يتحدثَان عن حالةِ سميحة وعنْ الأطّباءِ الّذين زارتْهم ، وأنهَت حديثَها بالتّأسفِ والبكاءِ ممّا دفعَ أحمدُ للبكاءِ أيضًا خوفًا على فراقِ سميحة وعلى سمر ومَا ستؤولُ إليه بعدَ هذا ، لكنْ ما جالَ بخاطرِه وزادَ من خوفِه ، قلقَه على سمر منْ أن تُصابَ بالمرضِ نفسِه ذاتَ يومٍ.

طَالَ به الحالُ وهو يفكرُ في حالةِ سمر ولمْ ينتبِه حتّى سمعَ آذانَ الصّلاة، فقامَ يجرُ قدميه بتثاقلٍ شديدٍ كمنْ يحملُ ثقلَ أسفارٍ طالَ بها المرتحلُ، توضَأَ ونزلَ للمسجدِ معَ والدِه و تقابلَا معَ عمّه و حسنَ وحسين وأصرّت سمر أن تذهبَ أيضًا معهم ، كانتْ المساجدُ في أبهَى زينتِها استعدادًا لشهر رمضان المبارك وما يميز هذه الأيّام ويزيدُها جمالًا هو لعب الأطفالِ وهم يتواثبُون هنا وهناكَ وصوتُ الشعائرِ الدينيةِ الّتي تريحُ القلوبَ وتطمئنُ لها القلوبُ وزينةُ الشوارعِ والمساجدِ الّتي جعلتْها تبدُو بأحلَى حلةٍ كأنّها عروسٌ زينَتْ ليلةَ حِنَتِهَا.

أدَى الجميعُ صلاتَهم بالمسجدِ ثمّ عادُوا فرحينَ إلى البيتِ، ما إن وصلُوا دقَ حسنُ جرسَ البابِ مراتٍ ومراتِ لكنْ لمْ يفتحْ أحد ظنُوا أنَّ سميحةَ قد غفتْ ، لكن عمّه قد نسّيَ حملَ المفاتيح معهُ فاضطرُوا لكسرِ البابِ وما إنْ ولجُوا البيتَ حتّى وجدُوا سميحة ملقاة علَى

الأرضِ، فاقدةً الوعيَ بمنظرٍ مرعبٍ ؛ ما إنْ رأتْها سمر حتّى راحتْ تعلِي صرخاتِها ونواحَها من شّدةِ الفزعِ والهلعِ على والدتِها.

****

الفصل الثاني

بعدَ مدةٍ قصيرةٍ من صراعِ الطبيبِ مع الطّريقِ السّريعِ وصلَ بيتَ العمّ عبد القادر ليكشفَ على سميحة وبعدَ دقائقَ من مراقبتِه لهَا خرجَ إليهِم مكسورَ الخاطرِ شاحبَ اللّونِ مرتجفَ اليديْن دامعَ العينيْن وراحَ يتلعثَمُ ويلمْلِمُ حروفَه بصعوبةٍ وهوَ يعلِي أنفاسَه شهيقٌ زفيرٌ ثّم يقفُ باستقامةٍ ليقولَ: - للأسفِ فقدنَا المريضةَ.

نعم كانَ يقصدُ سميحة ، قدْ توفيتْ سميحة .

بعدَ سنواتٍ منَ الصراعِ مع المرض توارَت سميحة بالتّرابِ هناك بعيدًا عن أحبتِها ولمْ تتركْ بعدهَا غيرَ شتاتِ الذكريّاتِ متناثرةٍ في كلّ أرجاءِ البيتِ وتاركةً وراءَها سمر وحسنَ وحسين، وقد نالَ منهم الفراقُ واستعبدَهم اليُتْمُ بعدهَا وأحاطَهم الحزنُ والحرمانُ ، ليجدُوا أنفسَهم يكلمُون ظلالَ الخيّال الغابرِ من حينٍ لحينٍ ذلك الطّيفُ الّذي بقيَ يحومُ أرجاءَ البيتِ أو أنّه بقيَ بذاكرتِهم الّتي تخيّلتْه وصدقتْ وجودَه هروبًا من ألَمِ الفقدِ والفراقِ.

كان وقع الصدمة شديد على سمر مما جعلها تقع طريحة على الأرض، فاقدة الوعي لفترة من الزمن ليصاب الجميع حولها بالهلع والخوف.

مرّتْ أيّام العزاءِ بين بكاءٍ وصراخٍ ودموعٍ ، وسمر مازالتْ على حالتِها، طريحةَ الفراشِ ،لا تكلمُ أحدًا ولا تصرفُ نظرَها عن مكانِ والدتِها فهي لَا تقوَى على مواجهَة الواقعِ المؤلمِ ، ولنْ تتحملَ الحياةَ دونَ والدتِها ، فقدْ أظلمتْ الدنيَا بعيونِها ، و تحوّلَ المنزلُ لغابةٍ موحشةٍ مليئةٍ بالدموعِ والشّجنِ ، يتحركُ بها أشباحُ ترتدِي السّوادَ ، هكذَا أصبحَتْ نظرةُ سمر للحياةِ.

مرتْ الأيّام ولازالَ حالُ سمر على ما هوَ عليه بلْ أنّها قدْ اعتزلتْ الجميعَ وهذَا ما زادَ قلقَ أحمد والآخرين عليْها، أيّام وأيّام مرتْ في قلقٍ وخوفٍ وتوترٍ على الجميعِ.

منذُ بدايةِ مرضِ سميحة الّذي صادفَ فترة الثّانوية العامّة لأحمد، سطرَ أحمد أهدافًا جديدةً في أن يصبحَ طبيبًا ليعالجَ والدةَ سمر، ويستعيدَ سمر من بئر الأحزانِ الّذي سقطت فيه منذُ مرضِ والدتِها، لكنْ الآن بعدَ وفاةِ سميحة فقدَ رغبتَه في ذلك ، كما أنّه فقدَ طعمَ السّعادةِ

والابتسامةِ والفرحِ ، فكلّ شيءٍ سعّيدٍ رحلَ برحيلِ سميحة وخيّمَ الحزنُ على ساحةِ أحمد منذُ أن فقدتْ سمر ضحكتَها وحركتَها العفوية.

أصبحَ لا يستطيعُ أن يذاكرَ، حتّى المدرسةَ لا يذهبُ إليهَا ، كانتْ والدتُه تحاولُ معه ، ولكنَه يخدعُها ليريحَها ، ويتظاهرُ بالدراسةِ ويمسكُ الكّتابَ ، لكن ذهنَه وعقلَه مع سمر، كلمَا فتحَ الكّتابَ لا يرى به غير صورةَ سمر حزينةً ؛ فتَنهمرُ دموعَه كشلالات نياجرا ، و يتمنَى لو تحملَ عنها كلّ ألمَها ووجعِها.

أصعبُ ما قد يعانِيه المرءُ في هذهِ الحياةِ هو تظاهرُه بالقّوةِ والصّلابةِ خارجيًا بينمَا داخلَه محطمٌ من الآلامِ والأحزانِ، فهذه القّوة الكاذبةُ يلبسُها أمامُ الآخرين بينمَا إن خلَا بنفسِه تجدُه يزلزِلُ الأرضَ زلزالًا من شّدةِ ألمِه والحزنِ الّذي شابهَ بركانًا خامدًا داخلَه ينشطُ من فترةٍ لأخرَى .. إنه الكتمان..

لم يتخلَ أحمد عن سمر لحظةً واحدةً دائمَا ما كانَ يحاولُ أن يظهرَ ابتسامتَها ويتغلبَ على حزنِها يريدُها أن تكونَ قويةً صلبةً لا تقهرُ وتواصلَ الحياةَ ، يحاولُ أن يطمئنَها أنّه بجانبِها دائمًا ، لكن كلّ محاولاتِه باءتْ بالفشلِ ولم يعدْ بيدهِ شيء غيرَ الدعاءِ لها في كل صلاةٍ ، بل في كل لحظةٍ ، ولكنّه تعلّمَ أيضًا إعطاءَ الحقنِ ، ليساعدَها في العلاج ويبقى جانبها أكبر وقت ممكن ، وبينمَا هو يعطيهَا العلاجَ رنَ جرسُ البابِ ، فخرجتْ والدتَه لترَى من الطّارق ، بينما أحمد ظّل بجوارِ سمر وأمسكَ يدها بحبٍ وهو يردّد:- سمر اشتقتُ لكِ ، اشتقتُ لحياتِنا معًا لمرحِنا، لخصامِنا ، للعبِنا وضحكِنا ، أنا ميتٌ دونك ، سمر .. عودِي وأعيدِي نبضَ القلبِ معكِ، بثي الحياةَ بينَ ضلوعِي وأنتِ تشدينَ أذنِي ، اشتقتُ لكِ كثيرًا ، صبرًا يا سمر كونِي قويةً لأجلِي ولأجلِك ، حياتِي لا معنَى ولا طعمَ لهَا دونكَ، ليتكِ تعلمينَ حُبّي لكِ ، كنتِ شمعةَ قلبِي وشمسَ حياتِي ، منذُ غبتِ انطفأتْ الأنوارُ وخيّمَ الظّلامُ وتعلمينَ كم أخافُ الظّلامَ يا سمر، عودي يا حبيبتي وصغيرةَ قلبِي وعشقي ، ليتكِ تعلمين مدى ألمِي وحزنِي عليكِ، أعدكِ سأكون لكِ كل أهلكِ ، صدقيني لن تشعري بغياب والدتكِ ، بين أحضاني وطنكِ وبيتكِ وأمانكِ ، لكِ الحنان والعطف والحب كله، لن يشاركِكِ الحضن أحد ولن يمنعكِ عني أحد، ولن يأخذك عني أحد، لن أدعكِ تشعرين باليُتم ، أعدكِ يا صغيرتي

.. ثم انفجرت مدامعه وأضاف بصوته المبحوح الخافت : - إذا غادرتني سمر تغادرني الروح بعدكِ ، أرجوكِ تمسكي بالحياة من أجلي ، من أجل إخوتك ، من أجل الحياة نفسها فلا حياة لي بدونك.

ثم طأطأ رأسه على يدها ودموعه تنهمر من عيونه الذابلة بفعل السهر ، ولم ينتبه حتى شعر بيد تربت على كتفه، ما إن استدار حتى وجد والدته تحاول مواساته بنظرات من عيونها ، التي حملت الحسرة على حال ابنها والشفقة والأسى على حال سمر، ثم حمل ثقل جسمه غصبا وبسرعة ليرميه في حضنها الدافئ ويقول: - ما حالُ بيتِنا يا أمّي؟ أين سعادتَنا؟ أين ضحكاتِنا وأصواتِنا الفوضّوية لماذا خيّمَ الحزنُ يا أمّي ؟!

أشعرُ بالضّياعِ والأسَى فلا شيء يخففُ عني الألمَ داخلِي، نيرانُ الفقدِ تحرقنِي يا أمّي ، أخافُ على نفسِي فراقَها وأخافُ عليهَا الموتَ دونِي ما حالُ بيتنا يا أمّي؟

كنَا في حلمٍ جميلٍ ، كنَا سعداءَ بالأمسِ القريبِ ، فجأةً تحوّلتْ حياتُنا إلى جحيمٍ ، وانقلبتْ لكابوسٍ لا ينتهِي ، منَ الألمِ والحزنِ ، تعبتُ يا أمّي ، حتّى أنّني فقدتُ الشعورَ بالتّعب، لا أشعر بأعضاء جسمي كأنها خاصمتْني هي الأخرَى وتخّلَت عني ، أيعقلُ أن تقلبَ حياتِي بهذَا الشّكلِ؟!

كلماتُ أحمد كانتْ خناجرَ ذبحتْ فؤادَ الأمّ ومزقتْه أشلاءً.. أشلاءً ، حرقَها ألمًا عليه وحسرةً على حالِه، فراحَتْ تحاولُ التهدئَة من روعِه وأخذتْ تخبرُه أنَّ كلَّ شيء مقدرٌ ، وكلّ شيء رحمة من الله ، وأنّنا لا نملك من أمرنَا شيئًا، و أن عليه الرضَا بقضاء الله والدعاء لسمر بالشفاء ولأمّها بالرّحمةِ .

فجأةً تحركّتْ سمر، وأصدرتْ صوتًا ، نظرَ أحمد إليْها ليرَاهَا فتحتْ عينيهَا ، ثمَّ مسكَ يدهَا وقبّلَها ، وخرّ لله ساجدًا وشاكرًا فضلَه بعودتِها للحياةِ ، وعودةَ قلبِه لنبضِه مرّةً أخرَى.

توالتْ الأيّام وتعاقبَتْ وبدأتْ حالةُ سمر تتحسنُ بالتّدريجِ ، إلى أنْ عادتْ للبيتِ وعادتْ للحياةِ من جديد، وعادتْ معهَا فرحةُ أحمد و إخوتِها ، كأنّه الميلادُ الجديد بعد الموتِ، عادتْ سمر وعادتْ الفرحةُ والبهجةُ معهَا وكانتْ والدةُ أحمد ترعاهَا وترعَى إخوتَها الصّغار.

بعدَ تحسنِ حالةِ سمر حاولَ أحمد العودةَ للمدرسةِ واستدراك الدروسِ الّتي فاتتْه ، لكن للأسف عقلُه كانَ مشغولًا بسمر ، فلا ينفكُ إلّا أن يفكرَ فيهَا فقط ، وهذا من حبّه لها من جهةٍ ومن قلقهِ عليها من جهةٍ أخرى.

رغمَ أنَّ سمر تحسّنتْ عن سابق عهدِها إلّا أنّها لم تعدْ كحالتِها الأولى ، فهي لا زالتْ لا ترغبُ بالحياةِ ولا تتردُ للمدرسةِ، تقضِي معظمَ وقتِها منعزلة عن النّاس شاردةَ الذّهنِ ؛ هذا ما شغلَ تفكير أحمد أيضًا كيفَ له أن يجعلَها تعودُ لابتسامتِها وعفويتِها ، طالَ به التّفكير إلى أن توصلَ لشيء سيفرحُ سمر كثيرًا ، إنّها تحبُ الهدايَا وخاصّةً الكتب إنّها قارئة نهمة تضيعُ بين الروايّات والقصصِ وتقضِي أوقاتَ فراغِها تجولُ من مكتبةٍ لمكتبةٍ تنتقِي كتبًا ؛ لهذا قررَ أحمد أن يهديهَا مجموعةً من القصصِ والرواياتِ اختارهَا بعناية.

بعد رحلتِه الطّويلة بين رفوفِ الكتبِ تمكّنَ من اقتناءِ مجموعةً لا بأسَ بها وها هو عائدٌ بها للبيتِ ، فوجدَ سمر تجلسُ بالحديقةِ وحيدةً شاردةً الذّهنِ فراحَ إليهَا وقدّمَ تحيتَه ثّم أعطاهَا الهديةَ مع وردةٍ حمراءَ.

رغمَ الحزنَ الّذي تسّلطَ على قلبِ سمر ورغمَ معاناتِها الحالية ، إلّا أنّها لمْ تقوَ إخفاءَ ابتسامتِها الّتي تعبرُ عن سعادتِها للهديةِ ، وامتنانِها لأحمد وشكرهَا له، وقد شكرتْه فعليًا عن هديتِه وعن اهتمامِه بها ، فضول أحمد لا يتوقفُ أبدًا أرادَ أن يعرفَ رأيَ سمر في المجموعةِ الّتي اختارَهَا فقالَ: - ألن تفتحي الهدية ؟

سمر: - لاحقًا سأفتحُها ، لماذا كلّفتَ نفسكَ ؟

اقترب أحمد منها مرددا: -لا عليكِ يا سمر هذه هدية بسيطة ، ظننت أنّكِ ستفرحين

صمت قليلا ثم استطرد ضاحكا : - هذه هدية العام بأكمله ، عيد ميلادكِ القادم ، ونجاحكِ وعيدي الفطر و الأضحى

ابتسمت سمر وهي تقول له : - كلّ هذه المناسبات في هذه الهديّة ، سأفتحها وأعطيك رأيي .

ما إن فتحتها حتى كادت تطير فرحا بالكتب والروايات الّتي تعشقها.

غمرت أحمد سعادة برؤيتها تبتسم وداعبها قائلا: - أخيرًا ابتسمتِ ، الحمد لله علي عودتكِ يا صغيرتي.

بأسى ترد سمر:- لم أعدْ صغيرتك يا أحمد ، فقدْ نالَ مني الحزنُ وشابَ رأسِي على بساطِ الطّفولةِ بعد وفاةِ والدتِي كأنّني كبرتُ بمائة عام بعدها.

بحزن رد عليها : - لا عليكِ يا صغيرتي ،ستظّلين صغيرةً في عيني ، ستظّلين الطّفلةَ الّتي حملتُها يومَ ميلادِها وكانتْ تبتسمُ لي ، وعموما ليسَ بيننَا شكرٌ، سنجلسُ هنا كلّ يومٍ وسأقرأ لكِ القصص والروايات اتفقنا ؟

نظر أحمد إليها مستطردا:- أعرف أن أسلوبي شيق، وأيضا سأعلّمك القراءة ، أعرف أنّكِ ما زالتِ تتهجين وضحك بصوتٍ عالٍ

غضبت سمر ، وضربت أحمد بالكتب على رأسه ثم قالت: - كل هذا (صغيرة وستعلمني هجاء الكلمات) شاهدْ ما ستفعلُ الصّغيرةُ ، وأسرعَت خلفَ أحمد بخرطومِ الحديقةِ ، وكادتْ تغرقُه لولَا قدومَ سناء تنادِيهم للطّعام ، كادَ أحمد يطيرُ فرحًا بعودةِ حبيبتِه للحياةِ ، وبعدَ تناولِ الطّعامِ أشارَ لها أحمد و خرجَا للحديقةِ معًا في فرحٍ وسعادةٍ.

بدأ أحمدُ يقرأ على سمر، بطريقتِه السّاخرةِ الجميلةِ وهي تضحكُ تارةً وتبتسمُ تارةً ، حتّى غرقتْ في سباتٍ عميقٍ ؛ وسقطَ رأسُها فجأةً على كتفِه ، فشّعرَ برعشةٍ بجسدِه ، ودقاتُ قلبِه تتزايدُ ، وقد تسمر مكانَه لا يعرفُ ماذا يفعلُ ؟

خافَ أن يتحركَ فيوقظُها و هي لأوّلِ مرّةٍ منذ موتِ أمّها تنامُ بلا مهدئاتٍ ، وجلسَ في صمتٍ ينظر إليها ويراقب تنهيداتها وهي تنام كملاك بريء، ظّلَ هكذَا حتّى جاءت والدتُه ، فطلبَ منهَا غطاءً و مخدةَ لسمر ، وحركَها برفقٍ لتنامَ وقد رفضَ أن توقظَها ؛ خوفًا عليهَا إن استيقظَت ألّا تنامَ مرّةً أخرى ، وقرّرَ أن ينامَ هو على الأرض بجوارِها حتّى الصّباح يرعاهَا ويتمنَى لهَا نومًا هادئًا وأحلامًا سعيدة ، ظّلَ ينظرُ إليهَا بحبٍ وسعادةٍ حتّى خطفَه النومُ خلسةً.

وجدَ أحمد سمر توقظُه ، و حبّاتُ المطرِ تتساقطُ فوقَهم ، وهم يمرحَون ويضحكُون ويتسابقُون في الحديقةِ ، كانَ أحمد سعيدًا بسّعادةِ سمر- الّتي بدتْ تحتَ المطرِ كطفلةٍ صّغيرةٍ - تلهُو بألعابِها .

الفصل الثالث

وقفَ أحمد يستمتِعُ معهَا بالمطرِ، ثّم جذبتْه معهَا ليمرحوا تحتَ رذاذِ المطرِ، الّتي بدت كحبّاتِ اللؤلؤ المنثورِ، على الأرضِ وعلى رؤوسهم المبتلَة ، أغمضَ كلاهمَا عينيهِ ، وأخذَا يدورَان كالأطفالِ ، حتّى سقطَ أحمد واتسختْ ملابسُه بالطّينِ ، وهنَا تعالتْ ضحكاتُ سمر ؛ فغضبَ وقامَ يجري خلفَها ليمسكَ بها ولكنَها تعبتْ وتوقفَتْ، أمسكهَا وضحكَا معًا، ثّمَ طلبتْ منه أن ينزلَا النّهرَ فهي تودُ أن تركبَ هذه المراكبَ الراسيةِ قربَ النّهرِ، وتحتَ إصرارِها عليهِ ، وافقَ على مضض فالطّقسُ ممطرٌ ولا يصلحُ لركوبِ النّهر، لكن ماذا يفعلُ مع صغيرتِه المجنونةِ ، نزلَا وسقطَ حذاؤهَا بالنّهر ، مدَ أحمد يدَه ليمسكَه فسقطَ بالمياهِ ، وسمر لم تستطعْ أن تمنعَ نفسهَا من الضّحكِ ، خرجَ أحمد غاضبًا ومبتلّا ، وأخذَ يعطسُ بشّدة ، لقدْ أصابَه البردُ ، وقالَ لهَا :- أنا مخطئ حقًا لأنّي سمعتُ كلامَ مجنونةٍ مثلكِ أيّتها البلهاء.

وتوجهَ غاضبًا نحوَ المنزلِ، وهي خلفَه تحاولُ أن تصالحَه، استدار واقتربَ منهَا معلنًا حبّه لها ثّم ضّمهَا إليهِ ، ومدَ يدَه وقطفَ وردةً ووضعَها في شعرِها المسدولِ كاللّيل على كتفيها ، خجلتْ سمر منْه وابتعدتْ لكنَه جذبَها إليه ، وضمهَا برقّةٍ ، وكادَ يقبّلُها ، لكنَه سمعَ صوتًا يأتِي من بعيدٍ كصوتِ والدتِه، تنادِي باسمه ، ظّلَ الصّوتُ يقتربُ، حتّى نهضَ أحمد مفزوعًا من نومِه ؛ ليجدَ كلّ ما حدثَ مجردَ حلمٍ جميلٍ ، نفض الكسل عنه وفرك عينيه وابتسم ثم قال :- آه لو كان هذا حقيقة إنها أجمل ما قد يكون ، لو كان واقعا .

تمنى لو أن والدته تركته ليستمتع به ، نظر إلي والدته وقال لها: - أسعد الله صباحكِ أمي ، كان حلما جميلا جدا ليتكِ لم توقظيني منه، تمنيت ألّا استيقظ منه أبدًا

تبتسم والدته مرددة : أسعد الله صباحك ابني العزيز، وجعل أحلامك واقعا وأيامك كلها جميلة ، ولكن لتحقيق أحلامك لابدّ من الجدّ والعمل ،لا النوم و الكسل ، هيا انهض لتهتَّمَ بدروسِك ، وتحققَ أحلامَك وتنال ما تتمنى فلم يعد هناك وقت للكسل.

استيقظت سمر وألقت عليهما تحية الصباح ، وسألت : - كيف نمت هنا ؟ لا أذكر شيء

ضحك أحمد قائلا : - صباح الخير عزيزتي ، نعم نمتِ هنا ، بينما شهريار يروي لكِ القصص ، في حين اضطر شهريار النوم على الأرض ليحرسكِ حتّى أدركه الصّباح ، وهلّت والدته الحسناء سناء لتوقظه من أحلامه الجميلة.

ضحكَ الجميعُ على أسلوب أحمد وروحه المرحة ، وتمنت سمر أن تراه كاتبًا ذاتَ يومٍ ، فهو يتمتعُ بأسلوب سردٍ رائعٍ للقصصِ بجانب كتابتِه الجميلةِ.

ذهبوا لتناول الإفطار، ثم أحضروا كتبهم للدراسة جميعا؛ ليحاول كل واحد أن يجمع ما فاته من دروس، فقد اقتربت الامتحانات وفاتهم الكثير.

بعد صلاة العصر تجمّعوا لتناول الغداء ، وكانت سمر تبدو حزينة

لاحظ أحمد حزنها فقال: - ماذا بكِ يا صغيرتي ؟ لقد كنتِ سعيدة ما الذي غيركِ فجأة.

ترد سمر بأسى : - لا عليك ، أنني أفتقد والدي ، سفره الكثير وغيابه يؤلمني، أشعر أنه يهرب من حزنه بالسفر وكثرة العمل ، كم أشتاق لسماع صوته في المنزل ، فهو كالنّغم الّذي يعطينا الدفء والحنان، وجوده معنا يمدّنا بالأمان ، نحتاجه الآن أكثر من قبل، أتمنى أن يعود ويحتوينا بحبه وعطفه، أنت تعلم أن الأب هو الأمان.

بود وعطف يرد أحمد: - لا عليكِ يا سمر، إنه موسم التّجارة لذا زادَ سفرُه، ووالدي أيضًا معه ، سوف يعودُ قريبًا ويكون معكِ ، فلا تحزني وحاولي أن تذاكري جيّدًا ، لقد اقتربت الامتحانات ،لا تفكري كثيرًا واطمئني ، لقد سمعتُ أن والدي وعمّى يُجهّزان لبدأ تجارتهما هنا ، ولن يكون هناك سفر بإذن الله ، سوف يستقرّون معنا .

ترتاح سمر لكلامه مرددة : - حفظك الله لنا أحمد، لا أدري ماذا كنا سنفعل لولا وجودكم أنت و(ماما سناء) معنا ، شكرًا لكم.

يعبس أحمد غاضبا من كلامها قائلا :- رجاء يا سمر لا تكرري هذا الكلام ، نحن أهل ولا يُشكر أحد على واجبه ،أحضري كتبكِ وتعالي للحديقة لنذاكر هناك ، فالطقس بها رائع و يريح الأعصاب.

بينمَا هم يراجعونَ دروسَهم ، ظّل أحمد شاردًا في كلمة سمر عندما نادته بأخي ؛ آلمتْه الكلمة لمَا يكنه لها من مشاعر حب .

فجأة سمعوا صوت صراخ والدة أحمد من داخل البيت فهرعُوا جميعًا إليهَا.

الفصل الرابع

عند وصولهم باحة البيتِ، وجدُوا والدة أحمد ملقاة على الأرض وتتألم بشدة ، لقد سقطت أثناء هبوطها الدرج ولا تستطيع الحركة ، حاول أحمد أن يساعدها لتقف ولكنّ الألم شديد وقدمها ملتوية ، اتصَّل أحمد بالطّبيب فحضر سريعا وفحصَها وأمرَها بالرّاحة التّامةِ ، وأمرها أن تظلّ شهرًا على الأقلّ في السّرير دون حركة.

تردّد أحمد هل يتصّل بوالدِه وهو على سفرٍ و يقلقُه أم لا ؟

فقرّرَ ألّا يقلقَه ويتصّرفَ هو بالأمرِ، لكن الأمر ليس هينًا ، فلا أحدَ هنَا للمساعدةِ فلم يكنْ لهم غير خالةٍ وحيدةٍ ، وقد سافرتْ مع زوجِها إلى الكويت منذ سنوات، ظل أحمد يحدثُ نفسَه متسائلًا :- ماذا أفعلُ ؟ هل أستطيع تحمل مسؤولية البيت وتلبية طلباته وأنا على وشك الامتحان قريبًا ؟

ظّل يفكرُ بحيرةٍ طّويلًا حتّى قرّرَ أمرًا، وحدثَ نفسَه به: - سوف أقومُ بتأجيلِ الثّانوية هذا العام والأمر لله ، بينما هو غارق ببحر الحيرة والتفكير تقاطعه سمر قائلة:-

أحمد هل ستتصل بعمي و والدي لتخبرهما ؟

أحمد: - لا لن أخبرهما فقد أسببُ لهما قلقًا وهمَا على سفرٍ، لم يتبقَ من الوقتِ الكثّير أسبوعٌ واحدٌ ويعودان ،لا داعي لأن أوترهما وأزعجهما.

سمر:- أخشى أن يغضب عمي منك ، والمشكلة كبيرة ماذا سنفعل بأعمال المنزل ؟

أحمد: - بالتأكيد لست أنا من سينظّفُ ويطبخُ ، أنتِ البنت الوحيدة هنا وها هي فرصتك لتبهرينا ، وتتفنني بالطّبخ و تنظيم المنزل بذوقِك الرّفيعِ.

سمر:- أنت تمزح أليس كذلك ؟! فأنا لا أجيدُ أعمالَ المنزلِ ، أتقن فقط تحضيرَ الشّاي لكم.

أحمد: - الشّاي فقط !

ضحك أحمد وقال: - إذا سوف نصاب بالأنيميا أنا وإخوتك ، الأمر لله سأجرب أنا ونتعلمُ سويًا ووالدتي ستوجهنا ونتبعُ الخطوات، ليس هناك حلًا آخرًا.

ترد سمر ضاحكة: - أنت تطبخ وتغسل إذا ستكون الحاجة أحمد ، عذرًا منك تخيلتك الآن ، وتستمر بالضحك لكن لحظة .. ودروسك وامتحاناتك ! أيعقل هذا لن ينفع أبدا ؟ ، أنا سأتعلم و أجرب والله المستعان ، وأنت ركز في دروسك، الوقتُ ضيّق والامتحانات قريبًا

أحمد ضاحكا :- لست مجنونًا لأتركَكَ تُجرّبين ، لا نريدُ المجازفَة ، سيحترقُ الطّعام ، وقد يحترقُ البيتُ بالكاملِ، هل نسيتِ ؟ عندما فكرتِ أن تصنعي لنا الكيك، كما أخذتِ الطّريقة بالمدرسة ، وقتَها احترقَ الكيك ، وكاد البيتُ أن يحترقَ، لولَا سترَ الله.

دخل أحمد المطبخ وعندما أمسك الوعاء ليطبخ ؛ انفجرتْ سمر ضاحكةً من مظهره.

نظر لها أحمد قائلا: - لن نأكل اليوم ، وسنقف نضحك هنا ، هيا تحركي وساعديني ، قطعِي لي البصل، وأنا سأجهز اللّحمَ، سأحضّر حساءً رائعًا لا مثيل له حتى بأكبر المطاعم ، اليوم ستأكلون أشهى الطعام من يد الشيف أحمد .

أمسكت سمر البصل لتقطّعه ؛ فسالتْ الدموعُ شلالات من عينيها وتوالت العطسات منها.

أحمد :- كل هذه الدموع من البصل ؟ اذهبي واغسلي وجهكِ ، لن تنفعي معي هنا ، هل أطبخ وأبدع أم أهتمُ بكِ ؟ !

سيكون دوركِ تنظيفَ وتنظيم المنزل فقط ، هيا انصرفي واتركيني لأنجز عملي .

مرَّ أسبوع كامل وأحمد يحارب في المطبخ كلّ يومٍ ، وسمر وسناء تشجعانه ، إلى أن وصلَ والدُ أحمد وعمّه من سفرِهما ، غضبَ والده منه لإخفائه مرض والدته ، لكنه سُرَّ منه أيضا لأنه يحاول تحمل عبء المسؤولية في هذه السن الصغيرة ، وبما أنه وصل الآن عليه حل المشكل فقد قرر إحضار خادمة تكون ثقة ، ليسلمها مسؤولية البيت ، والآن لم يتبق لأحمد من مسؤوليات غير دراسته ، فحاول أحمد أن يلملمَ شتاتَ نفسِه ويُحصلَ دروسَه ، لكنّهُ شّعرَ بالغرق في دوّامة كبيرة فلن يستطيع تجميع دروسه ولا تعويض ما ضاع من الوقت هذا العام.

فعزم على تأجيل الامتحان هذا العام ، ولكن كيف سيخبر والده ، كان والده صعب المراس ، فتحدّثَ إلى عمّه ووعدَه أن يقنعَ والده ، وافق والده بعد مناقشة طويلة ، خصوصا بعد الظروف المريرة هذا العام .

وأخيرًا قرّرَ والدُه وعمّهُ أن يستقرَا ويتفرغا لتّجارة الحبوبِ و الغلالِ ، فقد تعبَا من السّفر و التّرحال، ومسئولية الأولاد كبيرة على سناء وحدَها ، وهاهي مريضة لا حول لها ولا قوة.

كانَ أحمد يساعدُ والدَه بالحساباتِ في فترةِ العطلةِ المدرسيةِ لكن أغلب وقته كانَ يقضيه مع سمر وإخوتها ، بين المرحِ واللّعبِ ، وقراءة القصّص والرّوايات.

وكان الحاج عبد الله والدُ أحمد يعشقُ القراءةَ أيضًا ، فقرّرَ تجهيزَ مكتبةٍ كبيرةٍ بالمنزلِ ، تضّمُ مئاتَ الكتبِ والقصّصِ ، سعدت سمر عندما أخبرَها أحمد ؛ فسوف تكونُ المكتبة بمثابةِ ثروةً أدبيّةً وترفيهيّةً لهما ، فعشقهما وشغفهما بالقراءة لا حدود له.

كانت والدة أحمد تفكرُ في أمرٍ آخر، وهو زواج الحاج عبد القادر، وتحدّثت إلى الحاج عبد الله ، لكنه عندما عرض الأمر على أخيه عبد القادر، رفض بشّدة وثار غاضبا، وطلب منه نسيان هذا الموضوع وعدم التفكير فيه البتّة.

بينما كانا أحمد وسمر يتناقشان في قصة جديدة

سألها أحمد: - ما رأيكِ بالقصّة ؟

ابتسمت سمر قائلة: - قصّة جميلة جدا، ولكن أحزنني موت الأمّ وأفزعني زواج الأب بعد موتها ، أين الوفاء ؟! كيف نسي حبه لها هكذا ؟!

تنهد أحمد وهو يردد : - الوفاء ليس معناه ألا يتزّوج بعد وفاة زوجته ، زواجه كان من أجل أولاده ورعايتهم ، ليس له أحد يعينه لرعايتهم ، أحيانًا الظّروف تجبرُنا على قرارات عقلية بحتة ، لا سلطانَ للقلبِ عليها ، الوفاء هو تذكرها والدعاء لها وتربية أولادها ورعايتهم ، ومهما كان حزنه عليها ، لا بد أن يتجاوز الألم ويفكر بعقلانية ، حتى لو مات قلبه لابد أن يعيش ويفكر بعقله ، من أجل رسالته ليوصل أبناءه لبر الأمان .

تعبس سمر وترد بأسى : - كلامك أخافني جدا ! ،هل من الممكن أن يتزوج والدي بأخرى ؟!، لا أتخيل أحد مكان والدتي ، لو حدث ذلك سأموت ، سأظلّ أدعو الله ألا يفكر والدي في الزواج ، تساقطت دموعها وأخذَ أحمد يهدئِها ويطمئنُها بأن ذلك لن يحدث ، وظّل يهدأ من روعها حتّى هدأت .

وفي المحلّ كان الحاج عبد القادر والحاج عبد الله يتناقشان في الأعمال والتجارة ، فجأة رن هاتف الحاج عبد القادر ؛ ففزع ما إن رأى هويّة المتّصل و همّ واقفًا ، ممَّا أثارَ قلق أخيه الحاج عبد الله فسأله بقلق: - من المتّصل ؟

****

الفصل الخامس

يرد عبد القادر بقلق:- إنّه فتحي شقيقُ زوجتي رحمّها الله ، غريبة جدًّا ، لم يتصّل أحدٌ منهم منذ سنين طويلة ، أنتَ تعلم الخطر من هذا الاتصّال ، قلبي غير مطمئن ، أنتَ تعلم حكاية الثأر والقتل عندهم في الصعيد ، كانت رغبة والدها أن أبعدها خوفا عليها من قلبها الضعيف ، لدرجة أنّه طلب مني ألا أتصل بهم مهما حدث.

وبالفعل نفذت طلبه ، ومن يوم زواجنا لا أعرف عنهم أي أخبار ، ورغم قلق زوجتي وإلحاحهَا مرارًا وتكرارًا وبكائها اشتياقًا لأهلها لم أنفذ رغبتها احتراما لوعدي لوالدها وتجنبًا للخطر ، أخشى أن أردَ عليه.

يربت عبد الله على كتفه قائلا : - الله يبعث الخير أأخي، رد عليه وتوكل علي الله ، أكيد الخطر زال والأمر هام ،رد وأطمأن.

ردّ الحاج عبد القادر على الهاتفِ وهو يرتعدُ خوفًا ، كان الطّرف الآخر فتحي شقيق زوجته .

فتحي : - السّلام عليكم يا حاج عبد القادر، أتمنى أن تكونوا بخير جميعا ، مرّت سنواتٍ طّوال ، أدعو الله أن تكون أختي بخير.

عبد القادر:- وعليكم السّلام أخي فتحي ، الحمد لله نحن في نعمة بفضل الله تعالى ، و لكن .. تردد الحاج عبد الله ، فكيف سيخبره بموت أخته بعد كل هذا العمر الطّويل من الفراق ؟!

صمِتَ الحاج عبد الله طويلًا ثّمَ استرسلَ: - يحزنني أن أبلغكَ موتَ أختِك رحمهَا الله.

رد فتحي بحزن : إنا لله و إنا إليه راجعون ،لا حول ولا قوة إلا بالله ، رحمتك بنا يا رب ، لقد تأخرنا كثيرا عليها ، اللهم ألهمنا صبرًا جميلًا، ظننت أنّه حانَ الوقتُ لجمع شتاتنا ، ولمِ شمل ما تبقي من عائلتنا ، ولكنّ الظاهر كُتب علينا ألم فراق الأحبة ومرارة الفقد.

رد الحاج عبد القادر بحزن وأسى: - البقاء لله أخي ، الله يصبرنا جميعا ويعيننا على فراق أعز الناس ،هوّن عليك يا أخي لله ما أخذ وله ما أعطي ، العمر الطويل لك ، أخبرني إذا ما أخبار الحاج والدك وأخوتك ؟

تنهد فتحي بحزن :- للأسف أخي ، الله أخذ أمانته ، أبي وإخوتي رحمهم الله ، إخوتي الثلاثة راحوا ضحية الثأر اللّعين والعقولِ المظّلمةِ ، وأبي لحقَهم قهرًا عليهِم، ومرّت سنوات عجاف علينَا ، تجرعنَا فيها مرارَة الفقدِ والألمِ.

وبالأمس القّريب انعقدت لجنة صلح بين العائلتين وقرروا وقف سفك الدماء ، والعيشَ في سلام، بعد أن فقدنَا فلذات أكبادنا وزينةَ الشّبابِ ، وقد عزمنا على زيارة أختنا رحمها الله ، و حجزنا أنا وأختي منال بقطار الغد ، لكن قدر الله وما شاء فعل.

بأسى شديد يرد عبد القادر: - لا حول ولا قوة إلا بالله ،البقاء لله أخي رحمهم الله جميعا ، أحزنني ما حدث ، ولكن فرج الله قريب ورحمته واسعة ، وأخيرا ستنتهي عصور الجهل والظّلام وتتوقف شلالات الدماء، يشرفنا زيارتكم أخي ، سننتظركم وسيفرح الأولاد بكما، لقد تركت لي زوجتي أجمل ذكرى لها : بنتا وولدين (سمر وحسن وحسين)

هم زهور حياتي ونبض قلبي، وجودهم يمدني بالصبر علي نار فراقها، وسيفرح الجميع بحضوركما .

بسعادة يرد فتحي : - ما شاء الله ، بارك الله فيهم وحفظهم ، ورزقك برهم ،أسعدتني كثيرا بهذا الخبر، سنحضر بإذن الله لنرى أغلى الأحبة.

أغلق الحاج عبد القادر الهاتف ونظر لأخيه وهو يقول له: -لا أعلم كيف سأخبر سمر وإخوتها بهذه الأخبار ؟!

بهدوء وعقل يرد عبد الله : - لا عليك أخي ، سنخبرهم معا إن شاء الله ، الأمر بسيط ،لا تقلق ودع الأمر لله .

في المنزل و بعد تناول الغداء جلس الجميع ، بدأ الحاج عبد الله بالحديث عن الثأر في الصعيد، وما كان يحدث بين العائلات من قتل وسفك للدماء.

ثم أكمل الحاج عبد القادر باقي القصة ، حتى وصلا لخبر وصول الخال والخالة للزيارة قريبا .

تفاجأ الجميع وخصوصًا سمر الّتي لم تكن تعرف عن أهل والدتها أي شيء ، وتمنت لو مرَّ الوقت سريعًا فهي مشتاقة جدًّا لهم.

كانت سمر مشغولة ، ترتّب كل شيء وتستعد لمقابلة الأهل و كان الكلّ في حالة ترقب واستعداد لاستقبال الضّيوف.

ورد اتصّال من الخال فتحي بوصولهم سالمين ، فخرج أحمد مع عمّه بالسّيارة لاستقبالهما وإحضارهما للمنزل ، كانت سمر خائفة رغم سعادتها فهي تخشَى أن لا يكون الّلقاء كما تحلم به.

الجميع مترقب وصول الضّيوف ، دقّ الباب فأسرعت سمر تفتحُ بشوقٍ ولهفةٍ لكنها وقفت في ذهول ولم تنبس ببنت شفة ، وعند دخولِهم وقف الجميع في ذهولٍ مما رأوا وحل الصّمت دقائق.

قطع أحمد الصمت ليرحب بهما : - أهلا بكما في منزلكما، استريحا لقد كان الطريق طويل، أنرتم بلدتنا.

دخلت والدة أحمد وسلّمت على الّضيوف ، أمّا سمر فما زالت في ذهولها مما ترى، حتّى انتبهت لصوت أحمد يحثها على التّرحيب بالضّيوف، نظرت سمر مندهشة مردّدة : - سبحان الله كأنّي أرى أمّي رحمها الله ، و أجهشت بالبكاء فاحتضنتها خالتها منال - الّتي تعتبر نسخةً طبقَ الأصلِ من المرحومة سميحة - فهي أختها التوأم، وجدت سمر في حضن خالتها حنان وحب وأمان تفتقدهم منذ موت والدتها ، تنهدت وأغمضت عينها وتخيلت أمها وكأنها تشم رائحتها وتتنفس أنفاسها ، لم تتحمل منال فبكت معها وضمتها بحب وشوق ، و كأن كل منهما تُشبع فقدها وتَروى ظمأ قلبها ، لعلها تُطفئ نيرانَ اشتياقها للفقيدة ، فشوق منال لأختها لا يقل عن شوق سمر لها ، فكأن الله كتَب لهما اللقاء من جديد .

كان أحمد حزينًا لبكاء سمر، وحاول أن يُنهيَ الموقف فأدخل حسن وحسين فأسرعا جريا بكل عفوية محتضنين منال بسعادة وبراءة ، بعد الترحيب بالضّيوف جلسَ الجميع يتحدثون عن السّنوات الماضية ، وما حدث هنا وهناك ، مما أخاف سمر وأثار قلقها فموت أهلها مقتولين ليس هينًا عليها، فما زالت تعاني ألمَ فقد والدتها ، أحست أنّها تشاهد مسلسلًا تلفزيونيًا ورأت أمامها بحورَ الدم والشّر ، لم تكن تتوقع أن ما تراه في المسلسلات حقيقة وأن عائلتها جزء منه فاختنقت فجأة ولم تعد تتحمل ما تسمع فعادت للبكاء وضمتها خالتها منار لتهدأ من روعها هي وإخوتها حسن وحسين ، واستأذنت من الجميع وذهبت بهم لغرفة سمر.

كان أحمد يحترق من الألم علي سمر، وتمنّى لو يضمّها إليه ويحمل عنها كل هذا الحزن والألم.

ذهب الجميع للنوم والراحة لكن أحمد ظّل مستيقظًا في حجرته يفكر في سمر، ويدعو الله أن تمرّ تلك الأيّام على خير ويحفظها له، أيضا سمر لم تستطع أن تنام ، ما بين فرحتها بأهلها وحزنها على من ماتوا منهم وبين التفكير في الماضي والخوف مما هو آتٍ.

ذهب أحمد لصّلاة الفجر في المسجد ومعه والده وعمّه لكن عند عودتهم سمعوا صوت في الحديقة فاتجهوا نحوه.

وكانت المفاجأة .

الفصل السادس

أسرع الجميع نحو مصدر الصوت، فإذ بمنال تبكي بشدة ، وتحتضن صورة أختها سميحة، ولكنها عندما رأت الجميع يقتربون منها ،أخذت تجفف دموعها بسرعة ، واعتذرت منهم ، فهي لا تريد إثارة حزنهم ، وتجديد وجع الفقد المرير ، ولكنها أختها التوأم ، فكيف لا تحزن عليها، فلم تستطع منع نفسها من البكاء

واساها الجميع ، وشدوا من أزرها ، ورغم أنّ كل كلمات المواساة لا تفيد ، ولا تخفف ما تشعر به منال من ألم ،وحنين وشوق باتت نيرانه تحرق الفؤاد داخلها حرقا، إلّا أنّها كتمتْ حزنَها وأخبرتْ الجميعَ أنّها بخير، وتوجه الجميع للنوم بعد يوم طويل، أمّا سمر فغلبَها النومُ من شّدة التّعب بعد تفكيرٍ طويلٍ .

يشاء القدر أنّ ترى سمر والدتها في الحلمِ لأوّل مرةٍ منذ رحيلِها، كانت في حديقةٍ جميلةٍ واسعةٍ، تمتدُ على جانبيها الأشجارُ العاليةُ والأزهارُ تفوحُ بعبيرها، تقتربُ منهَا والدتَها وتعطيها سلةً فيها ثلاثةَ ثمارٍ من التّفاحِ الأخضرِ الجميلِ، ابتسمتْ سمر لها وأخذتْ السّلةَ، ثّمَ نادتْ عليها والدتَها واحتضنتْها وأخبرتْها بصوتٍ خافتٍ :

- هذه السّلة لخالتِك منال، أعطيها لهَا، وأخبريها أن تعتني بهم جيّدًا فهم أمانة .

استيقظت سمر وهي تبتسم وتضم يديها وكأنّها تحمل تلك السّلة ، تذكرتْ الحلمَ وابتسمتْ ثم دعت لوالدتِها بالرّحمةِ والمغفرةِ.

حلَّ الصّباحُ واجتمع الجميعُ على مائدةِ الإفطارِ، تحدّث الرجالُ عن الأعمالِ والتّجارة وقررُوا عودة الشراكة مع الحاج فتحي كما كانت بالسابق مع والده رحمه الله ، أمّا سمر فكانت سعيدةً جدًّا ، و لم تكفَ عن الكلامِ والمزاح وكادت تطيُر من سعادتها ، الكلّ لاحظَ بهجتَها ، وحفاوتَها بالضّيوفِ وخصوصًا بخالتها منالُ، يقال بالمثل العربي القديم{ الخالة نبض من الأمّ}.

اعتلتْ البهجةُ والسّعادةُ وجهَ أحمد أخيرًا، لم تكنْ سعادةُ النّجاحِ ولا العيد بل كانت سعادة لفرحِ سمر وعودتِها إليه كسابقِ عهدِها ، فقد رآها أخيرًا تبتسم بصّدقٍ دون محاولتِها إخفاءَ

عكسَ شعورِها داخلَها ، تلك الابتسامة الّتي ذبلتْ بعد موت أمّها ، وقال في نفسه : أخيرًا عادتْ سمر للحياةِ ، فكم أحب خفة ظّلها ، وروحَها الشّقيةَ المرحةَ الّتي غابت عنها .

فرغمَ محاولاتِه أن يخرجِها من صومعة الحزن وتعويضها عن غياب والدتها ، إلّا أن سمر لم تشعرْ بالفرحةِ مثلمَا يراهَا الآن.

مرَّتْ الأيّامُ سريعًا ، وحان وقتُ الفراقِ مرةً أخرى ، فقد عزمَ الخالُ فتحي على العودةِ إلى الصّعيد.

هذا الخبر الّذي أوجعَ سمر؛ وسلبها منها غصبًا ومزّقَ داخلَها أشلاءً كأنّه خنجرٌ مسمومٌ ، مزّقَ أوصالها وقلبهَا إربًا ، و ظّلت طوالَ اللّيل تبكي.

وفي الصّباح،حان موعدُ الرّحيلِ، اجتمع الكلّ باستثناء سمر، انتظروها طّويلًا وعندمَا حان وقت السّفرُ ، اقترحت الخالة منال عليهم أن تذهبَ لتوقظَ سمر لتودعَها قبلَ سفرِها ، دقتْ منال البابَ مرارًا ، لكن سمر لم تفتحْ ، فدخلتْ منال الغرفةَ ، لكنَّهَا صعقَت ممَّا رأتْ ، وأعلتْ صرخاتِها كطلقاتِ ناريةٍ مدويةٍ أرهبتْ الجميعَ وخطفتهم من اللحظات خطفًا.

هرعَ الجميعُ على صراخِ منال؛ ففزعوا ممَّا رأوا ؛ كانت سمر تنامُ وسيولُ الدمِ تنهمرُ من أنفِها ، حاولَ والدُها إيقاظها ولكن دونَ جدَوى ، أسرعَ أحمد وحملَها ، واتّجهَ الجميع إلى المستشفى، والخوفُ والحزنُ يملأهم ، وعيونهم دامعة وقلوبهم واجفة على سمر ، أمّا أحمد فقدْ انهارَ بالبكاءِ ، وكاد قلبُه يغادر الضلوع ليعانق سمر على فراش المستشفى، أخذَ يلفُّ ويدورُ، ويتحرّكُ يمينًا وشّمالًا، بعصبيّةٍ بالغةٍ ، ودموعُه تتساقطُ شلالاتٍ لا تتوقفُ أبدًا ، كانت حالتُه تزدادُ وتوترُه يتضاعفُ ، حاولتْ أمّه أن تهدئ من روعه ، فضّمتْه لحضنِها ولكن زادَ بكائُه.

خافَ أحمد أن يشعرَ أحدٌ به ، فنيران قلبِه تشتعلُ ، وثوراتُ عقله تشتدُّ ، فخرجَ بسرعةٍ قبلَ أن يرتكبَ أيّ حماقةٍ ، واتجهَ إلى مسجدِ المستشفَى ، وظّل يصلِي ويدعو الله وهو مجهشًا بالبكاءِ، حتّى أتاهُ والدُه ليبشرَه بتحسّنِ سمر، هنا خّرَ أحمد ساجدًا شكرًا لله على عودةِ سمر له ، وعودةِ الحياةِ لقلبِه وروحِه.

أسرع أحمد للاطمئنان على سمر فوجدها ضعيفة هزيلة؛ لا تقوَى على الكلام ولا الحركة، وتلك الأنابيب معلقة بيدها ، فزاد حزنه وخوفه عليها ، ولكن تمالكَ نفسَه حتّى لا يبكى أمامَها ويؤلمَها فاقتربَ منها ، ومسكَ يدَها ، يشّددُ عليها برفقٍ ليشعرَها بالأمانِ والقوةِ ، ظّل ممسكًا يدهَا فترةً طويلةً ، لعلّه يحملُ عنها هذا الألمَ والحزنَ ، الّذي يملأ عيونَها الصّغيرة ، حتّى راحتْ في نومٍ عميقٍ .

اتجه أحمد إلى الطبيب، ليعرفَ منه حالة سمر، فأخبره الطبيب : -أنَّ حالةَ نزيفَ الأنفِ كان نتيجةَ ارتفاعَ ضغطِ الدمِ ، ولكن لابد من إجراءِ تحاليل وأشعة لها للاطمئنان عليها ، والتّأكد من عدم وجودِ سيولةٍ بالدمِ ، وحتّى ذلك الوقت ستأخذُ العلاجَ وإلّا ستصابُ بنزيفٍ حادٍ.

بعد سماع أحمد كلام الطبيب وفهمِه حالةَ سمر شعرَ بطعناتٍ متواليةٍ تمزقُ قلبَه ،فلم يشف بعد من خوفِه عليها والآن يزيدُه القلقُ على مرضِها وصحتِها المتدهورةِ ، لم يعدْ يرى شيئًا ، وكأنّه وقعَ في بحر الظّلماتِ ، وخرجَ هائمًا على وجهِه لا يعرفُ ما يفعل ؟ يشعرُ بألمٍ شّديدٍ وخوفٍ و فزعٍ على سمر، يخافُ أن يتكررَ معهَا ما حدث لوالدتِها ، ليجدَ أحدَهم يربتُ على كتفِه ، إنّه والدُه يحاولُ أن يواسيه ويطمئنه أن رحمة الله واسعة ، وأن الله سيحفظها.

مرَّ اليّوم ثقيلًا على الجميع ، وفي الصّباح استعادتْ سمر وعيَها، وفتحتْ عيونَها لتجدَ الجميعَ حولَها، ملهوفينَ عليهَا وقلقينَ جدًّا.

فرح الجميع بسلامةِ سمر، واعتذرتْ سمر للجميعِ ، على كلّ هذا القلقِ والتوترِ، وما لبثت أن انفجرت في البكاء قائلة:- لقد حزنتْ بشدّةٍ لأنّ خالتي منال ستسافرُ وتتركنِي ، بحضورِها شعرتْ كأنّ أمّي عادتْ للحياةِ ، ثّم ما إن علمتْ بنيةِ الرّحيل شعرتُ أنّ أمّي ماتتْ مرّةً أخرى فانفجرت مدامعي طوالَ اللّيلِ ، وبعدهَا لم أشعرْ بشيء، احتضنتْها منال وطمأنتْها ، بأنّها ستّظل معهَا ، ولن تتركهَا أبدًا، وأكّد على كلامها الحاج فتحي بأنّه سيسافرُ هو، ويتركُ منال مع سمر والأولاد ، في هذه اللّحظة ابتسمتْ سمر، وشكرتْ خالها فتحي بشّدة، وتذكرتْ الحلم الّذي راودها سابقًا وقصّته عليهم ببراءةٍ ، فسكتَ الجميعُ ، فالحلمُ كان

رسالة من والدة سمر، تسلمُ أختَها أمانةَ رعايةَ أطفالِها، واخترَقَ هذا الصّمت صوتُ الطّبيب، يطالبُهم بالمغادرةِ حتّى تستريحَ المريضةُ، ولكن سمر لم تفلَت يدَ منال، راجيةً من الطّبيب أن تظّل هي معها ، فوافقَ على مضضٍ.

قرّر الحاج فتحي تأجيل سفره ، حتى يطمئن على سمر وتعود إلى المنزل بسلام .

وفي حجرة الحاج عبد الله والد أحمد ، نظرت له زوجته وهي تقول متحمسة: - وجدتها يا حاج عبد الله ، سبحان الله في حكمته وتدبيره، (العبد في التّفكير والرّب في التّدبير)، بالأمسِ القريبِ كنا نتحدثُ عن زواجِ الحاج عبد القادر، والحمد لله بعثها الله لنا ، أنّها تدابير الله القدير.

احتار الحاج عبد الله من كلامها وتعجب وقد لمح في عينها ، لمعة الفرح كمن وجد كنزا ثّمَ قالَ لها :- هل هذا وقته ؟ ما زالت سمر مريضة ، وأنتِ تتحدثين عن الزواج.

أجابته زوجته : - افهمني رجاءً، باختصار أقصد منال ستكون أنسب واحدة للزواجِ من أخيك؛ سمر تحبّها ومتعلقةٌ بها فهي تشعر كأنّ أمّها عادت من جديد، وما حدث لسمر بسببِ خوفِها من فراقِها، وحلم سمر إشارة لذلك، منال محترمة وعاقلة وتحب الأولاد ، وهم يحبونها.

الحاج عبد الله : - ما شاء الله عليكِ، اختيارٌ موفقٌ جدًّا، وفكرةٌ رائعةٌ ، دائمًا ما تشيرين عليَّ بالخيرِ أتمنَى من الله أن يتمَ هذا الزواج؛ سيكون الأفضل للجميع ، سوف أُخبر أخي ونتناقش في الأمر لاحقًا.

مرّتْ الأيّام سريعًا ، واطمأنَ الجميع على صّحةِ سمر ، حضّر الحاج فتحي وتّمَ الزواجُ في حضور العائلة فقط ، كان الكلّ سعيد وعادت البهجةُ والحياةُ للمنزلِ ، منال كانتْ رقيقةً، هادئةً، وحنونةً، احتوَت الجميعَ بقلبِها الحاني ولسانِها الحلو، وأخيرًا تنفَس أحمد الصّعداء، وانتهت امتحانات الثّانوية العامّة.

كبرت سمر وزاد عشقُ أحمد لها وخوفُه عليها ، لكنه لم يخبرها بحبّه، واكتفَى بأحلامِه وأخفَى سرَه بقلبِه، كان ما بين روحه و قلبه أحاديثٌ لا تنتهي ، وأحلامٌ يتمنَى أن تتحقّقَ ،

أمّا السّر الأكبر الّذي أخفاهُ عن الجميع ، كان نتيجة التّحاليل كمَا طلبَ من الطّبيب ألّا يخبرَ أحدًا ، فسمر ستعاني من سيولةٍ الدّمِ طوالَ حياتِها ، ولابّدَ من حقنةٍ كلّ شهرٍ تأخذُها قبل الحيضِ بيومٍ وإلّا أصيبَت بنزيفٍ ، لكنّه فضلَ إخفاء الأمر لحين وصولِها سنَّ البلوغِ ، لعلّها هدنة للفرحِ والرّاحةِ قليلًا ، ولكن السّر لن يُخفى طويلًا.

وبينما يفكر أحمد في أمر سمر ،إذ بساعي البريد يدقُ البابَ ، ويتركُ لهم خطابًا ، يكتشفُ بعد ذلك أنّه مرسل من ألمانيا ، يتعجبُ أحمد كثيرًا، أي خطاب هذا و من الّذي أرسله ؟

****

الفصل السابع

أثارَ وصولَ الخطاب للمنزلِ ضجةً كبيرةً ، وتردد أحمد هل يفتحه أم ينتظر عودةَ والدِه وعمّه ؟ كاد الفضولُ يقتُله، ولكن والدته أمرتْه بالصّبر والتّأني وألا يفتحَه ، حتّى يصل والده وعمّه من العمل.

في المساء أخذ والده الخطاب بغضب، وشرع في تمزيقه، لولا أن أمسك عمّه يده، وأخذ الخطاب قائلا: - أمّا آن الأوان للتسامح أخي ؟ إنّ الله غفور رحيم ، فلماذا لا ترحم رحمكَ وتصلهُ بعد سنواتٍ من القطيعةِ والغربةِ ؟، يعود إلينا أخي، ألم تشتق إليه، أليس عبد الرحمن بأخيك الأكبر؟ يجب أن تنسَى وتسامحَ، فالتّسامح والعفو من شّيم الكرامِ ، وليس أكرم منك على الجميع ، فلماذا تحرمُ أعزَّ النّاس من كرمك ؟ !لقد رحل من رحل وتبدّلَت الأحوالُ ، وآن الأوانُ للصلحِ و جمعِ شملِ العائلةِ.

تعجبَ الجميعُ ممّا يسمعُون، عبد الرحمن سافر إلى ألمانيا ، رغمًا عن والده وتزوّجَ هناك ، ومنذ ذلك الوقتُ منعَه والدُه من العودةِ لزيارتِهم ، وأمرَ إخوتَه بمقاطعتِه، انفعلَ عبد الله وترك عبد القادر غاضبًا منه وذهب إلى غرفته وخلفه سناء، وتركُوا الجميع في ذهولٍ ممّا سمعُوا.

خرجت سمر مع أحمد للحديقة ، وكان حوارهما عن العمّ المُهاجر، والمفاجآت الّتي تتوالى عليهم كلّ يومٍ، نادتْ عليها خالتَها منال فذهبت بينما ظّل أحمد يفكرُ، شعرَ كأنّه يرى فيلمًا طويلًا أحداثُه لا تنتهِي، فتارةً يظهرُ خال من الصّعيد، وتارةً أخرى عمّ بألمانيا ، و تحدّث إلى نفسه : - ماذا تخبأ لنا الحياة في جعبتها بعد ، وماذا سيحدث في الأيّام المقبلةِ؟

ولماذا غضبَ جدي من عمّي ، لهذا الحدِ الّذي يجعلُه يحرمُه من رؤيتِه !، ويحرمُ نفسَه من ابنِه ، لم يكن جدي قاسيًا، أشعرُ بأنّ هناك في الأمر سّرُ كبيُر.

طالَ الخصامُ بين الأخوين ، وأخيرًا جلسَا في صالون البيت معًا ، ليتناقشَا في الأمر، وتعاهدَا أن يصلا بهدوء إلى قرارٍ في أمر أخيهم عبد الرحمن.

بينما أحمد لم تهدأ فوضى فضوله لحظةً واحدةً ، ودَّ لو دخل وجلسَ معهما، أو وقف ليسترقَ السّمعَ؛ لولا خوفه من الله وعلمِه بعقابِ التّجسسِ ، لمّا تراجعَ لحظةً فالأمر يشغلُ تفكيرَه كثيرًا، ولكنّهُ يعلمُ أن الأيّام ستكشفُ الغموضَ وتزيلُ الغيمةَ وسيعرفُ آجلًا أم عاجلًا.

وانتهى الاجتماع المغلق ، وقرّرَ الأخوان أن يأتي عبد الرحمن للزيّارة ، ولكن اشترط عبد الله شرطًا غريبًا ، ألا يجلب عبد الرحمن أي هدايا معه ، وطوال فترة إقامته لا ينفق أيّ مالٍ خاصٍ به ، تعجبَ الجميع مما سمعوه ولكن لم يستفسر أحدٌ عن السّببِ ، فلقد وافق عبد الله بصعوبةٍ وبعد عناءٍ طويلٍ

فخشي أحمد أن يسألَ حتّى لا يثيرَ المتاعبَ والخصامَ مرةً أخرى، ولكن ظّل أحمد مشغول البال .

بدأ الجميع يستعدُ لاستقبال الضّيوف ، وتّمَ تخصيص شقةً بالدورِ الأخير لهم فسيحضر جاسر و مايا أبناء عمّهم معه ، جاء اتصال من عبد الرحمن، ردّ عليه الحاج عبد القادر، ورحّبَ به ترحيبًا شّديدًا ،وكيف لا!؛ وقد اشتاق لأخيه الّذي غاب عنه سنواتٍ طويلة ، وأخبره بوصوله صّباح الغد ، بمطار الإسكندرية ، واتفقا على انتظارِه هناك.

جهّز أحمد السيارة وسافر مع والده الحاج عبد القادر؛ لاستقبال عمّه وأبنائه ، أمّا عبد الله ففضلَ الانتظارَ بالمنزلِ.

وفي المطار استقبلَ عبد القادر أخيه بالأحضانِ القّويةِ والقبلاتِ الحارةِ، كان لقاءً مولعًا بالأشواقِ والتّرحيب بين أخوين طالت غربتهما، سنواتٌ من الشّوق والحنينِ، ثمّ سلمَا على مايا وجاسر أبنائه.

ولكن كانت مفاجأةً كبيرةً عندما أخبرهم أنّ زوجتَه جين رفضتْ الحضورَ معهم ، وطلبت الطلاقَ بعد أن علمتْ برغبتِه في الاستقرارِ بمصرَ، صمتَ عبد القادر ممّا سمعَ وهو لا يدرى ماذا يقولُ له، هل يفرحُ لاستقرارِه بمصرَ أم يواسيه لطلاقِه ، ولكن أحمد تدخلَ كعادتِه لينقذَ الموقفَ لمَّا رأى حيرةَ والده، وتحدّثَ مع عمّه عن تجارتهم و دراسته وقلقه

من نتيجة الامتحانات ، تشاطرا الحديث لمدة طويلة حول مواضيع مختلقة ، وسرقهما الحديثَ إلى أن وصلَا المنزلَ بسلامٍ.

ومَا إن دخلَ عبد الرّحمن المنزلَ ، حتّى خانتْه دموعُه ومرّ شريطُ الذّكريات أمامَ ناظريه كأنه حدث أمس ، وتذكرَ والدَه و والدتَه كيف رحل دون وداعهما، واليومَ عادَ ولم يجدْ أحدًا منهمَا يستقبله ، فقد رحلا دون وداعه ورحيلِهما دونَ عودةٍ ،سرقَهم منه الزّمن كأنّه ينتقمُ منه لرحيلِه عنهم واختيارِه الغربةَ بدلًا عنهُما.

أمّا عبد الله فرُغمَ رفضِه وعنادِه وغضبه من أخيه إلا أنه لم يسيطر على دموعه ما إن رآه ؛ فقد اشتعلت نيران الشوق داخله وكبله الحنين ليجد نفسه ينقادُ لحبّه لأخيه ويهِمُ ليرتَّمِي بين أحضانِه، تارةً يعاتبُه على الفراقِ وتارةً يرحبُ به لعودتِه، لم يكنْ حضنًا بل عناقًا للقلوب والتقاء الأرواح الّتي عانتْ ألمَ الغربةِ والشوقِ والحنينِ سنوات عجاف، لكن سنابلَ الحبِ ظلّت بقلوبِهم ليعود بهم الوصالُ يومًا ما .

وقف أحمد يتأملُ المشهدَ ويردّدُ داخلَه : - نّها صلة الرّحم ، فمهما تباعدتْم سيظّل الدّمُ نهرًا واحدًا في عروقكُم ،فالأخوةُ شريانٌ ينبضُ بداخلِنا ، وهي نبضُ الحياةِ لو قطعتَ لجفَ نهرُ الودِ وفقدْنا الحياة.

بكى الجميع شوقًا وفرحًا ، وجلسُوا على مائدةِ الذّكرياتِ ، يتذكرُون كيف كانَ لعبهم وسمرهم في كلّ ركنٍ ، وحتّى شجارَهم الّذي كان لا ينتهي أبدًا، تارةً يبتسمُون وتارةً أخرى تدمعُ عيونُهم ، مرّت ساعاتٍ طويلةً كلمحِ البصرِ لم يشعروا بها ، و كان الأبناء مجتمعون بالحديقةِ يتحدثون بكلّ حبٍ وسعادةٍ .

أمّا أحمد فجلسَ ، يراقبُ الأحداثَ بشغفٍ وسعادةٍ ؛حيثُ تجمعَ الإخوةُ الثلاثَة بعد شقاقٍ ، ومن حولهم أبناءهم ، ثم دعا الله أن يديمَ عليهم الهدوءَ والسّكينةَ ،والسّعادةَ الّتي تلمعُ في عيونِ الجميع.

مرَّ يومان بهدوءٍ وسلامٍ ، حتّى سألَ أحمد عمّه عن عملِه بألمانيا، فغضبَ والد أحمد وفزعَ ، وكأنّ أحمد ارتكبَ جريمةً هادئةً دونَ ضحية ، بسؤاله الّذي نزلَ كالصّاعقةِ، على الإخوةِ الثلاث ، وبالأخصّ عبد الله والد أحمد.

خيم صمت رهيب على الجميع مع نظرات استغراب ودهشة لبعضهم ، ونظرة غضب اتجاه أحمد من أبيه وعمّه ، لم ينقذه منها سوى رنَّ جرسُ البابِ رنّات سريعةً ومتتاليةَ ، فأسرعَ الجميعُ بتوجسٍ وترقبٍ ، واتجَه أحمد مسرعًا ليرَى من الطّارق ، وهو يردّدُ سترك يا رّب.

فتحَ أحمد البابَ فاندفعَ أصدقائه، وعلاماتُ السّعادةِ تكسُوا وجوهَهم، معلنينَ نجاحَ أحمد وتفوقِه.

امتلأ المنزلُ بالفرحةِ وتعالت الزغاريدُ، وباركَ الجميعُ لأحمد وأصدقائه ، وقرّرَ الحاج عبد الله إعدادَ وليمةٍ كبيرةٍ ؛ فرحًا واحتفالًا بتفّوقِ ابنه الوحيدِ أحمد.

تدخلتْ سمر بخفةِ دمهَا قائلة-: أنا أيضًا نجحتُ ، وأريدُ أن تذبحُوا لي بقرةً ، وتحتفُلوا بنجاحي،

إذا كان أحمد له بقرتان ، يكون لي بقرة، وهذا شرع الله (فللذكر مثل حظ الأنثيين) كما قال تعالى.

ضحكَ الجميعُ ، ووعدها والدها الحاج عبد القادر بذبحِ بقرة من أجلها فليس عنده أعزَّ منها على قلبهِ.

كانتْ أيّام كلّها سعادةً وأخبارُ سارةٌ ، بينما ظل أحمد مشغولًا بالسّر الّذي يخفيهِ الإخوة ، بخصوصِ عمّه عبد الرحمن ، وأيضًا قلقه بخصوصِ دخولِ الجامعةِ ، فأين سُيلقي به تنسيقُ القبولِ بالجامعاتِ .

ظهرتْ نتيجة التنسيقِ الجامعِي ، وكانتْ طب أسيوط ، فرحَ والد أحمد بالخبرِ ، وعبَس وجهُ أحمد ، لمَا علِم الخبرَ وكذلك والدته حزنتْ بشّدةٍ ، فكيفَ سيبتعدُ عنها وهو ابنها الوحيدِ ، أمّا أحمد فكان مَا يشغلُ بالُه ليسَ فقط ابتعادُه عن أمّه ، بل عن حبيبتِه سمر .

أسيوط تعنِي ابتعادِه شهور، وهذا ما لا يقوى قلبُه عليه ، فلن يتحملُ الفراقَ أبدًا، كانَ النّقاشُ طويلٌ مع والده وعمّه ، انتهى بأن يصلي استخارة ، ليختارَ الله له الأفضلَ ، قبلَ أن يأخذَ قرار التّحويل لكّلية الهندسةِ بالإسكندريةِ ، حزنَ أحمد على حلمِه بأن يكونَ طبيبًا ، ولكنّه كان أمامَ خيارينِ ، كلاهما أصعبُ من الآخرِ ، إمّا البعادِ وتحقيقَ الحلمِ ، أو القربَ والتنازلَ عن حلمِه ، رغمَ أنَّ كلا الخيارين كانا لسمر ومن أجلِها ، لكنّه توقّف عن الّتفكير و صلى استخارة و فوضَ أمرَه لله وسيرضَى بقضائه.

بعد أيّامٍ أنهَى أحمد ورقَ التّحويل وكلّه أملٌ أن يكونَ مهندسًاً ناجحًاً.

وفي الحديقةِ كانت سمر تجلسُ كعادتها تقرأ ، كان في يدها رواية (رُد قلبي) ، رآها أحمد من نافذةِ غرفتِه ؛ فقرّرَ الذّهابَ إليهَا ليتسامرَا كالعادةِ و يتبادلانِ القّصصَ والحكاياتِ ، ولكن سبقَه (جاسر) ابن عمّها عبد الرّحمن ، وجذبَ منهَا الكتاب بعنفٍ ممّا أغضبَ سمر، لكنّه تمادَى ممسكا الكتاب بيده ، قائلًا :- كتابَ (رُد قلبي)، وضحكَ بصوتٍ عالٍ واستطرد كلامه : - سمعتْ أن المصّريين عاطفيين، خصوصًا النّساء يعشقن الرومانسية والخيّال والقّصص، وأنتِ هل وقعتِ في الحب أم لا ؟؟

وقبل أن تردَ سمر، استرسلَ قائلًا : - إذا كنتِ لا تعرفينَ ممارسة الحبِ ، ليسَ لديَّ مانع أن أعلمكِ ، وابتسمَ بوقاحةٍ ونظرَ لسمر، واقتربَ منها ليمسكَ يدهَا، ولكن لم يجد غيرَ صفعةً مدويةً على وجهِه ، كانَ أحمد الّذي ظهرَ في الوقتِ المناسبِ ، ودارَ بينهما نقاش طويلٌ ، تطّورَ لصراعٍ عنيفٍ . حاولتْ سمر أن تُهدأ أحمد ولكن فشلتْ ، وتلفَظ جاسر بكلماتٍ جارحةٍ قائلًا:

-عظيم ، أنت فارس الأحلام إذا وعشيقها الولهان ، فلماذا الضرب ؟ ، أبلغني أنّها لك وأنا أنسحبُ في هدوء، أنتم العربُ أغبياء، تنساقونَ للعاطفةِ ولا تستعملون عقولكَم ، سلاحكُم أياديكم و تفضلون العنفَ والهمجيةَ ، لذا ستظّلون في جهلٍ وظّلامٍ وتخلفٍ لا ينتهِي.

أسرعت سمر للداخل باكيةً ، وخرجَ الجميعُ على صوتِ أحمد وجاسر، محاولِين التهدئةَ ومعرفةَ ما حدثَ ولكن كلاهُما ذهبَا دون أن يعرفَ أحد ما جرَى هنا في ساحةِ المعركةِ.

وقف الجميعُ في ذهولٍ ، متسائلينَ ماذا حدثَ لكلّ هذا الصراع ؟، ولكن عبد الرّحمن ترجَى الجميعَ ألّا يخبرُوا الحاج عبد الله بما حدثَ ، وسيجتمعُ بالشّبابِ ومعهم عبد القادر؛ ليحلُوا الأمرَ ويعالجوا الموضوع. أمّا سمر فكانت بغرفتِها منهارةً ، احتضنتْها منال وبجوارِها سناء تحاولان أن تهدئَا من روعَها ويشدُدنَ أزرَها ، ولكن شلالات الدموعِ تتساقطُ من عيونِها دون توقفٍ ، وقلبُها الضّعيف ينبضُ بقّوةٍ ، وجسدُها النّحيلُ يرتجفُ خوفًا، بينما أحمد دخل غرفتَه وبداخله بركانُ غضبٍ يكاد ينفجرُ ، أخذ يدورُ داخلَ غرفتِه كالثّور الهائجِ في حلبةِ السّباقِ ، ولم يطفأ ناره غير حمامِ دافئ، توضّأ بعده وصلى ركعتين ، راجيًا رحمةَ الله ، وجلسَ يقرأ القرآنَ ، دقّ بابَ غرفتِه ودخل عمّه عبد الرّحمن ومعه عبدالقادر، سردَ أحمد عليهما كلَّ ما حدثَ بالحديقةِ ، فاستنكرَا فعلةَ جاسر وقرّرَا الذّهابَ له ؛ لمحاسبتِه على فعلتِه المخجلَة ، قبَل عبد الرحمن رأسَ أحمد فابتعدَ أحمد رافضًا ، فليسَ لعمّه أيّ ذنبِ ولكن عمّه قال غاضبًا

- : بلى أنا السبب ، لم أعُلم جاسر الفرق بين الحلالِ والحرامِ ، لم أفقهه بأمورِ دينِه ، شغلتْني الحياةُ بجمع الأموالِ فقط ، ليتني سمعتُ كلامَ والدي وما سافرتُ وفقدتُ رضاه ، بل فقدتُ الأمانَ والدفءَ الأسّري ، العالمُ الغربيُّ جميلٌ ومغري لكنّه مُلهي؛ ألهانِي عن أهلي وعن تربيةِ أولادِي بمَا يرضي الله ورسولَه، الثروةُ ليست كلّ شيء ، المبادئ والقيّم أهم ، انجرفتُ خلفَ متاعِ الحياةِ و دوامةِ العملِ وجمع المالِ ، ونسيتُ الأهّمَ وهو تربيةَ أولادي وتعليمِهم دينَهم

كان عليَّ تعليمَهم تعاليمَ الإسلام ، إنّ الإسلام ليس فقط نطقُ الشهادتين، هذا ما كانَ كلّ همِي فعلَه.

لقد أخطأتُ ، وحانَ وقتُ إنقاذِ ما يمكن إنقاذُه ، فعلة جاسر أنا أوّل من يحاسبُ عليها لعلّه إنذار لي ، للاستيقاظ من غفوتي العميقة والعودة من غياهب الجب لنورِ الله ورضاه، أخشَى أن يكونَ قد فاتَ الأوانُ.

وأستمرَ بالبكاءِ مرددا:- يا رّب رضاك، يكفيني موتُ أبي غاضبًا عليَّ.

حاولَ أحمد وعبد القادر تهدئةَ عبد الرحمن قبلَ أن يذهبَ لجاسر ،حتّى لا يزدادَ الأمر سوءًا وتوترًا

في ذلك الوقت ،جاءت(مايا) مسرعةً ، تنادي والدَها وتخبرُه بأنّ جاسر جهزَ حقيبتَه ، وقرّرَ أن يعودَ لألمانيا .

أسرعَ الجميعُ وأمسكَ عبد الرّحمن جاسر بقّوةٍ وكاد يضربُه ، لولَا أنّ منعَه عبد القادر ، ولكن جاسر قالَ غاضبًا :-

هل ستضربنِي ؟ ، لقد تغيّرت مذ قدومِنا إلى هنا ،كانت والدتي محقّةً برفضِها القدومَ معنا، وصدقتْ بكلامِها، بلدُ الجهلِ والتّخلفِ، لن أبقَى هنا وأسير مع القّطيع، ضربٌ وعنفٌ و إهانةُ لن أكونَ إرهابيًا مثلهم .

واشتّدَ الصّراعُ وتعالتْ الأصواتُ، حاولَ الجميعُ إطفاءَ ثورةَ جاسر وعبد الرّحمن، ولكن دونَ جدوَى، كان الصوتُ مرتفعًا ، لحظةَ وصولِ الحاج عبد الله ، صمتَ الجميعُ عند وصولِه وأسرعَ جاسر للخارجِ تاركًا حقيبتَه الّتي جذبَها والدُه من يدِه ، هنا طلبَ الحاج عبد الله من الجميعِ الهدوءَ وإخبارُه بما يجري هنا، نظرَ الجميعُ إلى بعضِهم ، ورد عبد القادر :-لا شيء أخي ،أنّ جاسر يريدُ العودةَ لألمانيا ، فهو مفتقدٌ لأصدقائِه ووالدتِه ، ويصعبُ عليه التّكيفُ مع ظروفِ الحياةِ هنَا.

هكذَا ظّنَ الجميع أنّ المشكلةَ انتهتْ، خلدَ الجميعُ للنومِ بعد يومٍ عصيبٍ، باستثناء أحمد فقدَ جفاه النومُ وظّل كعادتِه يفكرُ، فجأةً دقّ جرسُ البابِ بطريقةٍ هستيرية ، رناتٌ متتاليةٌ ومزعجة أصابتْ أهل المنزلِ بالفزعِ ، نزلَ الجميعُ في هلعٍ وترقبٍ ، فتحَ أحمد البابَ فسقطَ جاسر بين يديهِ مغشيًا عليه .

الفصل الثامن

حاولَ والده وعمّه إفاقتَه لكن دونَ جدوَى ؛ فنقلُوه مسرعينَ إلى المستشفَى ، ظل الجميع في قلقٍ وتوترٍ حتّى خرجَ الطّبيب وطمأنَهم بأنّه سيعودُ لوعيه قريبًا، وطلبَ من والده التّحدثَ معه على إنفرادٍ، اتجهَ معه الحاج عبد القادر ليشّدد أزره ، ووقفَا في قلقٍ يستمعان إلى الطّبيب ، وكانتْ الصّدمة عندما أخبرَهم الطّبيب أنّ جاسر تناولَ جرعةً كبيرةً من المخدراتِ كادت توقّفَ قلبُه لولا عناية الله ، انهارَ عبد الرّحمن ممّا سمعه وحاولَ الحاج عبد القادر تهدئتَه، ولكن هيهاتَ أن يهدأ، وكيف يهدأ وقد كادَ يفقدُ فلذَة كبدِه وقرَة عينِه، ارتفعَ صوتُه بالبكاء والنحيبِ والعويل ،فدخلَ الجميعُ مفزوعينَ ،ظّلَ عبد الرّحمن يرددُ :- أنا السبب ، الذنبُ ذنبِي ، وحقًا (كما تدين تدان) ، أنا من ضيّعَ ولدَه ، ووجهَ الكلامَ إلى عبد الله :- كنتَ محقًا عندمَا حَرمت مالي لأنّني أبيعُ الخمورَ، وأنا أستحقُ هذا العقابَ من الله

جثا عبدالرحمن بركبتيه على الأرض باكيا و مرددا : - يا رّب لا توجعنِي في ولدي ، يا رّب عاقبنِي في نفسي.

وانهارَ في البكاءِ، وقفَ الجميعُ في ذهولٍ ممّا يسمعُون، خاصة أحمد وحدثَ نفسَه:- هذا هو السّرُ إذًا ، لم أكن أتخيل ما يحدثُ ، هبتْ الرّياح وكشفتْ كلّ شيء وأظهرتْ ما خُفِيَ من سنواتٍ ، انقلبَ الوضعُ من هدوءٍ لضجةٍ ، وفاضَ بئرُ الأسرارِ لنهايتِه، يا رّب رحمتُك أخافُ أن نغرقَ كلنا فيما لا ذنب لنا به.

كان عبد الرّحمن يصرخُ بغضبٍ شّديدٍ وسقطَ مغشيًا عليه ؛ ممّا أفزعَ الجميعَ ، فهرع أحمد لإحضار الطبيب، نقَله الطّبيبُ لأحدِ الغرفِ وتّمَ إعطائه العلاجَ المناسبِ ، استردَ وعيَه بعد بضعِ ساعاتٍ سائلًا عن جاسر بلهفةٍ ،أخبرَه عبد القادر أنّه بخير ووضعُه مستقرٌ الآن ، لكن عبد الرّحمن ظّلَ يبكي ، لعلّها دموعُ الندمِ والحسرةِ ، وأصَرَ على الذهابِ إليه ليطمئنَ ، وحاولَ عبد القادر وعبد الله تهدئته ، ولكن تحت إصرارِه ذهبُوا لغرفة جاسر ووقف بجانبه يبكي ، حضرَ الشّيخ (حمزة) جارهم وصديق عبد الله ، بعد أن علِمَ من الخادمة أنّهم بالمستشفى ، وأخذَ يُطمئن عبد الرحمن ويحاولُ أن يشرحَ له أنّه ابتلاء من الله ليطهره قائلا -:من تربية الله لك قد يبتليك الله بالأذى ممن حولك حتّى لا يتعلقَ قلبَك بأيّ أحدٍ ،لا أمّ ولا

أب لا أخ ولا صديق، فيتعلّقُ قلبُك به وحده ، قد يبتليكَ ليستخرجَ من قلبك عبودية الصّبر والرضا وتمام الثّقة به ، هل أنت راضٍ عنه لأنّه أعطاك؟ أم لأنّك واثق أنّه الحكيم الرّحيم؟ ، قد يمنع عنك رزقًا تطلبُه ،لأنّه يعلمُ أن هذا الرزقَ سبب لفساد دينك أو دنياك، أو أن وقته لم يأت، وسيأتي في أروع وقت ممكن قد ينغصُ عليك نعمة كنت متمتعًا فيها ، لأنّه رأى أن قلبَك أصبحَ مهمومًا بالدنيا فأراد أن يريكَ حقيقتها لتزهدَ فيها وتشتاقَ للجنّة. إنّه يعلمُ في قلبك مرضًا أنت عاجزٌ عن علاجِه باختيارِك؛ فيبتليك بصعوبات تخرجه، رغمًا عنك تتألم قليلاً ،ثّم تضحك بعد ذلك، أن يؤخر عنك الإجابة حتّى تستنفد كلّ الأسباب، وتيأسَ من صلاح الحال، ثّم يُصلحه لك من حيث لا تحتسبْ، حتّى تعلمَ من هو المُنعم عليك، حين تقوم بالعبادة من أجل الدّنيا يحرمك الدّنيا، حتّى يعودَ الإخلاصُ إلى قلبك وتعتاد العبادة للرّب الرّحيم ثّم يعطيك ولا يُعجزه .

من تربية الله لك أن يُطيل عليك البلاء، ويُريك خلال هذا البلاء من اللّطفِ والعنايةِ وانشراح الصّدر، ما يملأ قلبك معرفة به، حتّى يفيضَ حبّه في قلبك.

أن يعجل لك عقوبته على ذنوبك، حتّى تُعجّل أنت التّوبة فيغفر لك ويطهركَ، ولا يدع قلبك تتراكم عليه الذّنوبُ حتّى يغطيه الرّان فتعمى. من تربية الله لك أنك إذا ألححت على شيء مصراً في طلبه ،ساخطاً على قدر الله، يعطيك إيّاه حتّى تّذوق حقيقتَه فتبغضه، وتعلمَ أنّ اختيار الله كان خيرًا لك.

من تربية الله لك أن تكون في بلاء فيُريك من هو أسوأ منك بكثير (في نفس البلاء) حتى تشعر بلطفه بك، وتقول من قلبك:- الحمد لله.

رد عبد الرحمن قائلا : - الحمد لله ، الحمد لله ، الحمد لله

حان وقت صلاة العصر، فاتجه الجميع للمسجد للصّلاة ، بينمَا كان جاسر ينصتُ معهم إلى كلام الشّيخ حمزة ، لكنّه ظّل مغمض العينين حتّى خرجوا جميعًا ،غلبتْه دموعَه حزنًا وندمًا على ما فعل بنفسه ، وكان أشّد حسرةٍ على ما فعل بوالده ، كيف وضعه في هذا الموقف المحرج للغاية مع أهله وأقاربه! ، كيف سبب له الألم وهو لم يبخل عليه يوما بماله ولا حبه!؛ كان شعوره بالخجل منهم يمنعه من أن يعلن يقظته ، ووعيه لمَا يدور حوله ،

ففضل الهروبَ والصّمتَ ، ولكن إلى متّى سيظّل يتحاشى لقاء والده ، ومواجهة الجميع ، فخطئه هذه المرة لا يغتفرُ، لا يستطيعُ أن يسامحَ نفسَه.

فجأةً تدخل الممرضة غرفته، تجدُه مستيقظًا ، فتتصّلُ لتخبر الطّبيب ؛ يأتي سريعًا ويفحصَه ويرى استقرارَ حالتِه، صلى عبد الرحمن معهم ، ودعا ربّه أن يقبل توبته ويغفر حوبته ، ويهديه هدايةً لا سخطَ منه بعدها ، وأن يحفظ له ولده وابنته.

توجهوا إلى المستشفى مرة أخرى ، فإذا بالطّبيب يقابلُهم ويزفُ لهم خبرَ استعادة جاسر لوعيه ، ويطمئنهم على وضعه وزوال الخطر، ويخر عبد الرّحمن ساجدًا و شاكرًا الله على سلامة ولده ، يتجه مسرعا للغرفة ويحتضن جاسر وهو يبكي من فرحته بعودته للحياة.

بعد أيّام يتحسنُ جاسر، ويخرج من المستشفى ، ولكنّه يخجل أن يعودَ للبيت بعد ما صدر منه ، يبكي فيحتضنه والده و يخبره عبد الله أنهم عائلة واحدة ، قائلا:- لا عليك، إنّ الخناقات في كلّ أسرة واردة ، فالخناقات ضرورية فهي بمثابة رج زجاجة الدواء قبل استخدامها ، وهي دليل على صّحة العلاقات ،إن تداركتها لا تضعف العلاقات بل تقويها ، ونحن أسرة واحدة بيننا الحب والتسامح ، والعفو والتغافل لأخطاء بعضنا ، فلا أحد منا معصوم من الخطأ، وإذا كان رّب العباد يعفو ويغفر، فمن نحن حتّى لا نغفر ، ونلتمس الأعذار لبعض كما أمرنا الله ورسوله.

(التمس لأخيك سبعين عذرا) كما قال رسولنا الكريم .وإذا كان حقك علينا أن نسامحك، فواجبنا أيضا أن ننصحك ونوجهك للصواب، ونمنعك عن ظلم نفسك وظلّم الآخرين.

سمع جاسر كلمات عمه منصتا له وتأثر بها كثيرا، خرجوا من المستشفى ووصلوا البيت ،و رحّب الأهل به واعتذر من الجميع وتناولوا الطّعام ، وقرّروا تحضير الوليمة غدًا.

وفي الوليمة اجتمع الأهل و الأحباب والجيران، مهنئين بسلامة جاسر وبنجاح أحمد وسمر والأولاد.

فرحين وسط الأغاني الشّعبية الجميلة ، وأصوات صخب الأطفال ، كان جاسر يحاول أن يعتذر إلى سمر، لكنها كانت تتحاشاه وتتهرب بألف حجة ، فما زالت غاضبة من فعلته ولا تريد مواجهته ، فالأيّام الماضية كانت عصيبة على الجميع ولا تتحمل أي مشاحنات.

مرّ الاحتفال بسلام ، لكن أحمد كان حزينا من ابتعاد سمر عنه ، فلم تعد تجلسُ معه مثل قبل ، و يشعر بازدياد الفجوة بينهما ، ويسأل نفسه :- ما سبب ذلك؟، هل تخجل من مواجهتي بعد كلام جاسر ؟! .

ظّل يفكر حتّى تعب من التّفكير، فقرّر أن ينتظر ومع الأيّام ستنسى ويعود اللّقاء بينهما وتعود أيّامهما الجميلة ، ويذوبُ جدار الصّمت الّذي بُني بينهما ، وليبقى في أحلامه السندسية الرقيقة حتّى بزوغ فجر جديد.

كان أحمد يكتفي بأحلام اليقظة الّتي لا تنتهي مرددًا : - أنّ الخيّال وطن حين يصبح الواقع غربة ، وعندما يملؤه الشّجن يكتبُ ما بداخله كعادته على الورق ، في تلك الأجندة الّتي تحوي بين طياتها مشاعر فياضة وحبًّا فاق كلّ حدود العشق ، وأحلامًا ورديةً تريد للصّباح أن يتجلى ويظهر ما خفي بالقلوب من حبٍ وعشقٍ لا ينتهي لسمر ، تلك الوردة الّتي تفوح بعطرها و تملأ قلبه ، تلك الصّفحات الّتي تكاد تشتعلُ من نيران حبّه وشوقه لحبيبته الصّغيرة ، تلك الأحلام الّتي يتمنى أن تكون ذات يومًا واقعًا يعيشه معها .

في غرفة سمر، لم يكن الوضع أكثرَ استقرارًا ، فقد جفاها النوم ، وشغلتها كلمات جاسر، وأشعلت نيران الحيرة بداخلها ،أصبحت لا تعلم كيف تتعامل مع أحمد و جاسر، تخاف من مشاعرها المذبذبة ، تارةً تتخيلُ أحمد فارسها وعاشقها الولهان وتارةً لا تتخيله سوى أخ وصديق ورفيق درب لها ، وتارةَ تُعجب بجراءة جاسر ثّم تحتقر فعلته ، فلم تعد قادرة على النوم ، الأمر يثير عقلها ويشغلها بشدة ، فكرت كيف تبعد تلك الأفكار، وتنهي تلك الحيرة بداخلها ؛ فتوجهت للمكتبة لعلّها تجد ما يلهيها، فوجدت كتابا عن الحب الأوّل ، قرت أن تقرأه لعلّها تجد ضالتها به ، وتعرف ما هو الحب وما تلك المشاعر التي اعترتها فجأة وأطارت النوم من عيونها ، ومن هو فارس أحلامها الحقيقيّ، ظلّت تقلب صفحات الكّتاب حتّى خلدت للنوم، لتجد أحمد يحاول إيقاظها برقة ،كان يحمل في يده وردة حمراء ، ظّل

يداعبها بها على خدها حتى انتبهت وابتسمت له بهدوء، ثم ذهبت معه للحديقة ،حيث كان يعد لها منضدة عليها شموع مضاءة ، وأزهارا حمراء وحلوى كثيرة مما تحبّها ، اقترب منها وجثا على ركبتيه ، وأمسك يدها وقبلها بحب ، وقدم لها سوارا جميلا ، ألبسها إيّاه وهي تبتسم ، تكاد تطير من سعادتها ، كانت الموسيقى هادئة وهما يرقصان برشاقة وحب ، وهو يردد عليها كلمات الحب والغرام ، وهي هائمة في بحر من الخيال والرومانسية الساحرة ، فجأة يظهر أحمد على حصان أبيض ويقترب من سمر لتركب معه ، انطلق الحصان بهما وكأنهما يطيران في الحديقة بجناحي الحب و العشق، تغمرهما السعادة والأمل ، فإذا بصوت دقات تأتي من بعيد، يقترب الصوت أكثر فأكثر، تستيقظ سمر مبتسمة رغم إزعاج دقات الباب لها ، لكنّها تتذكر الحلم فيرتعش جسدها النّحيل في حبٍ وسعادةٍ، ولكنها تعود لحيرتها فمازالت صغيرة علي الحب ولا تعرف تلك المشاعر، لكنه شعور لذيذ ومبهج تفتح الباب لتجد مايا أمامها ،جاءت لتخبرها أنّ الإفطار جاهز ، والجميع ينتظرها.

ارتدت سمر ثيابها سريعًا، وخرجت من غرفتها ، لتجد جاسر أمامها يقتربُ ليحدثَّها ؛ تهربُ منه وتتعثرُ على السّلم ، لتجدَ أحمد يمسك بها قبل أن تسقط، لأوّل مرة تشعر بقربه هكذا ؛ تتورد وجنتيها، تشعر برعشةِ بجسدها النّحيل ، شعور غريب لم تعرفه من قبل ، ترفع عينيها لتراه ، كأنّها تراه أوّل مرةٍ ، فليس هذا أحمد الّذي كان يلعب معها ويحكي لها القصّص أمس ، تشعر كأنّه تبدل لفارس يمتطي جواده وهي خلفه ، يتحدثُ إليها ويسألها :- هل أنتِ بخير؟؟

تصمت وكأنّ صوته نغمات بيانو تعزف على أوتار قلبها لحنًا جميلًا ، تتسارع دقات قلبها الصّغير، تشعر بثورة وصخب لا يتوقف ، يكاد صوته يعلو ويفضح أمرها ، لولا أنّ نادتها منال فنزلت مسرعة هاربة من حرب بداخلها ،أشعلها قرب أحمد ، وكأنّ صوت منال طوق النّجاة الّذي أنقذها من الغرق.

جلست سمر تتناول الطّعام وجلس أحمد أمامها ، بدت مرتبكة جدا ، تنظر لأحمد خلسةً وهو يتكلم، وتشعر بحلاوة صوته ،كأغنية ترقصُ عليها دقات قلبها ،جسدها يرتعشُ ، حتّى

أنّ كوب الماء سقط منها ، عندما لمس يدها دون قصد ، وأفزع الجميع صوت ارتطامه وتحطمه ، يضحك حسن ويقول :- مازلتِ طفلة صغيرة ، لا تقوى على حمل كوب ماء .

أحمر وجه سمر خجلا ، وذهبت إلى غرفتها وخلفها مايا ، تبكي سمر وتحاول مايا أن تهدئها ، لكنها غاضبة تُرد:- أنا لست طفلة ،أبلغ من العمر ثلاثة عشر عاما ، فجأة تذكرت سيكون عيد مولدي بعد يومين ، لا أظّن أنّ أحدًا سيتذكر، مررنا بأيّام عصيبة.

تبتسم مايا وتتمنى لها عيدًا سعيدًا وعمرًا مديدًا هنا تعلن مايا عن فكرتها : - تعلمين ، لديّ فكرةً رائعةً ، تعالي معي لغرفتي سريعًا.

وجذبت سمر بجنون حتّى وصلت الغرفة ، وفتحت دولاب ملابسها ،أشارت لسمر اختاري فستانا منهم ،تعجبت سمر من كلامها ،ولكن مايا قالت لها :-

ألست غاضبة أن الجميع يراكِ كطفلة ، لابد أن تتغيري، ملابسك وشعرك، حتّى كلامك، فماذا أنتِ فاعلة ؟

صمتت سمر قليلا، ثم أعلنت موافقتها ، وارتدت أحد الفساتين ، وبدأت مايا تفك لها الضفائر ، وتمشط شعرها ، نظرت سمر في المرآة ،ففوجئت بنفسها فتاة جميلة وليست طفلة ، أمّا مايا فصرخت فرحًا: -

أنت جميلة جدا يا سمر، الآن تبدين شابةً فاتنةً .

لكن سمر تتردد كيف تخرج للجميع هكذا ، فلن تستطيع، بدلت ثيابها سريعًا وأرجعت ضفائرها مما أضحك مايا وقالت :- لا تغضبي مني ولكن حقا أنتِ طفلة .

غضبت سمر وخرجت وخلفها مايا تضحك بشدة ، وتحاول إقناعها بالأمر.

في حجرة الحاج عبد القادر، أخبرته منال أن عيد ميلاد سمر بعد غد، ويجب التّوصية على الحلّويات والكيك اليوم ، كان الحاج عبد القادر حزينًا؛ لأنّه لأوّل مرة ينسى يوم ميلاد سمر، لكن منال قالت له- : لا عليك يا حاج عبد القادر ، فما مررنا به تلك الأيّام صعب ، يجعل الإنسان ينسى اسمه ، هون عليك ،والحمد لله أنّني تذكرت وإلّا سمر كانت ستحزن بشّدة ، تعرف أنّها حساسة و أبسط الأشياء تؤلمها ، شرع الحاج عبدالقادر فورا للحجز

والتّجهيز للحفلة ، وبدأت منال تتصل بصديقات سمر ، طمأنت منال الحاج عبد القادر بأنّ كلّ شيء سيكون جاهزًا ، ولا يقلق أبدًا.

نظر الحاج لها بحب وود، فلولاها ما تذكر شيئا، وشكرها على اهتمامها بالأولاد والبيت، وأخبرها أنّها نعمه الله لهم ، فبوجودها دبت الحياة وعادت السّعادة للبيت مرةً أخرى غضبت منال من كلامه، وقالت لا داعي للشكر، هذا واجبي نحو زوجي و أولادي, أتمنى من الله أن يعينني على حسن رعايتكم.

في الحديقة، ظّلت مايا تقنع سمر بالفستان حيث جلستا معًا ، حتّى حضر أحمد وجاسر، وما إن رأتهما سمر حتّى همت بالهرب مسرعة ، لكن أحمد أمسك يدها، ومنعها من الرّحيل ،وسألها ماذا بكِ ؟

لماذا كلما رأيتني هربتِ ؟ ، وقفت سمر في مكانها ،وهي تنظر ليده الممسكة بيدها في صمتٍ وسكونٍ ، أخذ يقترب منها ، وهي يزداد خجلها وارتباكها وتلّون وجهها باللّون الوردي الجميل ،لاحظ جاسر الموقف فأشار إلى مايا ، بالانصراف ليتركهما معا ، نظرت سمر حولها ، فلم تجد مايا مما زاد توترها .

الفصل التاسع

ظّل أحمد يتحدث وسمر تستمع له ، أخذ بيدها وأجلسها على الأرجوحة ، وطالبها بالتحدث وتبرير ما تفعله ، من صمت وهروب.

بعد إلحاح من أحمد ، حاولت سمر تجميع شتات أمرها وتمالك نفسها ، وبدأت الحديث بصوتها الرقيق الهادئ ، معلله ما يحدث بأنها مشغولة مع مايا ، طوال اليوم وحسب ، حاول أحمد أن يقنع نفسه بهذا السبب ، رغم إنّه يعتقد أن بعادها بسبب ما حدث مع جاسر تمنى لو أخبرته ، ليفسر لها ويريحها، فلم يعتد أن تُخفي عنه شيء، لم يكن بينهما أسرار أبدا، كانا لا يفترقان والآن لا يتحدثان لأيّام، كانت تأخذ رأيه في أبسط الأشياء واليوم ساد الصّمت بينهما ،سألها عن القصّص التي قرأتها وأمنيته أن يعود يحكي لها القصص ويتناقشا معا ،تسرعت سمر وأخبرته أنّها قرأت أمس كتابًا، بعنوان (الحب الأوّل) ،لكنها ندمت على تسرعها، وهمَت بالابتعاد من شّدة حرجها، وتذكرت حلم أمس، كيف امتطي أحمد حصانه الأبيض وأخذها أمامه، وطارا بعيدا في عالم الحب والخيال الساحر.

فصعدت إلى غرفتها بسرعة ،وأغلقت الباب وهي تبتسم ؛ وجدت أمامها مايا تسألها:- ما سر تلك السّعادة و الابتسامة الجميلة.

حاولت سمر تغيير الموضوع، وأعلنت موافقتها علي التغيير: - سوف أرتدي الفستان غدا بعيد مولدي.

وفي صّباح يوم عيد ميلادها ، كان البيت كلّه يستعد للحفل، بينما مايا وسمر أغلقتا الباب ، وجلستا تستعدان للحفلة والمفاجأة ،ارتدت سمر فستانا رائعًا ، وتزينت كعروس مبهرة ، لكنّها تخجل أن تنزل هكذا ، و مايا تشدَ من أزرها وتقويها ، حتّى جاء الموعد المشهود ، واجتمع الأهل والأصدقاء ، وحان وقت نزول أميرة الحفل ، بينما أحمد كان يجهز هديتها،خرجت سمر ومعها مايا ، ونزلت السلم على استحياء ، وجسدها يرتعش من الرّهبة والخجل ، نظر أحمد إليها فثبت في مكانه عندما رأى سمر تنزل كحورية البحر ، بجمالها وسحرها ، فهي تبدو فتاة ساحرة ، ليست طفلة كما اعتاد أن يراها ،سرح أحمد في جمالها ،شعرها المسدول فوق ظهرها مثل اللّيل الأسود وعيونها الواسعة كبحر غرق فيه ،

وفستانها الوردي بلون خدودها ، بدا أحمد منبهرا بها ، ظّل صامتًا لم يرفع عينيه عنها طّوال الحفل ، ثم تقدم ليسلمها الهدية وتمنى لها عيدا سعيدا، ما إن تلامست الأيدي حتّى غاب العاشقان في عالم الحب، ونسيا كل ما يدور حولهما، وتخيّلت سمر نفسها بين ذراعيه تتراقص، وتسمع ألحانًا للحب ونغمات يعزفها قلبها ، كان حفلًا جميلًا بدا الجميع في سعادة ورضا ، فمنذ فترة غاب الفرح والسّعادة وتوالت فيها المتاعب على الأسرة ، فكان الحفل بمثابة استراحة وجرعة أمل للجميع.

بعد الحفل ، بدأت سمر تفتح الهدايا، وبدأت بهدية لأحمد ، كانت عروسة جميلة ككلّ عام، ولكن هذه المرّة كانت مختلفة ، ترتدي ثياب العروس ليلة زفافها وبجوارها عريسها ببذلته السوداء ، كأنّهما يرقصان معا رقصة الحب ، سعدت سمر بها واحتضنتها ، وظّلت تدور وترقص بها طويلًا ، ولم تهتم بباقي الهدايا ، فتلك عندها أجمل الهدايا وأعزها إلى قلبها ، نامت وهي تحتضن العروسة ، في سعادة وحبٍ.

في الصّباح شكرت سمر الجميع على الحفل والهدايا ،وبعد تناول الإفطار ،توجهت سمر للحديقة برفقة أحمد و مايا ، بينما جاسر اختفى ولم يتناول الطّعام معهم ، مما جعل مايا قلقة عليه، فجأة ظهر أمامهم و سألته مايا : - أين كنت ؟

فأخرج علبة صغيرة من جيبه، وأخبرها : - كنت أحضر هدية لسمر، فأمس لم استطع إحضارها، وفتح العلبة وأخرج خاتم رائع، وأمسك يد سمر فجأة وألبسها إيّاه ثم قبل يدها ، ممّا أثار غيرة وغضب أحمد ، حتّى أن سمر جذبت يدها بسرعة ، قدم جاسر اعتذاره عن فعلة الأسبوع الماضي،هزت سمر رأسها ، وقالت :-لا عليك ، نسيت الأمر.

بينما أحمد خرج غاضبا ممّا حدث ، فكم تمنى وحلم أن يقبّل يدها ويلبسها خاتم الخطوبة يومًا ما ، ظّل يتساءل : - كيف يتجرأ جاسر على ذلك ؟؟، وكيف تقبلت سمر هذا ؟؟ هل أحبته ؟ ولكن كيف ومتى ؟هل بهذه السرعة يأتي بلمح البصر ويسرق أحلامي أمام عيني.

ظلّ أحمد غاضبًا ، مهموما أيّاما و ليالي، أصبح يتجنب رؤية سمر و جاسر ، حتّى لا تظهر غيرته ، حضر إليه والده ليستفسر عن سبب اختفائه ، لماذا لم يعد يتناول الطّعام معهم ؟

أخبره أحمد أن كل شيء على ما يرام، لكنّه يجهز للجامعة، ويرتب أفكاره وأشيائه.

في هذه اللّحظة يدخل عبد القادر ،ليخبره باتّصال فتحي أخو زوجته ، ودعوتهم جميعا إلى حفل زفاف ابنه الخميس القادم ، وإصراره على حضور الجميع وقال:- ستقام وليمة كبيرة وحفل كبير، ولا أحد له غير أخته منال ، ولن تكتمل فرحته إلا بوجودها معه ، فأخبرني برأيك هل نذهب أم لا ؟

أنا في حيرة شديدة، وخصوصًا أنّني لم أخبر منال بعد، إن علمت ستُصمم على الذهاب ، أخبرني ماذا أفعل ؟

فوجئ عبد الله بالخبر، وأشار على أخيه أن يذهبا معا دون منال والأولاد ، فالطّريق طويل وصعب ، سيكون السّفر شاقًا عليهم ، لكن لابد أن تخبر منال ، فهذا أخوها وواجب أن تعلم.

اقتنع الحاج عبد القادر برأي عبد الله ،وذهب لإخبار منال الّتي فرحت بالخبر، و صممت على الذهاب وحضور الحفل ، إنّه ابن أخيها الوحيد ، وواجبها أن تشاطره فرحته ، مثلما تشاطرا الأحزان من قبل ، وحاولت إقناع الحاج عبد القادر، الّذي أصبح في حيرة ، وخصوصًا أنّه أوّل طلب لمنال فكيف يرفضه ، ظّل يُفكر يومين ، ويتناقش مع عبد الله بالأمر.

وأخيرًا قرّرَا الذّهاب مع الجميع ، واعتبارها رحلة ترفيهية للعائلة ، استعد الجميع للرحلة ، وجهزوا أمتعتهم بفرح وسعادة ، كانت سمر ملهوفة لرؤية أقاربها ، ورؤية المكان الّذي نشأت فيه أمّها وخالتها منال ، كانت مايا وجاسر الأكثر حماسة ، وتشوقا لرؤية صعيد مصر وآثاره القديمة ، فقد سمع من أصدقائهما عن معابد الأقصر وأسوان ، وتمنا لو ذهبا لزيارتها ، وهاهي فرصتهما الذهبّية ، أتت على طبق من فضة ، ليروا ويستمتعوا بالمناظر الخّلابة ، والآثار العتيقة.

ركِبَ الجميع القطار المتّجه لصّعيد مصر ، بحماس ولهفة ، بينما جلس أحمد صامتًا ، يراقب ضحك سمر و مايا وجاسر ، فقد أصبحت سمر صديقة لهما ، في حين اتسعت

الفجوة بينها وبين أحمد ، الّذي فضَل الانسحاب ، ولعب دور المشاهد لما يدور حوله ، كانت أصواتهم تتعالى ويتعالى معها غيرته وألم قلبه ، فقد زادت شكوكه في تعلق سمر بجاسر، فمعه تضحك وتمرح ، وكلما رأت أحمد تصمت أو تهرب ، ظّل يرتب استنتاجاته وشكوكه ، حتّى أقنع نفسه بذلك فانتفض فجأة ، كالّذي تألم من وخزه بقلبه ، وخرج من المقصورة ليتنفس الصّعداء قليلا ، فقد شعر باختناق حبه وموت حلمه ، واحتضار مشاعره ، وتهدّم قصور ظّل أعوام يبنيها شوقًا وأملًا.

كاد ينفجر في البكاء ، لولا أنّه لمح والده قادم من بعيد.

فتمالك نفسه ولملم أحزانَه وكسرة قلبه وذهب ليساعد والده في توزيع الطعام ، وصل الجميع للصّعيد واتجهوا لمنزل الحاج فتحي حيث وجدوا الولائم و الذبح والطبال والمزامير والأجواء المُبهجة ، والاحتفالات مقامة ، كان الجو مفعمًا بالسّعادة والمرح والضّيوف يملئون المنزل وساحته مما أعجب الأولاد وأثار حماسهم ، فانطلق حسن وحسين وجاسر بالرّقص ، وأخذ الجميع يصفق لهم بسعادة.

دخلت سمر ومنال و مايا وسناء ، مع النّساء في المنزل الكبير الرائع ، الّذي يشبه المتاحف بزينته وأثاثه العتيق ، مما أبهر مايا وسمر ودفعهما لالتقاط الصّور هنا وهناك ، وتحمست مايا للرقص مع الفتيات على صوت المزمار، وأخذت سمر تلتقط لها الصّور ، مرّ يومان في احتفال وولائم وسعادة ، حتّى انتهت مراسم الزفاف على خير.

هنا أصرّ فتحي عليهم البقاء لزيارة معالم الصّعيد فهذه فرصة قد لا تتكرر، لوعورة السّفر و مصاعب الطّريق عليهم ، وتحت إصراره قرر الجميع البقاء لزيارة الآثار والمعالم السّياحية.

وفي الصّباح انطلقوا في رحلتهم مع أحد المرشدين بالصّعيد الّذي أوضحَ لهم شرح لما يروا قائلًا :- على طول صعيد مصر شُيدت المعابد والأهرام والأديرة والمساجد التّاريخية و المتاحف لحفظ وعرض التّراث المصري القديم، وسوف نقوم كلّ يوم بزيارة تلك المعالم والتّمتع بها. واليوم نبدأ من هنا بسوهاج شاهدوا بها معبد سيتي الأوّل أو معبد أبيدوس،

ومعبد رمسيس الثاني الّذي يضّم تمثال ميريت آمون، الدير الأحمر، دير الأنبا شنودة، كنيسة أبى سيفين، المسجد الصيني.

سُرَّ الجميع مما رأوا ، لكن مايا وجاسر كانا الأكثر انبهارًا والأكثر التقاطا للصّور وشراء التّذكارات والهدايا .

بعد يوم شاق عادوا للرّاحة ليواصلوا رحلتهم غدًا إلى المنيا.

في اليوم الثّاني جهز الجميع أنفسهم فالرّحلة إلى المنيا طويلة وتحتاج لملابس فسوف يبقون هناك يومين أو أكثر ليتمكنوا من زيارة المعالم ، وعندما وصلوا بدأ المرشد يصف لهم المعالم ، مكثوا يومين شاهدوا بها: منطقة تلّ العمارنة الّتي تمثل عاصمة مصر في عهد الملك إخناتون، منطقة بني حسن الأثرية، منطقة تونة الجبل. بعد ذلك اتّجهوا إلى الأقصر وزاروا معبد الكرنك، معبد حتشبسوت، معبد الرمسيوم، معبد مدينة هابو، مقابر وادي الملوك والملكات، و متحف الأقصر.

وأخيرا أنهوا رحلتهم بمدينة أسوان حيث انبهروا بجزيرة فيلة -الّتي تفصل نهر النيل إلى قناتين - وشُيد عليها معبد فيلة ، وزاروا معبد أبو سمبل الّذي شيّده رمسيس الثّاني، كان الجميع منبهر من عظمة الفراعنة وفخامة المعابد والآثار، وبدت السعادة واضحة علي مايا وجاسر، فكم تمنوا زيارة تلك الآثار لما سمعوه من أصدقائهم عنها ،ورغم طول ووعورة الطّرق وتعب التّنقل ، كانوا سعداء برحلتهم الّتي امتدت لأسبوعين وانتهت أخيرًا .

وغدًا سيعودون إلى مدينتهم القريبة من الإسكندرية ، بعد يومان من وصولهم ، يصطحب أحمد مايا وجاسر ومعهم سمر في جولة سياحية لعروس البحر الأبيض المتوسط ، حيث الشواطئ الساحرة ، والمناظر الخلابة ،والحدائق والمتنزهات ،بجانب المتاحف كالمتحف الروماني ، قلعة قايتباي ، بجانب جوها الجميل ،وهواءها العليل ، استمتع الجميع باليوم وعادوا وقد تقرر سفر مايا وجاسر الأسبوع القادم .

كل ذلك وأحمد يعتقد وقوع سمر في حب جاسر، وازدادت شكوكه أكثر عندما حان وقت الوداع ، وانهمرت سمر في بكاء شديد ، فقد اعتادت وجود مايا أختا لها ، خصوصًا وهي

البنت الوحيدة بالمنزل فكانت تشاركها كل شيء. وبسفرها ستعود لوحدتها من جديد ، أمّا أحمد فظّن أنّها تبكي لفراق جاسر مما زاد غضبه وألمه ، واتجه ليجهز السّيارة لتوصليهم للمطار، مع عمّه عبد الرّحمن ، الّذي كان ينوي الاستقرار بمصر، لولا تعب زوجته فجأة ، لكن نيته ما زالت قائمة وسوف يحققها ذات يوم عندما تسمح الظّروف ، وقد عزم على التبرع بثروته للملاجئ ودور المسنين ، وتصفية البارات الّتي يملكها ، لن يبقى غير المطعم ، لتكون توبته نصوح ويتقبله الله، بعد سفرهم شعرت سمر بالوحدة ، خصوصا لانشغال أحمد عنها وعزلته ، التي عللها باقتراب موعد الجامعة وتجهيز نفسه للدراسة ، لكنه كان ينوي الابتعاد عنها، وعزم على شيء أخر ، فقد قرّر أن يغيب عن المنزل تماما ، سيمكث مع ابن خالته (سامي) القادم من الكويت للالتحاق بالجامعة أيضا ، في شقتهم المجاورة للكلية بالإسكندرية ، بدلًا من أن يسافر يوميًا للجامعة ذهابًا وإيابًا ، لكنّه لم يبلغ أحدًا سوى والده ، لم يكن السبب تعبه من السّفر لكن الهروب من سمر ، ظنّا أنّه يستطيع النّسيان وقتل مشاعره .

علمت سمر بسفره وقراره ، حتّى أنّه لم يودعها. ظلّت سمر تبكي بشّدة ، وتتألم مما فعله، وتعجبت من تصرفه ، كيف وهو رفض كلية الطب بالصّعيد، حتّى لا يبعد عنهم، فكيف استطاع أن يبتعد هكذا ، ولماذا فعل ذلك ؟!

مَرّت أيّام وسمر حزينة ، لا تبتسم أبدا، وتظّل ساعات بغرفتها تبكي، حتّى الطّعام منعته ، أصبح وجهها شاحب، وجسدها نحيل، وظهر التّعب والضّعف عليها. كان أحمد يتصّل يوميًا بوالده ووالدته ، لكن يتجنّب الحديث مع سمر ، مما أتعبها نفسيّا ، لم تعتد غيابه عنها هكذا ، بداخلها ألف سؤال ولا إجابة ، هي تخجل منه لكن لا تتحمل بعاده عنها ، الآن وقد اكتشفت شعورها وحبها وتأكدت منه ، لماذا يبعد ويتركها تتعذب ! من أين لك بهذه القسوة يا أحمد ؟!

مرّ أسبوع زاد تعب سمر، حتّى جاء اتصّال من أحمد، رفعت السّماعة لترد فغلبها البكاء ، وسقطت مغشيا عليها ، رأتها منال فصرخت ، واتصّلت بوالدها ليحضر الطّبيب ، سمع أحمد الصّوت مما أفزعه ظّل يتصّل ولا أحد يجيب مما أقلقه، فعاد مسرعًا .

الفصل العاشر

عند وصوله أخبرته والدته بتعب سمر، فأخذته ظنونه أنّ ما أصابها لفراق جاسر، إلّا أنّه أسرع لغرفتها ليطمئن عليها ، وجدها نائمة وفي يدها حقن و أنابيب معلّقة ، أحزنه ضعفها و ألمها ، وتمنى لو كان مكانها أمسك يدها وجلس قليلا ، وحدث نفسه متسائلًا :- كل هذا من أجل جاسر ، هل تحبيه لهذه الدرجة ؟! ، وأنا يا سمر لماذا لم تشعري بحبي لكِ وشوقي ؟ لن يحبكِ أحد مثلي، وسأظّل أحبكِ حتّى الموت، حتّى لو كنتِ لغيري، لن يكف قلبي عن النبض باسمك ، والتنفس بحروف عشقكِ، ولن أقصر في التّضحية، بعمري من أجلكِ، سأكون بجانبكِ دوما أخا وصديقًا، لا تخافي يا صغيرتي.

فتحت سمر عيونها وفرحت برؤية أحمد ،نظر إليها بود مرددا : - ستكونين بخير، وسأتصّل بجاسر و مايا ليتحدثوا معكِ، أعلم أنّكِ تشعرين بالغربة والوحدة لغيابهما فلا تحزني ، شهور بسيطة وسيعودان للزيارة.

حاول أحمد مواساة سمر، ظنا منه أن افتقادها لجاسر سبب مرضها ، ولا داعي لكل هذا الحزن ،حزنت سمر من كلامه ، فهو لا يشعر بحبها وتعبها لغيابه ، وظّن أنّ غياب مايا وجاسر هو السبب، لكنها لم تقو على الرّد ، سوى بدموع عيونها ، فكيف تخبره بحبها إن كان لا يشعر، تهيأ أحمد للذهاب لكن سمر أمسكت يده بشّدة ، فأخبرها أنّه سيعود سريعًا ، ولن يتركها وحيدة مرة أخرى .

تتدهور صحتها ، لم تتقبل معدتها الطّعام ، وازداد شحوب وجهها، مما زاد قلق أحمد ، فأحضر الطّبيب الّذي أجرى بعض الفحوصات والتّحاليل ، وأخبرهم ضرورة نقلها للمستشفى ، فهي تعاني من أنيميا شديدة ، ولابد من نقل دم لها ، وأجرى الجميع تحليل لفصيلة الدم فكان أحمد المناسب للتبرع لها ، رحب بشده فهو يفديها بروحه و عمره. ولم ينسى إخبار الطّبيب بأمر سيولة الدّم الّتي تعاني منها.

مرّت أيّام بالمستشفى ، حتّى تحسنت سمر وعادت للمنزل، اعتذر أحمد منها، لأنّه أخلف وعده فمنذ ولادتها، عاهد نفسه برعايتها وحمايتها دائما ، لكنه خذلها ونقض العهد وتركها تصل لهذه الحالة ، فلن يسامح نفسه أبدا.

ظلّ أحمد يفكر طويلا ،لقد تكرر تعب سمر أكثر من مرة وقد زاد قلقه جدا، تحدثت سمر في هدوء إلى أحمد: - إن كنت تريدني بخير، لا تتركني مجددا وتسافر ابق هنا معي.

هزّ أحمد رأسه بالموافقة ، على طلب سمر، ووعدها أن لا يتركها وحدها .وبدأت سمر تتحسن، عادت أيّام زمان ورجع أحمد يحكي لها القصّص، ويظل معها حتّى تخلد للنوم.وذات ليلة أحضرَ أحمد قصة، ليقرأها لسمر كما يفعل كلّ ليلة ، فوقعت من القصة ورقة ، أمسكتها سمر ، لتقرأها وجدتها خطابًا غراميًا بخط أحمد.

سألت سمر أحمد :- لمن هذا الخطاب ؟ تهّرب أحمد منها ومع إصرارها ، قال لها : - كتبته لزميلة معي بالجامعة، أعجبت بها منذ فترة.

عبست سمر و سألته : - هل تحبها ؟ ومن تكون ؟

أحمد : - اسمها سارة ، ستجدين أول حروف أسمائنا بالخطاب، (A♡ S)نعم أحببتها كثيرا وسأتقدم لخطبتها بعد التخرج .

صُدمت سمر من كلامه وأحست بدوار، لولا أن تمالكت نفسها، وحبست دموعها

أمّا أحمد فاسترسلَ قائلًا : - أنا أخبرتك سرّي الآن، وأنتِ هل ستخبرينني بسركِ؟، ألم نتعاهد أن نظلّ أصدقاء ؟ أخبريني إذا ؟

سمر:- بماذا أخبرك ؟ ،ليس لدي أسرار

أحمد : - هل ستظلين تنكرين ،لا عليكِ ،سأخبركِ أنا بسركِ ،فأنا أعرف ما يدور بقلبكِ وعقلكِ .

أنت تحبين منذ فترة ،وأعرف من تحبين ،إنه جاسر أليس كذلك ؟

ظلت سمر تضحك بطريقة هستيرية وتردّد : - جاسر وأنا ! أنا وجاسر!، تساقطت دموعها وهي تحدث نفسها : - لا يا عزيزي وأخي وصديقي خانتك ظنونك ،لم تعد قريبا مني لتقرأني وتعلم خبايا قلبي ، لم تفلح هذه المرة ، نعم أحب ، ولكن ليس جاسر إنّه من ظننته أقرب النّاس لي ، من تركني وحيدة ، وذهب ليحب غيري ، وعاد يعترف لي بحب زميلته .

حاولت أن تتمالك نفسها ولا تسقط ، وأسرعت لغرفتها وهى تبكي ، وأغلقت الباب.

ظّل أحمد يطرقُ البابَ ،ويستحلفُها أن تسمع منه ، ولكنّها تبكي ولا تردّ عليه ، احس انه تسرع في حديثه معها عن جاسر وعن الحب ، فلا زالت طفلته الصغيرة المدللة، قال لها اسمعيني يا سمر : - أنا أسف ، لم أقصد مضايقتكِ أبدا، افتحي الباب ولا تبكي ، أرجوكِ

هنا جاءت منال علي صوت دقاته على باب الغرفة ، مستفسرة عما يحدث !

يصمت أحمد برهة ، فلا يعرف ماذا يقول لها ثم يقول : -تجادلنا فقط في أمر ما ، وغضبت سمر مني ، أرجوكِ أدخلي إليها و هدئيها.

ابتعد هو ودخلت منال إلى غرفة سمر، بينما كور أحمد قبضة يده وضرب الحائط بغضب مرددا لنفسه :- يالا غبائي ، ماذا فعلت ؟!، وماذا قلت لها ؟!

سامحيني يا سمر، قصة سارة كلها تأليف مني ، لما ظننتكِ تحبين جاسر ،ألفتها لكن لا أحد بقلبي غيركِ ، صدقيني أنتِ ملكة فؤادي وشريان حياتي ، وهذا الخطاب كتبته لكِ فقط.

مرت ساعات وقد نامت منال مع سمر، وظل أحمد بغرفته حزينا ، لم تغمض له عين .

في الصباح تجنب رؤية سمر ، واكتفى بالاطمئنان عليها من منال .وخرج مع والده وعمه لصلاة الجمعة .

انتهزت سمر فرصة انشغال منال وسناء بطقوس يوم الجمعة، من بخور و تنظيف وتعطير، وغسل البيت كله بماء مالح.

ودخلت غرفة أحمد تبحث عن رسائل أخرى بها، لتجد الأجندة التي يكتب بها أحمد ، والتي تحمل مشاعره نحوها ،ولم تتوقع أن يكون جنونه لهذا الحد كان قلبها يرقص فرحا ، وهى تتصّفح الأوراق ،وتبتسم مع كل حرف وكلمة كتبها بحب وشوق لها، وسطوره الّتي تبث عشقًا وغرامًا، وشوقًا فاق كل الحدود.ظلّت تقرأ حتّى سمعت صوت حسن ، فخرجت مسرعة لتصطدم بأحمد، يحمر وجهها خجلا ، وتهرب إلى غرفتها بسعادة وقد أيقنت أنها

حب عمره وحلم حياته ، حمدت الله وصلّت وشكرته على نعمه، وفضله بمنحها أغلى هديه، حبيب وأخ وصديق ووطن في آن واحد.ثم نامت وهي تحتضن العروسة -التي أهداها إياها في عيد ميلادها - وكأنّها تحتضن أحلامَها وحبيبَ عمرِها.

دخل أحمد غرفته ، ليجد الأجندة في مكان أخر غير مكانها، فتيقن أن سمر وجدتها وقرأت كل مشاعره نحوها ، فخاف من كشف مشاعره هكذا أمامها ، لتأكده من حبها لجاسر. ففكر في حيلة يتأكد بها من مشاعرها .

ساعات بسيطة ، وطرق أحمد الباب عدة طرقات، أفاقت سمر من نومِها، أمرتْ بالدّخول، فلا تقوى على الحركة، دخلَ أحمد مبتسمًا لها، وفي يده وردة حمراء، قدمها لسمر بحب، مرددًا:

هذه الوردة لأجمل وأرقّ وردة ، لحبيبتي الصّغيرة ، ثّم قبل الوردة وأعطاها لسمر، أخذتها في خجل ، فلأوّل مرة يناديها أحمد حبيبتي ، كلمة اهتزّ لها كيانها ، وفاضت مشاعرها ، وملأت الغرفة ألحانًا وأنغامًا ،لا يسمعها سوى قلبها ، شعرت كأنّها تطير كريشة في الهواء تصعد وتهبط ، على نغمات صوته ، الّذي يغمرها فيضًا من الحنان والحب والاحتواء والدهشة ، فكل لحظة يوم جديد وكل يوم عمر آخر مع من تحب ما أحلى الحب!

****

الفصل الحادي عشر

مرّت أيّام في سعادة وحب، بعد ما تأكد كل من سمر أحمد من حبهما. جلست سمر في الحديقة تتأمل حياتها، فرغم أنّها فقدت والدتها ،فقد عوضها الله باثنتين (سناء ومنال)، أحاطوها وإخوتها بالحب والعطاء والاهتمام والرّعاية دون تقصير، بل كانت منال أختًا وصديقة لها، تجاوزت معها فتراتها الصعبة معنى المراهقة والتّغيرات النّفسية والجسدية المصاحبة لها، أعطتها وقتها وحنانَها، ولم تحرمها من استشاراتها و نصائحها الذّهبية، فلم تشعر بغياب أمّها، بل عاشت في جو أسّري متماسك ومتعاون يسوده الحب والاحترام.
تذكرت سمر أحمد فابتسمت، ومرت ذكريات ذلك اليوم أمامها : كانت تجلس في غرفتها وجاء أحمد ليعطيها الدواء ، فبينما هو يخرج من الغرفة ، قالت سمر له : لتعلم أن جاسر ومايا أخوة لي فقط ، ليطمئن قلبك. رقص قلبه فرحا وتعالت زغاريد نبضه، وأحمرّ وجهها خجلا ، مجرد ذكره بشعرها بالراحة ، فهو بالنّسبة لها الحلم الجميل والوطن الّذي تسكن به، بأمانٍ وسلامٍ و سكينة، فهو من يحتويها بحب وحنان، و يهتم بها ويرعاها، وينظم لها مواعيد الأدوية والطّعام والمذاكرة، حتّى أنّه من يُذكرها بموعد حقنة السّيولة كلّ شهر ويحسب لها بدقة.وفي المساء يحكي لها القصّص ، ظّل يدعمها حتّى استعادت قوتها وعافيتها مرّةً أُخرى، لم يكن العلاج وحده يكفي ، لولا قوة الحب السّاحرة ؛ الّتي تحّول الألم إلى أمل ، وتحّول الموت إلى حياة ، فهي قوة قادرة على تبديل الّليل نهارًا وقلب الفصّول كلّها لربيعٍ مزهرٍ بألوانِ الورودِ الباهرة ، ونغم الطيّور الشّادية، يجعلك أسعدَ الخلقِ في أشّد أزماتك ، إنّه قوة تجعلك أقوى في أصعب لحظات ضعفك ،إنّه الحب الّذي يمنحك الحياة .

وتذكرَتْ صديقتَها وجارتها (سلوى)، كانت والدتها تعاملها كأميرة وترعاها بحب ثم رحلت والدتها ؛ وتزّوج والدها بأخرى - في منتهي القسوة والبشاعة -حولتها عبدةً وخادمةً تحت قدميْها، كانت توسعها ضربًا من حينٍ لحين، فتّحولت حياتها لجحيم، وأصبحت تتمنى الموت أو الهروب ، من نيران زوجة والدها.

أما صديقتها الثّانية (هالة) كان نصيبها والدين قاسي القلب، والدتها لا تعاملُها بحبٍ ولا تعطيها الحنانَ والدفء، كأنّ قلوبهم متحجرة ، علاقتها بأولادها فقط إعداد الطّعام وغسل وكي الملابس وترتيب المنزل ، عصبية وغضب وأوامر وصراخ لا ينتهي ،لا تمنحها الحضنَ الدافئ ، ولا الاحتواء ولا الابتسامة ولا تستمعُ لها ، ولا تعرف ماذا تحب أو ماذا تكره، أمّا والدها فلا يهتم بأي مشاعر، مهمته العمل فقط ، وجلب الأموال لمتطّلبات الحياة، كل ذلك يسبب الحزن لهالة فتشعر بالغربة في منزلها وبين أهلها ، لولا أخيها الحنون خالد لأصبحت حياتها صحراء جرداء، لا زرع فيها ولا ماء.

لجف نبض قلبها وهربت بعيدا عن ذلك الجحيم ، كما تراودها نفسها دوما. تنفست سمر الصعداء، وهمست إلى نفسها : فعلا الاهتمام كالماء الّذي يروي القلوب، ويمنحها الحياةَ، و الحبُ كالهواء إن غاب عنا نموت، وشكرت الله وحمدته على نعمه وتمنت دوام نعمته عليها وعلى عائلتها الجميلة .

مرّت أعوام بين نجاح وأمل وسعادة، وفي مساء أحد الأيّام ، جلست سمر في الحديقة تنتظر أحمد – كعادتها كلّ ليلة - ليروي لها القصّص ، ولكنّه تأخّر كثيرًا حتّى تعبت وخلدت إلى النوم ، وعند عودته كان برفقة والده وعمّه، ليجد سمر تنام في الحديقة وبجوارها القصّص، مما أحزنه كثيرًا وجعله يلومُ نفسَه ، فقد انتظرته طويلًا حتّى تعبت، بينما أخذ والد سمر يوقظها لتنتقل لغرفتها ، وعندما استيقظت نظرت لأحمد بلومٍ وعتابٍ ، فزادَ عتابه لنفسه وتأثره ، وودّ لو يخبرها ما حدث ويعتذر منها.

في الصّباح تناول الجميع الإفطار، وكانت سمر مازالت غاضبة من أحمد فلم تنظر إليه مطلقًا، انصرف الجميع، أمّا أحمد فجلس متصنّعا أنّه يشرب الشاي، ليتسنى له التحّدث إلى سمر، فلمّا شرع بالحديث همت سمر بالانصراف فأمسك يدها، وأخبرها : - أنّ الغضب يعمي صاحبه، فلا يجب أن تتسرعي دون أن تستمعي لعذري ، التمس لأخيك سبعين عذر، وهذا أوّل عذر لي ،عوّدي نفسك أن تسمعِي قبل أن تحكمي على أي أحد ، ولا تكوني قاسية ، كوني لينة هينة.

لا زالت سمر غاضبة ولا تنظر إليه، اقترب منها واستطرد :- اسمعيني يا حبيبتي المجنونة الغاضبة دائمًا، إنّ الحياة انتظار ولقاء، وعلى قدر الانتظار والصّبر، تكون لذة اللّقاء ، مثلما على قدر الّتعب والجهد يكون الجزاء والتوفيق .

حتّى تفهمي كلامي فخلاصتُه لن تكون الحياة كلّها حب وفرح ، لابد أن تبعدنا الحياة قليلًا ، عن أحبابنا لنشتاقَ لهم ، ولن يكون الود دومًا ، فالخّصام والخناقات أمر وارد، وسوء الفهم أيضًا وارد ، يجب أن يجعلنا الحب كلنا ثّقة ونتسامح ولا نتوقع إلّا حسن الظّن، والأهم أن نحترمَ بعضنَا ونلتمس لبعض الأعذار، أوّلًا :أعتذر منكِ عن تأخري أمس ، ثانيًا : لقد تعطلتْ السّيارة في طريق بعيد ، وحاولت إصلاحها كثيرًا دون جدوى ، وحاولت الاتصّال بكم لأخبركم ، لكن انقطعتْ شبكة الاتصّال ، حاولت كثيرا حتّى تمكنتْ من الاتصّال بوالدي ، فأرسلَ لي سّيارة أخرى ، وها أنَا هنا أخبركَ يا سيدتي الجميلة عذري. فهل تقبلين اعتذاري وعذري و تسامحيني ؟.

ابتسمتْ سمر وخجلتْ من نفسِها؛ لغضبِها من أحمد، ثّم أخبرتْه أنّها من يجب أن تعتذرَ، لأنّها ظنّت تجاهله ونسيانه لها بسبب جلوسه مع أصدقائه.

همست له بحزن : - أمس شعرتُ بالخوف وكأنّ الحياة خلت من الجميع فجأة، فشعرتُ بالوحدةِ والألمِ ، أرجوك لا تغيب هكذا مرةً أخرى .

كان ينصت إليها متأثرا ، ثم رد قائلا :- اسمعيني يا صّغيرتي، على قدر ما يسعدني كلامك، بأنّي أقرب النّاس إليكِ، وأنّني وطنكِ وملجأكِ ، ولكن يخيفني التّعلق الزائد، ويقلقني عليكِ ، لا يجب أن تجعليني محورَ حياتك .

يا حبيبتي التّعلق مريرٌ جدّاً، قد أغيب عنكِ أو أموت فجأة ، ولا أريد لك الحزن والقهر ألمًا، لا تجعليني كل شيء ، لابد أن يكون لكِ اهتمامات أخرى،لابد أن تشغلي نفسكِ ، وتعيشي حياتكِ مع الجميع، لا توقفي حياتكِ على وجود أحد حتّى و لو كنت أنا.سمر أرجو أن تفهميني دون غضب فالنّاس كالأردية الّتي نرتديها في الحياة، ولابّد أن نغيّر ما نرتدي ونبدله، لا يصّح أن ترتدي رداءً واحدًا طوالَ الوقتِ .

ترد سمر معاتبة بحزن : - أحمد ، لا تقول ذلك مرةً أخرى ،إذا أصابك مكروه لا قدر الله سأموت ،لا تتحدث عن الموت مرةً أخرى ، أنت وطني وستظّل كذلك .لا أريدُ أحدًا غيرك ، نعم أحبُ والدتي سناء ومنال وإخوتي وصديقاتي، لكن وجودهم لا يكفيني ، بينما وجودك يغنيني عن الجميع .هذا قدري، وأنا راضيه به، لكن ربّما أنت من اختنق من اهتمامي الزائد، ورعايتك لي واهتمامك، أو ربّما مللت مني .

رد أحمد مستنكرا : - لا تكرري هذا الكلام كيف أملّ منكِ أو اختنق - انتبهي لما تقولين - أنتِ عمري وحياتي وحبيبتي، لا تقولي هذا الكلام أبدًا، أنتِ قدري الجميل، وهبة الله لي، لكني فقط أريد أن تسعدي دومًا بحضوري وغيابي، لابّد أن تفهميني جيّدً أنا وطنك وسأظّل، وإذا وعدتُ وعدًا ، إن شاء الله لا أخلفه ، فأنا دومًا مؤمن بقول (إن لم تكن قادرًا عل الوفاء فلا تنطق بكلمة وعد) وأنا أعدك أمام الله أن أكون وطنًا لك ما حييت ،وإن شاء الله لن أخذلك أبدا .

سعدت سمر بكلمات أحمد كثيرًا، وكيف لا، وهو أغلى ما لديها.

كانت هذه آخر سنة لأحمد بالجامعة لهذا كان مشغول بمشروع التّخرج ، الّذي حرص على أن يكون مفاجأة للجميع ، مما كان يثيرُ فضول سمر، وحاولت مرة أن تختبئ لتراه وهو يرسم ، لكنه كشف أمرها ولم تفلح. عندما انتهي أحمد من مشروعه، كانت سمر أوّل من رآه، فقد صّمم أحمد فيلا جميلة ، ستكون هدية زواجهما، والعش الجميل الّذي سيشهد على قصة حبهما وسعادتهما، احتضنت سمر أحمد وقلبها يرقص فرحًا، وتمنت له التّوفيق والحصول على أعلى تقدير، وتحققت أمنية سمر؛ تخرجَ أحمد بتقدير امتياز، وأصبح مهندسًا معماريًا ، وأنشأ مكتبًا وسط المدينة ، مع صديقه وابن خالته سامي، ولتفوقهما تمَّ اختيارهما لبعثة بألمانيا ، فرح سامي ولكن أحمد لم يفرح بالخبر، فهو لا يستطيع أن يبتعد عن سمر يومًا ، فعزم على رفض البعثةِ ، ولكن والده هذه المرة عنفه بشّدة ، فهذا مستقبله والبعثة منحة وفرصة ذهبية يتمناها الجميع ، و لن تتكرر مرّةً أخرى ، وأمره بالسّفر وإلّا سيغضب عليه ، مما وضع أحمد في موقف صعب بين إرضاء والده ، وبين قلبه المتّعلق بسمر، فتوجه لاختيار الله تعالى له وصلى استخارة.

في الصّباح وجد أحمد سمر، تنتظره كعادتها في الحديقة، وتخبره أن يقبل البعثة ، فهي لن تقف عقبةً في طريق مستقبله وأحلامه ، وأنّها ستنتظره بشوق وستحدثه يوميًا، فما أكثر طرق الاتصّال اليوم وأسرعها، فمواقع التّواصل جعلت العالم قرية صغيرة، وسنكون معا دومًا صباحا ومساءً، الاتصّال لم يعد باهظ الثّمن كسابق عهده، فهذا المحمول بكف اليد، وضغطة صغيره تجعلنا معًا صوتًا وصورةً، سأكون معك كل لحظة لا تقلق عليَّ، اذهب للبعثة وأنا هنا مع الأهل وفي رعاية الله.وافق أحمد على مضضٍ ، وكلّه حزن وألم للفراق الطّويل ، والبعاد الّذي لم يكن أبدا في الحسبان ، وعندما حانت لحظة الوداع ، بكت سمر متأثرة وضعف أحمد وكاد يتراجع عن سفره ، لكنها وعدته أن تهدأ وتتحمل من أجل مستقبله.

ركب أحمد الطائرة وشعر أنّها تحلق بجسده ، وأن روحه وقلبه سيظّلان هنا يحومان حول حبيبته، ظّل يُطمئن نفسه بأنّه تركها في رعاية الله واستودع قلبه معها، فتنهد تنهيدةً طويلة ثّم أغمضَ عينه لتظّل صورة سمر عالقة بها ، بعد ساعات هبطت الطائرة ، وأوّل شيء فعله أحمد ، الاتّصال بسمر ووالدته ليطمئنهما بسلامة وصوله ، وكان في انتظارهم عمّه عبد الرّحمن وجاسر و مايا ، كانت أوّل مرة يرى فيها سامي مايا ، فوقف منبهرًا من جمالها ، ولم يقل إلّا سبحان المبدع ، سمعه أحمد فضحك وقال :- لقد أصابتك أخيرًا لعنة الحب يا صديقي، فكم كنت تَدعي القوة ، وتتباهى أنّ لا أحد يستطيع تحريك صخرة قلبك ، فها هي الصّخرة تتحطم على أبواب ألمانيا بيد قوية إنّها مايا يا أخي - مزدوجة الجنسية (مصرية وألمانية) ، القوة ثلاثية يا صديقي ،الجمال والأصالة المصرية والنكهة الألمانية ، كم أشفق عليك .

ظّل أحمد يضحك ، وسامي ينكرُ إعجابه بمايا ، ولكن هيهات أن يُخفى الحب (فالصبُ تفضحه عيونه).

****

الفصل الثاني عشر

مرّت أيّام وسمر حزينة على فراق أحمد ، ما أن فتح أحمد النت حتّى وجد عشرات الرسائل أُرسلت من سمر، أخرها تلك الرسالة: أحمد، اشتقت لك كثيرا، لا أستطيع التّكيف مع أحدٍ غيرك ، أشعر بفراغ بداخلي ، رغم كل من حولي وما حولي ، أنت فقط من تحتويني بحبك ، عالمي داخل قلبك ، أكاد أختنق وكأنّني كنت أتنفس وجودك ، بعادك يقتلني، ليتك هنا الآن ، أحاول عبثًا أن أجد نفسي بين طيات الكتب ، التّي طالما رويتها لي ولكن هيهات ، صورتك تطل من بين أوراق الكتب ، فلا أستطيع أن أكمل سطرًا واحدا، ليتك معي الآن ، فالحياة بدونك موت، موت مكتمل.

بكى أحمد عندما قرأها واعتذر لها عن تأخّر تواصلهما ، فقد كان يجهز النت للاتّصالات ، و وعدها أن يكونا معا على النت ، طوال اليوم من بداية صباح الخير وحتّى تصبحين على خير يا حبيبتي ، كان كلاهما يروي للأخر ، أحداث يومه تفصيلًا ، يتبادلان أطراف الحديث ، حتّى القصّص كان أحمد يرويها لها كل ليلة قبل أن تخلد للنوم ، وتنعم بأحلامها الوردية الجميلة.

أمّا سامي فكان غارقا في حبّه لمايا ، الّذي عصف به من أوّل نظرةٍ بينهما ، ظلّ يكابر ويعاند ، حتّى غلبه الشوق ، فاعترف لأحمد راجيًا منه ألّا يسخر منه ، ويساعده لرؤية مايا مرّةً أخرى، ولكن ما كان يقلقه خوفه أن تكون مرتبطة عاطفيًا بأحدهم ، ولكنّه ظلّ يدعو الله أن تكون من نصيبه ، فهذه أوّل مرّةٍ يتعلقُ بفتاة ،وتشغلُ بالَه ويحبها كلّ هذا الحب.

في يوم العطلة اتّصل أحمد بجاسر، لينتظرهما في المطعم ، وكان سامي كلّه شوق وأمل ، أن يجد مايا هناك ، لكن عندمَا وصلَا لم يجدَا سوى جاسر وعبد الرّحمن ، فعبِس سامي قليلًا وظلّ صامتًا طوال جلوسه ، يبتسم فقط لحديثهم ، بينما فكره مشغول بمايا ، يتطلع بلهفة لقدومِها ، وأخيرًا هبة نسائم عطر مايا ،الّذي ظلّ عالقا بذاكرته ، فاستدار ليجدها بابتسامتها السّاحرة قادمة نحوهم سلمت عليهم وجلست ، وسامي دقات قلبه تعلو ، تكاد تحدث هزات أرضية متتالية من شدتها، وروحه ترقص فرحا. إنّ الحب الّذي يمنحك جناحين لتطير بهما في سمائه ، الحب الّذي يجمع عليك الفصول كلّها في لحظةٍ واحدةٍ ؛

فتهطل عليك سحابات العشق فتنعش قلبك برذاذها، لتمنحك عطرا لزهور تتفتحُ بداخل روحك الهائمة عشقًا ، لتتساقطَ أوراقُ خريف عقلك بلامبالاة، مسلمًا الروح والقلب والعقل و الكيّان بأكمله دون مقاومة لمحبوب قد لا تعرف حتّى اسمه، تشعر بحرارة صيفٍ من لمست يدك بيده بل دون تلامس مجرد تلامس قلبك بقلبه روحك بروحه، مجرد ظهوره أمامك أو حتّى تذكر اسمه تحيطك تلك الهالة من الفصول الأربعة .

لاحظ أحمد هيام سامي بمايا، فحاول أن يساعدَه ليفتحَ حوارًا مع مايا ، فهي تعشقُ الفنون التّشكيلية والرسمَ مثل سامي ، فبدأ الحديث وتركهما يتناقشان معا وأكمل هو حواره مع جاسر ، كانت سعادة سامي لا توصف لحظة أن أعطتْه مايا رقم هاتفها ، وكأنّه أمسك نجوم السّماء العالية فرحًا ، سجّله وقلبه يحفظه قبل عقلِه ، وتمنَى أن يكون بداية قصة حب وارتباط بينهما للأبد.

كان الوضعُ شبه مستقرٍ في منزل سمر، بينما كبُرَ حسن وحسين ، وكبرت مشاكلهم المعتادة ، من شجار بينهما أو مع أولاد الجيران ،كان حسن هادئًا ومطيعًا بينما حسين على العكس حركي ومشاغب لا يكف عن الحركة واللّعب والشّجار، والحديث ليل نهار ، والأهم طمعه في أي لعبة ، ورغبته العارمة في امتلاك المزيد من الألعاب ، وأخيرًا تعلقه الشّديد بألعاب الكمبيوتر و النت ،مما يحدث شجارًا طوال الوقت ، فقررت منال أن تحدثه وحده أخيرًا ، بعد كثرة الشّكوى منه داخل المنزل وخارجَه، وخصوصًا بعد أن تعلمت هي الأخرى مهارات الكمبيوتر لمتابعة الأولاد ، وعدم تركهم لأهوال النت ، و مخاطره الرّهيبة ، كانت كلّ يوم تقوم بجردٍ شاملٍ، وفحص بعد نوم الأولاد على الكمبيوتر وأجهزة كلّ منهم ، لتعرف ما يلعبون ومع من يتحدثون ، ووجدت حسين يفتح أفلام ومقاطع غير لائقة ، ويتحدث مع فتيات وشباب غرباء عنه ، فقرّرتْ محادثته قبل أن تخبر والده بالأمر، آملة أن يهديه الله ويستجيب لتوجيهها.دخلت غرفة حسين في المساء فبدأت حديثها بالسؤال عن أخبار دروسه ، والمدرسة وأصدقائه ولمست شعره بيدها بحنان، لتكسب قلبَه وثقتَه معا، واسترسلت تخبره أنّها والدته وصديقته أيضًا ، ويجب أن يكون بينهما صراحة وصدق، ولا يخفي عنها أيّ شيء، وأخبرته أنّها تعشق خفة دمه و شخصيته المرحة ، ثّم وجهته بهدوء بضرورة استئذانه من الآخرين قبل استخدام أشيائهم ، وضرورة الهدوء واحترامه لهم

ولأصدقائه ، واحترام خصوصياتهم مهما اختلف معهم ، يختلف باحترام وعدم شجار ويبقى الحب بينهم . كان حسين يهز رأسه بالموافقة علي كلام منال ،ثّم طلبت منال منه اللاب لتحدث أحمد منه ، متحججةٌ بتعطلِ جهاز والده فتّغير وجهه ، ورفضَ قائلًا : - إنه غير مشحون ، لكنّها أخذت الشاحن واتجهت نحو مكتبه ، وبدأت تفتحُ بهدوء ، لكن تحرك حسين بسرعة ،وأغلقه وأخبرهَا أنّه لديه أسرار ،لا يريد أن يراها أحد. لكن منال ظّلت محتفظةً بهدوئها، وأخبرتْه ألم نتعاهد على الصّداقة والصّراحة ؟، وفتحت اللاب بسرعة ، فظهرت الرسائل ومقاطع الفيديو، الّتي لم يستطع إخفائها . شعر حسين بالخجلِ منهَا ، ولم يستطع أن ينطق بكلمةٍ، تظاهرتْ منال بصدمتها مما رأتْ، حتّى لا يشك حسين أنّها تفتشُ خلفَه وتراقبُه،ثّم جلست بجواره واحتضنته، واعتذرت منه عن تقصيرها معهم ، وانشغالِها بوالده الّذي أجرى عملية جراحية بسيطةً منذ فترةٍ ، ووعدته أن تسمعَه ، اندهشَ حسين من هدوئها معَه وانهارَ في البكاء ، معتذرًا من منال الّتي أخذتْ تحتضنُه وتهدأ من روعه ، قائلة له :- نحن بشر وكلنا نخطئ من منا بلا ذنب ، ولكن الله غفورٌ رحيمٌ ، لن نمشي مستقيمين دومًا ، لابد لنا من انحناءات لنستقيمَ ولكن بعد كلّ ذنبٍ لابّد من توبة وعودة إلى الله، فإذا كنت أخطأت ، فلا تيأس من رحمة الله ، ولكن اعزم على عدم العودة للذنب ، وابتعد عمّا يبعدك عن الله سواء أصدقاء أو النت ، فالنت يا حسين للعلم والاستفادةِ واللّعب ،وليس للمعصيةِ والذّنوبِ ، فهو سلاح ذو حدين ، إن لم تنفع به و تنتفع منه، يضرك يا حبيبي، ولابّد من مراقبةِ نفسك وضميرك ،ومخافة الله تعالى.

لا تملَ من كلامي وتعتبرَه محاضرةً بالأخلاقِ ، كما تفعلون مع معلميكم بالمدرسة، فقط قبل أن تفعل أي شيء اسأل نفسك: هل هذا العمل سيُرضي الله. قبل أن تضغط على أي زر، اعلم بأنّ الله يراك ، ومثلما خجلت مني، لابد من خجلك وحيائك من الله، الدنيا نهايتها طريقان جنة أو نار، وأنت من تختار نهاية طريقك بأعمالك، يا صديقي ألم نتفق من قبل على ذلك ؟وقبل أن تعاهدني ألّا تكررَ هذا ،فلابد أن تعاهدَ الله ، وتستغفر وتتوب ، وتنوي على عدم العودة ، فاتق الله ليخرجك من الظّلمات إلى النور، (ومن يتق الله يجعل له مخرجا).بعد مغادرة منال غرفة حسين ،بدأ بحذف كل الصّور والأفلام وحظر كلّ موقع أو صديق سيء معاهدًا الله أن لا يكررها.

بينما منال ظّلت ساهرة تفكرُ، تشعر بتقصيرها وتقصير زوجها نحو الأولاد ، فهم في سن المراهقة ويحتاجون توجيه ومراقبة أكثر، لا يحتاجون رعاية فقط بل يحتاجون رقابة وتربية وهذه هي المهمة الصّعبة ؛فعزمت في الصّباح أن تتحدثَ للحاج عبد القادر بضرورة اهتمامه ومصادقته لهما ،دون أن تخبره بما حدث.

في الصّباح وأثناء تناول الجميع وجبة الإفطار، وقبل حديثِها معه جاء اتّصال للحاج عبد القادر،اتجه بعده مباشرةً إلى حسين وصفعه بيده على وجهه أمام الجميع.غضب حسين وتوجه لمنال وقال - :لماذا أخبرتِه بما حدث ؟، ألم تعاهديني أنه سر؟، أنتِ كاذبة .

****

الفصل الثالث عشر

أمسك عبد القادر يدَه بقوةٍ، معنفًا إيّاه كيف تتحدثُ لوالدتك هكذا ؟؟ وهَمّ بضربه مرّةً ثانيةً لولا تدخلت منال ومنعتْه،اتجه عبد القادر نحوها وقال : -كنت تعلمين بأفعاله المهينة ولم تخبريني إذن؟ هذه هي الأمانة يا منال ؟ !

كادت الأمورُ تشتعلُ بين منال وزوجها الحاج عبد القادر، لولا تدخل سناء وعبد الله محاولين تهدئته حتّى جلسَ ليفهمَ ما يحدث بهدوء،تحدث عبد القادر ووجه الكلامَ إلى حسين غاضبا:- اتّصل معلمك بالمدرسة، وأخبرني بهروبك من المدرسة أمس والإنذار الّذي أرسله معك و مزقته أمامَه بالفصل، كيف وصلت لهذا المستوى من تدني الأخلاق والكذب ؟

صمت حسين ناظرًا لمنال نظرة اعتذار ، بينما اقتربت منال من عبد القادر وحاولت تهدئته ، وإخبارَه أن كلّ شيء يحُل بهدوء ، وطلبت منه الجلوس.

اعتذر حسين منهم واعترف بخطئه وعزمه على فتح صفحة جديدة ، كان عبد القادر مازال غاضبًا ، وزاد غضبه عندما وصل حسن، وأخذ يعنفه كيف أخَفى عنهم كلّ هذه المصائب. وترك أخاه فريسة للّضياع ، لم يتحمل حسن غضب وضغط والده منه، فسقط مغشيًا عليه، مما أثارَ ذعر الجميع ، فحمله والده مسرعًا إلى المستشفى.

بعد أن فحصه الطّبيب وأجرى بعض الأشعة والتّحاليل له ، اتّضح وجود ثقب بالقلب ، وعندما أخبر الجميع كانت صدمة كبيرة لهم ، انهارت منال باكيةً ، بينما تمالك عبد القادر نفسه وأمسك به عبد الله وحاولت سناء مواساة منال ، رغم أن ألمها لم يكن أقل منها ، فهو ابنها أيضًا ويعز عليها وجعه ، أخذت سمر تبكي ولكن حاولت أن تتماسك حتّى لا تسقط أيضًا ، فالموقف لا يحتمل، ساد البكاء وخيّم الحزن على الجميع. وعندما استردّ حسن وعيه، جلسوا حوله محاولين إخفاء حزنهم ، وطمأنته والشّد من آزره ، ولكن كيف سيخبرونه بالأمر لن يتحمل الصدمة.

خيم الصمت قليلا، حتّى حضر الطّبيب كان شابا صالحا بشوش الوجه وتحدثَ لحسين بلباقة وحنان بالغٍ ، و بدأ يسرد عليه قصته ويقول:- وأنا في عمرك نفسه تعرضت لحادثةٍ

بشعةٍ ، انقلبت السّيارة بأسرتي: والدي ووالدتي وأنا وأختي، ولم ينجو من الحادث غيري ، والحمد لله نجوت ليربيني جدي وجدتي ، لا أنكر أنّهما غمراني بعطفهما ورعايتهما ، لكن كنت دومًا أفتقد أسرتي وأبكي كل ليلة خلسة ، حتّى أصابتني حُمى ذات ليلةٍ ولم يشعر بي أحد ، مما أصابني بمضاعفات أدّت لإصابتي برومانتيزم بالقلب ، حزن جدي وجدتي من أجلي ، بعد فترة ماتت جدتي بقيت مع جدي العجوز المريض،الّذي كان يخدمني بقلبه و يحفظني بعيونه طال بي الحزن فترة طويلة، عندما علَمت بمرضي أصابني اليأس فكرت أنّ حياتي ستنتهي وسأموت بعد عامٍ أو عامين ، وغلبني الحزن حتّى صادفت طبيبًا شابًا ذا خلق ودين، احتواني كطبيب وأخ كبير وأقنعني بأنّ الأمل يقهر المرض وليس العلاج وأنّ الأعمارَ بيدِ الله تعالى ، الموت ليس بالمرض ،واعتقادنا بأنّ المرض قاتل جريمة ، إنّها أقدار والأمر لله وحده .

أصبحنا أصدقاء وكان يساعدني في دروسي ويتردد لزيارتي ، بعد فترة مات جدي ليتركني وحيدا، كنت بالثّانوية العّامة، كدت أفقد الأمل لولا عناية الله وذلك الدكتور الّذي اعتبرني ابنه، واهتم برعايتي وتعليمي، بل و أشركني معه في الأعمال الخيرية ، كنا نذهب لدور الأيتام ورعاية المسنن ، نقدم المساعدات لهم ومجلس ونتسامر،شعرت أنّني ولدت من جديد ، واقتنعتُ بأنّ العمر لا يقاس بالسّنين بل بما تقدمه من خير، لأنّه كنزك وعدتك ومتاعك للحياة الأخرى والفوز بالجّنة ، ونسيت مرضي تمامًا ، فالعمل والعبادة معًا ، يجعلانك في جّو من الرضا والسّكينة وينسيانك ألمك وهمك. و ها أنا أصبحت طبيبًا بفضل الله، وبتشجيع صديقي ومعلمي الطّبيب، قد تسأل يا حسين لمَ أخبرك كلّ هذا ؟! ، أخبرك لترضى بما ستعرفه إنّك تعاني من ثقب بالقلب ، وُلدت به وستظل تتناول بعض الأدوية ، وتتجنب المجهود الشّاق، لن تتوقف حياتك .

لكن بعض الحرص فقط و ستمارس حياتك الطّبيعية ، أهّم شيء الأمل ولا تستسلم لليأس من اليوم سنصبح أصدقاء اتفقنا يا عزيزي ؟

ابتسم حسين وحمد الله ، وأجاب الطّبيب اتفقنا، ولكن لن أكون طبيبا مثلك ، أحب الرّسم وأريد أن أصبح فنانًا تشكيليًا ذات يوم ،ابتسم الجميع برضا، و حمدوا الله على قضائه

وعادوا للمنزلِ بعد يومٍ عصيبٍ، تذكرت سمر أنّها منذ ساعات لم تتواصل مع أحمد ، فلعلّه قلق عليهم ، فتحت النت و وجدت مئات الرسائل منه (ردّي سريعًا - أين أنتِ ؟ - أتّصل بكم منذ ساعات وأصابني الفزع ،أنتِ لا تفهمين ما معنى أن أقضي يومًا كاملا يملؤه القلق في ترقب رسالة منكِ ، أن أكون ضائعا و مشوّشا فقط لأنّني شعرت لدقيقة أن قلبك مشغول بشيء آخر}ماذا حدث ؟ ، هل كل شيء بخير؟؟

أجابته سمر: - نعم ، الحمد لله كلنا بخير ، انقطعت الكهرباء فترة طويلة للإصلاحات ، ثم خرجنا للتّسوق ولم يكن أحد بالمنزل ، أعتذر لك بشّدة عن ذلك القلق الذي سببته لك.

أحمد : -لا عليكِ حبيبتي ، فقط اشتقت إليكِ ، وشعرت بالوحدة والغربة ، تعلمين أن وجودك ، ينسيني غربتي ويشعرني بالدفء والأمانِ، لكن اليوم لن نحكي قصصًا، صوتك متعب وتحتاجين للراحة، سأتركك تخلدين للنوم لتستريحي، تصبحين على كل خير وسعادة حبيبتي، أتركك في حفظ الله و رعايته .

ترد سمر بحب : - تصبح على خير، استودعك في أمان الله.

مرّت أيّام واستقر الوضع بالمنزل، أصبح حسن وحسين لا يفترقان ، ولا يتشاجران بل ساد الهدوء والسّكينة المنزل.

مرّت شهور زاد فيها ارتباط سامي بمايا ، وتّعلقه وحبّه لها ، ولكن زاد خوفه ، عندما علم رغبتَها في البقاء مع والدتها ، فهي لا تقوى على فراقها خاصّة وهي مريضة بالسرطان.

أمّا سامي فلم يعد قادرًا على الغربة مرّةً أخرى ،عاش حياته بعيدا عن مصر، لا طفولة ولا مراهقة، فقد اكتفى غربة و اغتراب ، وعانى كثيرًا من الوحدة والعزلة ، ممّا أصابه بالتّوحد سنوات حتّى وُلدت أخته وبدأ يتكلمُ ويلعبُ ويتواصّلُ معها ، ولكن بعد أن ضاعت سنوات طفولته منه في الصّمت والرّهبة من الآخرين ، وهاهو الآن بين نارين : تّعلقه وحبّه الأوّل مايا ، ومستقبله بمصر مع أحمد ودفء العائلة ،الّتي ما أن وجدها حتّى وجد نفسه وذاته وبدأ يعيش الحياة .

هل يستسلم ويعود للغربة ، ثّم يندم طيلة حياته ، أصعب شيء أن تختار ألمًا من أصل ألمين أن تختار أهون الخسارتين ، أن تبتر بعضك لتنقذ بعضك الأخر.

وتحدث سامي إلي نفسه قائلا:- آه لو عاد بي العمر؛ للعبت مع الأطفال كطفل ولمارست بعض حماقاتي ، لن آخذ الحياة بهذا الجد ، سأضحك من بلاهتي وأصاحبُ أوجاعي ، سألهو مع قوس قزح وأرقص تحتَ الممع، وأطارد الفراشات وأعانق الحياة بوجه باسم ، وأحمل في جيبي كلّ يوم حلوى كثيرة ، أمنحها أطفال الحيّ ، سأثقبُ كلّ حقائبي الّتي أحمل فيها همومي ، فتتساقطُ مع كلّ خطوةٍ أخطوهَا ،آه يا نفسي لو تهدئين قليلا ، آه لو تنسلخ تلك الذّكريات وتموتَ الآلام الدفينة ، ما أبشع العمق والتّعمق ، يا ليتني ببساطة أحمد ، وشخصيته الاجتماعية الجذابة ، كلّ شيء عندي معقد حتّى الحب الذي يعطي الروحَ خفة والحياة أمل ، تّحول لديّ لثقل وخوف ويأس من فقدانه للأبد ، يا رّب أختر لي ولا تخيرني ولا تحيرني في أمري يا رّب.

لاحظ أحمد شرودَ سامي ، و انشغاله وحيرته ، وودَّ لو يفتحَ له قلبه ، ويشركه في أمره ، ليحمل عنه قليلًا من همومه ، ويخفف عنه ما يؤرقه ، ولكن سامي ظل كتوم كعادته .

فكر أحمد في شيء يخرجه به من دوامته ، فأخذَه في زيارة لمعرض تشكيلي لفنان كبير ، انبهرَ سامي بما يرى فعشقه للفنون التّشكيلية لا ينتهي ،وتمني لو يدرسها لولا والده ، أجبره على دراسة الهندسة ، ليحقق له حلمَه ويصبح مهندسًا، لكنّه كان يمارسُ هوايتَه ، ويشارك بالمعارضِ الفّنية ، فهو الشيء الوحيد الّذي يشعرُه بالحرّية ، والتّحرر من القّيود ، شكر سامي أحمد لاهتمامه ، ودعوته لحضور المعرض،وما أن دخلا الشقة حتى أمسك أحمد به وابتسم و قال:- لا عليك اجلس هنا على كرسي الملك ، و أنصت جيّدًا أيّها الفرعون الصّغير، فالفراعنة أمثالنا سند لبعضهما هنا وهناك ، ولكن حتّى لا تحل عليك اللّعنة ، لابّد أن تبتسم وتنسى مخاوفك وذكرياتك لتعيشَ بسلامٍ ، فلتكن قويًا مثل أجدادك ، ولتحارب من أجل البقاءِ ، فالحياة معارك يا صديقي إن لم تقاوم جيّدا ،ستغلبك وتسحق أحلامك ، والآن عليك الاعتراف ، والتّحرر من همومك ، هذا كرسي الاعتراف ،لم

يستطع سامي التّوقف عن الضحك ، من كلام أحمد ومن منظره، فقد ارتدى قبعةً كبيرةً، وشارب وذقن، وتقمَّص دور الملك.

بينما أحمد ما زال يؤدي دوره بجدارة اقترب من سامي وهو يردد :- ما الّذي يُضحك ؟ أتريدُ أن تصيبك لعنتي ، احترس أيّها الصعلوك ، من يعصي أوامري يفقد لقب الفرعون ، ويُحرم من دخول البلاد ،إنّه النّفي ولكن أيّ نفي هذا ؟سأنفيك معهَا ، مع من تحب ... مع مايا ، أليس كذلك يا فتى ؟

استمرَ سامي في الضّحك، ولم يقوَ على الرّد عليه ، كان منبهرًا به، أكثر من انبهاره بالمعرض، وكأنّه يشاهدُ فيلمًا كوميديًا، ودّ لو يشارك به أيضًا، حاول أن يستجمع قوته وبدأ قائلا: -أجل يا سيدي الفرعون المصري ، فأنا أعترف لك أنّي أحب مايا حبًا جَمًا ، لا يفوقه حدود ولا يمنعه مانع ، وتلك هي المشكلة فلن تكون لي يومًا ،لا هي ستترك ألمانيا ، ولا أنا سأترك مصر لن نلتقي أبدا ، ولا ينفع أن نلتقي كلّ إجازة فقط ، أريد أسرةً مستقرةً ، لا أريد ما عانيته أن يتكرر مع أولادي،هكذا كتب القدر لنا الفراق يا سيدي ، هذا سبب همّي وحزني.

تنهد أحمد وقال وهو يهز رأسه : - وهل صارحتها بحبك ؟وسألتها صراحة بالأمر؟ أم أنّك تجزم بذلك كعادتك ،أنت تعشق الألم وتنغمس في أوهام، قد لا تحدث بالواقع عليك المواجهة لا الخوف والهرب.

عبث سامي مرددا : - أنا حقًا لم أصارحها بحبي ورغبتي بالزّواج منها ولكن خلال حديثنا ، أخبرتني أنّها كانت تود العيش في مصر ، لولا مرض والدتها ومسئوليتها نحوها ، ففهمت أن أحلامي مستحيلة ، فعزمت ألّا أخبرهَا ، فما جدوى إعلامها بحبي ومشاعري إن كنا لا نستطيع الزواج.

رد أحمد مستنكرا : - آه منك يا عزيزي ، ألم أخبرك أنّك تتّخيل عقبات وتبني سدودًا لأحلامك ، تتوهمُ نهايات حزينة لتبكي عليها،لابد من الأمل والاستبشار بالخير وليس اليأس ، لا يأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس ، تفاءلوا بالخير تجدوه. لكن من رأيي أن تصارحَ

مايا ، وتترك لها حرية الرأي ، ولا تدري فالظّروف تتّغير، فما بين طرفة عين وانتباهتها يغيّر الله من حال إلى حال.

ارتاح سامي بعد حديثه مع أحمد ، فشّعر أنّ الفضفضةَ تريحُ وتخففُ جبال الهم عن الصدور، وخصوصًا لمن هم موضع ثقةٍ ، ومن يشعركَ باحتوائه لك واهتمامه بمشاكلك ، فالفضفضة نوع من التعري ،فلا تعري ضعفك إلّا لمن يهتم لسترك،و أحمد موضع ثقة بجانب أنّه يتمتع بحسن الإصغاء واللّباقة والقدرة على فك شفرات و تحطيم أقفال قلوب من حوله ، وتحويل حزنهم لفرح و خيباتهم لأمل جميل.

****

الفصل الرابع عشر

نام سامي مرتاحَ البال بعد أن فضفضَ لأحمد بما يقلقه ، وقرّرَ أن يصارحَ مايا بحبّه و يتقبلَ ما سيحدث ليرتاح قلبه.

في الصّباح بينما أحمد وسامي يتناولان الإفطار رّنَ هاتف أحمد ، فوقف مفزوعًا ممّا سمع كان على الجانب الأخر جاسر ، يخبره بوفاة والدته ، ظّل أحمد يردد إنا لله وإنا إليه راجعون

مما أقلق سامي ، ونهض يسأل من الّذي توفى؛ أخبره أحمد واتجها مسرعين ، لمنزل جاسر و مايا ، ليواسيهما ويقفا معهما في ذلك اليوم العصّيب ، كانت مايا منهارة وسامي يتألم لحزنها ، ويساندُها بقلبه وكلماته لها ، حتّى تّم دفن والدتهما ، وعاد الجميع إلى المنزل منهكين ، قرّر أحمد أن ينام اللّيلة مع جاسر،بينما ذهب سامي وقلبه ممزق ، تمنَى لو يستطيع ألا يترك مايا وحيدة حزينة، تمنى لو أخذها بحضنِه للصّباح ، تمنى لو قال لها أحبك بكل لغات العالم ، تمنى لو محا حزنها وألمها، وبدلهما فرحًا وسعادةً ، لم ينم سامي طوال اللّيل ،أمسك بهاتفه آلاف المرّات وكتب آلاف الرسائل لمايا ، ولكن مسحَها ولم يرسلها، كان حائرًا هل يفرح لأن الله سهل له أمره ، فبموت والدتها سيكون سهلًا استقرارهَا بمصر، أم يحزن لما أصاب مايا من ألم فقدان والدتها وحزنها عليها ، مرّت أيّام صعبة على الجميع. وانتهت شهور البعثةِ وآن الأوان للعودة للوطنِ ، في الوقت الّذي ستحضر فيه أسرة مايا لمصر ولكن هذه المرّة ستكونُ عودة بلا رجعه، فقد قرّرَ عبد الرّحمن الاستقرار أخيرًا بمصر، وعزم على تنفيذ قراره ، تاركًا إدارة المطعم لصديقه، ورغم حزن جاسر الّذي أنهَى الجامعة هذا العام وكان يودُ العمل بألمانيا ،خاصة وقد نوى أن يكون داعية بألمانيا بعد تفقهه في الدين ، ودراسة العقيدة والقرآن والسنة ، فقد تحول بعد حادث تناوله للمخدرات بمصر، وتبدل حاله كليا وعزم على دراسة العقيدة ، وهاهو الآن عزم النية على نشر الدين هنا، لكنه لا يستطيع معارضة والده، فطاعته واجبة وفرض ، فقد استسلم لأبيه ورضي بقدر الله ، بينما مايا كانت تود تكملة جامعتها هنا؛ فالدّراسة هنا أفضل من مصر، لكن عبد الرّحمن تعب ويريد العودة للوطنِ، فالغربة مزقته أشلاء ، نصفه هناك

ونصفه هنا ، قلبه مشتت وروحه هائمة بين هنا وهناك ، وافقت مايا على مضض خاصةً بعدما أقنعها والدها بأنّه تعِب وكبر سنه ويريد أن يموت ويُدفن في موطنه فخضعت مايا احترامًا لرغبةِ والدها، لينعمَ بالعيشِ مع أهله وبوطنه ، رغم تطلعِهما للدّراسة والعملِ بألمانيا ، لتّوفر سبل التّقدم والرّفاهية، ولكن بمصرَ يجدان الأمنَ والأمانَ والدفء والرحمةَ بين الأهلِ و الأصدقاء.

وفي المطار استقبلهم الجميع بكل حب وود، وكان لقاء سمر بمايا مزيج بين الشّوق واللّهفة والدموع والمواساة ، رحب الجميع بهم ، واتجهوا للمنزل.

كان جاسر و مايا ينزلان مصر كلّ عام مع والدهما، لزيارة مصر في إجازة الصّيف ، وكانت سمر تسعد بمايا أختها وصديقتها ، فهي تقضي معها أجمل الأوقات ،وهذا العام الأمر يختلف فالنزول للإقامة الدائمة ،مما أسعد قلب سمر، وستحضر أيضًا سارة -ابنة خالة أحمد وأخت سامي - التي تقيم بالكويت منذ سنوات، وسيذهب الجميع للقرية السّياحية وستكون الصّحبة رائعة وسيمضوا معا أوقاتً ممتعةً.

بعد أيّام عادت خالة أحمد وزوجها من الكويت أيضًا ، مما أسعد سامي للمِ شملِ أسرتِه بعد سنوات الغربة ، فسارة أخته قادمة لأداء اختبارات الثّانوية العّامة هذا العام ، وستعود والدته معها ، لكن والده سيسافر للعمل، ويأتي لزيارتهم كلّ أجازة.

قررت سناء تحضير وليمة كبيرة ، احتفالًا بقدوم أختِها وأسرتها ، وستكون فرصة للتّعارف بين الأسرتين، وخصوصًا البنات والأولاد، اجتمع الأهل بمنزل عبد الله وأخوته ، وكانت وليمة رائعة بها كلّ ما لذّ وطابَ من الأطعمة المصرية، بعدها اتجهَ الرّجال للمكتب يتناولون الشّاي بينما النّساء جلسن بالصّالون يتبادلن الحديث ويتذكرنَ الماضي ، و ذكريات أيّام الطّفولة والشّباب الجميلة، أمّا البنات والأولاد اتجهوا للحديقة،الشباب يتحدثُون عن الكرة والسياسةِ، والبنات عن الفنِ والقصّصِ والدراسة ،ويتجاذبُون الأحاديث من هنا وهناك.

قرّرت سمر أن تلتحقَ بالقسم الأدبي ، فعشقها للقصّص والقراءة لا ينتهي ، أمّا مايا وسارة سيلتحقان بالقسم العلمي فرغبتهما كانت الالتحاق بكلية الصيدلة، وستبدأ الدراسة خلال أيّام

، كانت الحياة تسيرُ بسلامٍ حتّى جاء ذلك اليوم ،حينما ذهبت سارة و مايا لدرس الكيمياء ، وتأخرتا عن موعدهما ، ممّا أثار الفزع في منزل مايا ومنزل سارة أيضا، وخرج الشّباب للبحث عنهما ، حتّى وصلا لمكان الدرس ، وعندما سألوا المدرس ، أجابهم بانتهاء الدّرس منذ ساعة تقريبًا ، بينما شرعوا في الذّهاب ، فإذا بفتاة تتجه إليهم وتخبرهم بأنّها تعلم أين ذهبت مايا وسارة ، لقد سمعت نادين زميلتهم تخبرهم بضرورة حضور حفلة عيد ميلادها اليوم وقد أصرت عليهما ، وأحرجت جميع الفتيات وأخذتهن بسيارتها الفاخرة إلي الهيلتون على شاطئ ميامي ،انهار أحمد عندما سمع اسم نادين ، فالكلّ هنا يعلم سوء سمعتها وفساد أخلاقها ،أسرع أحمد مع سامي وجاسر، إلى مكان الحفل في الوقت الّذي اتّصلت به والدته لتطمئن فأخبرها بما علم ، بعد قليل وصلوا للحفل ودخل أحمد و جاسر وسامي ، فوجدوا الرّقص والغناء والصّخب ، والخمور والمخدرات تفوحُ رائحتها وتملأ المكان ، بينما كانت مايا وسارة تجلسان مع باقي الفتيات على إحدى المقاعد. ذهب جاسر وجذب مايا بقوة ، أمّا سامي فصفع سارة على وجهها وجذبها للخارج ، وحدث صراع في الخارج ، حاول أحمد تهدئة الموقف ، وأمرهم بالركوب والتفاهم بالمنزل. ظلت الفتاتان تبكيان طول الطّريق حتّى وصلوا للمنزل ، دخلت مايا وارتمت في حضن والدها وهي تبكي ، بينما ذهبت سارة لمنزلها ، مع سامي الّذي ظّل يعنفها طوال الطّريق ، وصار نقاش حاد وعلت أصواتهما ، انتهى الأمر باعتذار كل فتاة لأهلها ، وأنّها اضطرت مرغمة ، تحت ضغط نادين صاحبة الحفلة عليها ، لكنّهم غير راضيتين عن الوضع وسلوكيات البنات والشباب هناك.وفي النهاية وعدت مايا وسارة أسرتهما بعدم تكرار ذلك وانتهى الأمر.

****

الحلقة الخامس عشر

في المدرسةِ تعلقت سمر بمعلمةِ الفلسفة هيام، كانت هيام شابة حديثة التّخرج، تسكنُ قريبًا من منزلهم وأصبحتْ قدوةً لها في رقتها وذوقها و حسن أخلاقها، مع الوقت أصبحت صديقة لسمر لتقارب السن، كانت الفرحة تغمرها حين أخبرتْ سمر بأنّ حلم حياتها أوشك أن يصبح واقعًا، وأبواب السّعادة ستفتح لها قريبًا ، ففارس أحلامها وحب عمرها ، سيأتِي بعد يومين لخطبتها، ظلت تحكي وعيونها تلمع، وقلبها يكاد يطير فرحًا ذهبت هيام مع سمر واشترت أجمل الملابس ، وتزينت فصارت في أبهى طلاتها، وأعدت الحّلويات والمشروبات ، وجهزت المنزل فصار كالقصر وتزيّنت كالأميرة الّتي تنتظرُ أميرَها ، ليأتي بحصانه الأبيض، ويأخذها لعالم طالمَا رسمته في خيالها ، جهزت سمر معها خطوة بخطوة ، حتّى وصل الفارس مع أسرته ، وقتها غادرت سمر لتأخرها وتركتْ هيام مدرستها هائمة في أحلامها ، وسعادة الكون قد ملأت قلبها.

مرت ساعات لم تقوى سمر على الانتظار حتّى الصّباح لتعرف الأخبار، فاتّصلت بمعلمتها هيام هاتفيًا؛ ردّت هيام وهي باكية ومختنقة:- لقد رفضوه يا سمر وكسروا قلبين ،لقد تحطمَ كلّ حلم جميل، يقولون أنّه لا يليق بي ماديًا فأسرته بسيطة ونحن أغنياء، لا يعلمون كم أحبّه ولن أحب غيره أبدً، سحقًا للأموال والعقارات والأطيان، سحقًا لكل ما يفرقني عن روحي ، سأهرب يا سمر وأتزوجه لن استسلم لهم، وآهات ودموع هيام لا تتوقف .

صمتت سمر فلا تدرى ماذا تقول لها، وبما ترد فقد أصابَها الألم والحزن والبكاء، أغلقت هيام الهاتف ، بينما ظّلت سمر شاردة ، ولم تنم حتّى طلوع الفجر، تفكر كيف انقلبت فرحة هيام لألم وحزن وكيف تبدل حالها،غفت سمر ساعات واستيقظت على صراخ بالشّارع وأصوات صخب ، نظرت من النافذة ففزعت لمّا رأت هيام منهارة تصرخ وتبكي والجميع يحاول تهدئتها ، حتّى سقطت مغشيًا عليها ، ونقلوها للبيت سريعًا ، هبطت سمر مسرعة متجهةً لبيت هيام لتصدم بخبر انتحار حبيب هيام الّذي ألقى بنفسه في النيل، بعد أن رفضه أهلها وعندما علمت هيام أصابها ما أصابها.

حضر الطّبيب وأعطاها العلاج، وكلما استيقظت تنهار، وتحاول الانتحار فيعطونها المهدئات ، ظلّت شهور على هذا الحال رافضة للحياة تمامًا، كان من المفترض إبقاءها بالمستشفى للعلاج ولكن رفض أهلها حفاظا على وضعهم الاجتماعي، بدأت تستعيد وعيها وتتحسن ببطيء .

مرّ عامٌ من الألم والحزن ممّا أثر على نفسية سمر كثيرًا ، الّتي كانت تذهب لزيارة هيام باستمرار.

بعد ظهور نتيجة الثّانوية ونجاح سمر و مايا وسارة ، رفضت سمر الاحتفال بالنّجاح ، بسبب ما حدث لمعلمتها جلست سمر مع أحمد في الحديقة ، وهي حزينة و مهمومة ، أخذت تتحدث مع أحمد : - لم أعد أشعر بالفرحة ، حتّى النّجاح ليس له معنى دون معلمتي وصديقتي هيام ، لماذا حدث كل هذا معها؟ كانت كتلة من النّشاط والأمل والحياة ، حوّلوا فرحتها لمأتم، وحياتها لجحيم ، قتلوا حلمَها ودمروها لماذا نتعامل بطبقية ومادية أين المشاعر و الإنسانية، أي بشر هؤلاء ؟! سكت أحمد قليلا ، ثّم ضّم سمر إليه ليهدئ من روعها ويطمئنها ، ثم أخبرها برفق وحب هامسا :- حبيبتي ، إنّه النّصيب ، وكلّ أسرة لها عادات وتقاليد، وما حدث قدرهما ،رحمه الله وصبرها وعوضها خيرا، عليكِ بالدعاء لها فلن يفيدها حزنكِ وألمكِ، ستمر الأيّام وستنسى. السّنين قادرة على محو الأحزان، فالحزن هو الشيء الوحيد الّذي يولد كبير ثّم يصغر، وتلك رحمة الله بنا.

تأثرت سمر بكلامه وردت بأسى :- إن شاء الله تتبدل الأحوال وتتحسن معلمتي ، وقد نويت على دراسة الفلسفة مثلها ، سألتحقُ بكليةِ الآداب بإذن الله تعالى، وسأذهب لها اليوم لأبشرها.

كانت سمر تزور هيام كلّ يوم ، تحكي لها كل أحداث يومها ، وهيام تهز رأسها فقط ، فقد فقدت النطق بعد ما حدث لكن الأطباء أجزموا أنّها حالة نفسية ليست عضوية ، لم تيأس سمر وكانت تشجعُ هيام وتحثُها على العودة للحياة. وذات يوم أخذتها للتراص لتستمتع بالأزهار والعصافير، وتشرب الشّاي معها، نظرت هيام للشارع ، وجدت ابن أخيها الصّغير يعبر الطّريق وإذ بسيارةٍ تأتي سريعًا وتصدمه، فصرخت هيام باسمه وجرت مع

سمر، لتجده غارقًا في دمه ، توالت صرخات هيام ليخرجَ الجميع ويحمل أخوها ابنه للمستشفى، كان يحتاج لنقل دم فتبرعت هيام له ومنحته الحياة ، وعادت هي أيضا للحياة بعد هذا الحادث، فرُبَ ضارةٍ نافعةٍ.

تحتضنها سمر فرحًا بعودة صوتها، ويتبادلان الحديث أخيرا ، تنصت سمر لها بكل جوارها فقد اشتاقت لسماع صوتها العذب ، وكلامها الرقيق .

تمرّ الأيّام وتعود هيام للعمل ، تهبُ حياتَها للتّعليم ومساعدة طالباتها وتلتحف بالسّواد وتمتنع عن الزواج وفاءً لحبيبها ، تمّر السّنين وتتخرج سمر من كلية الآداب ، تتمُ خطبتَها لأحمد في حفل عائلي بسيط ، يحضره صديقاتها ومعلمتها هيام، في الحفلِ تتوالى المفاجآت فيعلن سامي خطبته لمايا ، وتكتمل فرحتهم باعتراف جاسر لسارة بمشاعره ، وطلب الزواج منها بعد أن عاشت سنوات تظّن أنّها تحبه من طرف واحد، لكنّه أصبح داعية شهير على مستوى العالم ، لذلك يكثرُ سفره طوال العام، ولم يكن يريدُ أن يفعل ما يعيبه على الشّباب من علاقات الحب، أراد أن يُرضي الله وتكون علاقة ارتباط شرعي أمام الجميع لا يشوبه شبهه ولا ذنب، ليبارك الله لهم ويرضى عنهم، لذلك أخفى مشاعره طوال سنوات مضت، بعد أن هزت رأسها بالموافقة، اتجه لوالدها وطلب الزواج منها ، كان يوم رائعًا سعيدا على الجميع ، أصبحت الفرحة ثلاثية للصديقات الجميلات ، تعالت الموسيقى والضحكات في الحفلة وسعد الجميع. امتلاء المنزل سعادة وتعالت الزغاريد هنا وهناك .وقال عبد الله لإخوته:

{الأولاد متفقون ونحن أخر من يعلم } ابتسم الجميع واتفقوا على إتمام حفل الزفاف بعد عام ، حتّى تتخرج مايا وسارة من كلية الصّيدلة ، وينهي أحمد رسالة الماجستير، ليكون زفافهم في يوم واحد.

****

الفصل السادس عشر

كان أحمد قد قام ببناء الفيلا الّتي صممها لسمر، على ضّفاف النّيل في بلدتهم السّاحرة الّتي تطّل على النّيل والبحر معًا في موقع متوسط ساحر وخلاب، لتكون عش الزوجية الجميل ، ويقوم بتجهيزها الأن بأجمل الديكورات، بينما التحقت سمر بالمدرسة مع معلمتها هيام ، كتدريب لها وكانت معها صديقاتها هالة و سلوى ، كانت تجربة جديدة لهن ، كلهن حماس وشوق للعمل ، فالمدرسة نفسها الّتي درسن بها تعدن لها ولكن للعمل، مع اختلاف تخصصهن ، هالة وسلوى درستا علم الاجتماع وسيكون دورهما أخصائي اجتماعي ، بينما سمر درست فلسفة وستدرس للطالبات مادة الفلسفة.

كانت سلوى أكثرهن جرأة ، وضحك وهزار لا ينتهي ، بينما سمر وهالة أكثر عقلًا وهدوء ، كانت سمر سعيدة جدًا ، تستيقظ كلّها نشاط وتذهب كل يوم للعمل ، تعلقت بها الطالبات وأحببنها لرقتِها وذوقِها معهن وأصبحن يتوددن لها ، بل بعضهن اتخذت منها أختًا وصديقة، وكن يحيكن لها عن بعض مشاكلهن وتستمع لهن جيّدًا وتساعدهن ، خاصّة أميرة تلك الطالبة المنطوية والّتي قلما تحدثت ، إلى أن جاء يوم، فوجئت بها سمر أمامها في الفناء تطلب أن تتحدثَ معها ، جلست سمر معها وبدأت أميرة بالبكاءِ احتضنتْها سمر وظّلت تهدئ من روعها ، حتّى هدأت وبدأت الحديث بحزن وأسى:- أشعر بضيق واختناق ،لا أدري من أين أبدأ كلامي؟، لكني متعبة وأريدُ أن يسمعنِي أحد.

ربتت سمر على كتفها بحب مرددة:- لا عليكِ ، تكلمي حبيبتي، وأنا أسمعكِ جيدا.

هزت أميرة رأسها وشرعت تحكي :- تبدأ الحكاية منذ سنوات ، حتّى قبل ولادتي والدي كان دائمًا يسافر من إيطاليا إلى تركيا وأخيرًا فرنسا ، أنا تقريبًا لم أره أبدًا سوى في الصّور لكنّه يتّصل بنا ويبعث لنا ما نحتاج من أموال وهدايا أنا وأخوتي ، لدي بنتين وثلاث أولاد ، والدي كان يثق بصديقه ، ثقةً عمياءَ يبعث باسمه كلّ الأموال ، كان معنا دائما، في كلّ خطوةٍ ، لدرجة كنا نناديه أبي ، لقد اهتمَ بنا وأعطانا الحنانَ والحبَ والأمانَ ، الّذي حُرمنا منه بسبب سفر والدي وغيابه. فجأةً قرّر والدي العودة والاستقرار، مشاعري كانت عادية ، لم أحزن ولم أفرح ، لكن والدتي كانت حزينة وقلقة ، عندما سمعت الخبر من

صديق والدي ، وقرّروا أن يبيعوا الأرض والبيت ويتركوا البلدَ سريعًا ، أنا وإخوتي تعجبنا، لكن والدتي وعمي ، شرحوا لنا الواقع ، بأنّ والدتي طُلقت غيابيًا من والدي ، لأنّه هجرها من سنين وهرب من رعايتنا وترك لها حمل ثقيل وأنّهما تزوجا منذ عامين. لا أعلم لماذا تقبلنا الوضع هل لأنّه أمر واقع؟!، أم لموت مشاعرنا ناحية والدنا، من جفاء البعد لغياب أبي سنوات طوال ، واعتبار صديقه هو والدنا لأنّه تحمل تربيتنا ومشاكلنا وتعليمنا ، كان معنا في كل موقف ومناسبة ، شاطرنا أفراحنا وأحزاننا، احتضننا حين احتجنا الأمان والحب ، بينما والدي الحقيقّي كان مجرد بنك للتمويلِ ، وعندمَا عاد والدي قامت القيامة وحتّى الآن لم تهدأ، مشاكل و اتهامات لأمّي بالخّيانة والغدر والظّلم، لقد تعبنا وسئمنا من الكلام ، وأنا تعبت كثيرا ، أصبحتُ لا أعلم أين الحقيقة ، أصبحتُ لا أدري أيهما ظالم وأيهمَا مظلوم حقا ، اختلطت عليَّ الأمور، أصبحت تائهة وحزينة أصابني القلق والأرق، وبانتقالنا إلى هنا أشعر بغربة. حُرمت من مدرستي وأهلي وصديقاتي ، وذكرياتي في بلدتنا بجانب نظرات النّاس لنا ، كل من يعرف قصتنا ، يتّهم والدتي وعمّي بالخيانة ، أمّا إخوتي فيقفون معهما، ويرفضون تمامًا مقابلة والدي، بحجة قسوتِه وتركهم وجفاه لهم ،تطور الأمر وزاد سوءً ووصل لإنكارهم لوالدي .

ظّلت أميرة تبكي و ترددُ:- أنا خائفة، حتّى مشاعري تائهة مثلي ،لا أكره والدي ولكن لا أحبّه، وكيف أحبّه وأنا لم أره أبدًا، لم يحتضنني يوما، لم يُقبلني، لم يذهب معي للمدرسة ، لم يعانقني فرحة بنجاحي، لم يكن أبي!، لا أريد من ينصحني، أريدُ فقط من يسمعني ، فأنا متعبة يا أستاذتي ، متعبة جدا.

صُدِمَت سمر ممّا سمعتْ منهَا ، لم ترد بأي كلمة بل احتضنتها وبكت معهَا ، ووعدتها أن تسمعها عندما تحتاج لها، فمن اليوم ستكون صديقتها وأختها .ارتاحت أميرة بعد كلامها مع سمر، وشكرتها على استماعها وتعاطفِها معها.بينما رجعت سمر للبيت حزينة، شغلَ تفكيرَها كلام أميرة، انتبه أحمد لها واستفسرَ عن حالها ، فسردت له حكايةَ أميرة ، وحيرتها مثلها فلا تدري أيّهما المخطئ ، جلس أحمد بهدوء ، وأمسك يد سمر وبدأ يحكي لها بعض القصّص ، مغزاها أنّ الوفاء والخّيانة أشياء نسبية فقد نرى شخصًا خائنًا بينما هو عنوان للوفاءِ، ولا يعلم النّفوس والنّوايا إلّا الله ، فلندع الخلق للخالق ولندعو بصلاح قلوبنَا

وأحوالنا وأحوالهم، ونصيحة يا حبيبتي :- لا تتأثري كثيرًا بكلّ ما تسمعين ،لا أقول لا تساعدي من يحتاجُ وتدعميهم، ولكن لا تجعلي أيّ شيء يغيرُ نفسيتك ويؤثر سلبًا عليكِ، ولا داعي للحيرة حبيبيتي المعلمة الجميلة، فنحن نتعلم ونكتسب خبرات بما نقابله من صعاب ومن تجارب الآخرين.

مرّت شهور تعّلقت فيها سلوى -صديقة سمر- بأحد المدرسين وأحبّته حبًّا شديدًا ، أصبحت تخرج معه ، لم تهتم أن يتحدث النّاس عنها ، كانت منبهرة به بوسامته وشخصيته المرحة ، ظنّت أنّه عوض الله لها، عن سنين الألم والحرمان مع زوجة أبيها ، عاشت أحلام جميلة ، كانت تتصرف كأنّه خطيبها و ارتباطهما موثق، ولكنّها صدمتْ عندمَا جاء إلى المدرسةِ ذات يوم يرتدي بذلة أنيقة وخاتم الخطوبةِ في يدِه والأساتذة يهنئونَه بخطوبتِه، ممّا أصابَ سلوى بصدمةٍ كبيرةٍ.

****

الفصل السابع عشر

حاولت سلوى أن تتماسك أمام الجميع ، لكن شعرت سمر وهالة بألمها، وخافت سمر من انهيارها ؛ فأمسكت يديها لدعمها ومنحها القوة ، عادت سلوى للمنزل لتسمع كلمات زوجة أبيها ، و اسطوانة الإهانات والأوامر الّتي لا تنتهي ، كانت تنتظرها لتعد الطّعام وتغسل الملابسَ، وتقوم بأعمال المنزل وكانت سلوى تصمت وتنفذَ أوامرَها وتتجنب الاحتكاك معها، كان يملأها الأمل بأنّ غدًا أجمل كان الحب يغمرها وينسيها التّعب والمشقة ، كان وجود الحب يعطيها القوة والصّبر لتحتمل ولكن اليوم بعد أن انهارت أحلامها ، لم تسمع أي كلمات منها ، دخلت غرفتها صامتة و مغيبة وأغلقت باب غرفتها وانهارت في البكاء والعويل، أخذت تصرخ وتكتم صرخاتها بالوسادة رافعه صوت الأغاني عاليًا، ليخفي صوت انفجارِها، مرّت أيّام وسلوى تحبس نفسها بغرفتِها بلا طعام ولا شراب ولا نوم.
حاولت سمر وهالة الاتّصال بها لكنها لا تجيب، كانت تتّصل بهشام تسمع صوته وتغلق الهاتف، وتبكي وتتساءل : كيف فعل هذا ؟، كتبت له ألاف الرسائل ولم ترسلها ،لم تستطع إرسال شيء، هل تسأله لماذا غدرت وخُنْت؟، لماذا لم تكن رجلًا ولم توفي بعهودك لي؟، لم تقو على مواجهته ، حتّى فاض بركان ألمها وغضبها واتّصلت به ، وسألته كلّ تلك الأسئلة، وهي تصرخ به وتبكي . فرد بكل برود :- أي وعود تقصدين ؟! لم أعدك بالزواج كانت تجربة حب وفشلت ، لم أستطع الثّقة بكِ، كيف أثق بمن تحدثني ليل نهار، وتخرج معي بلا رقابة ولا خوف من أبٍ أو أخٍ ، بل كيف أثقُ بمن حدثتني عن كلّ ما حدث لها من تحرّش من قريبٍ أو غريبٍ، ما الّذي يضمن لي أنّك ما زلتِ عذراء ؟

تصرخ سلوى وترد منهارة: - ما الّذي تقوله ؟ أيكون ذنبي أن صارحتك و وثقت بك؟ .كنت صريحة حد الغباء اعتبرتك أخي وأبي ووطني قبل أن أعتبرك حبيبي ، ظننتك ملجئي بعد الله ، تخيّلتك طوق النّجاة الّذي سيعيدُ النور لحياتي.

تتعالى ضحكات هشام مرددا : - لا تتقمصي دور الضّحية ، أنتِ لستُ بريئة لهذا الحد ، أعتقد أنّكِ تشجعيهم على التّحرّش بكِ بطريقة لبسك، وإظهار مفاتنكِ، ودلعك وجرأتك وضحكك مع الجميع.

أنتِ فتنة يا حبيبتي وتدعين البراءة، لا أنكر أنّني اشتهيتك وتمنيت أن تكوني لي ولكن الزواج مستحيل.

سكت برهة ثم استطرد : - تعلمين لدي فكرة ، دعيني أتأكد بنفسي من عذريتك، وعندها أعدكِ سأتزوجك دون شك.

تثور سلوى وتغضب، كادت تسب وتلعن معرفتها به وحبها له .

لكنه يقاطعها قائلا : - لا تغضبي، اسمعي الكلام لأخره، سنتزوج عرفي وعندما أتأكد من براءتكِ سأتزوجكِ ،لا تفهمي خطأ، ما رأيكِ بالعرض؟

انهارت سلوى مرددة بانفعال شديد : -أنت حقير، ليتني ما عرفتك ،قد أخطأت لثقتي بك ،أين وضعت نفسي؟! كلّكم حيوانات لا تعرفون المشاعر ولا الحب.

ظلّت سلوى تبكي بعد أن أغلقتْ الهاتفَ وأمسكتْ السكينَ محاولةً الانتحار لكنّها تراجعت ، صمتت طويلا ودموعها تسيل ،وأخذت علبة الحبوب ، وابتلعتها مرّةً واحدةً، ظلّ والدها يدقُ باب الغرفة طويلًا، حتّى أخبرته زوجته بأن يكسره، فوجدهَا ملقاة على سريرها، وبجوارها تلك العلبة ، حملها سريعًا للمستشفى ، وتمّ إسعافها وإنقاذها من موت حتمي لولا عناية الله بها، عندما علمت سمر ذهبت مع هالة لزيارتها ، وعيونهم مليئة بالحزن عليها و بالعتاب لها ، فلا أحد يستحقُ أن تخسرَ دينها ودنيتها من أجله.

لازالت سلوى تتحلى بالقليل من الأمل، أن يأتي هشام لزيارتها معتذرًا لها،كانت تنتظره كلّ يوم وتنظر لهاتفها لعلّه يرن وتسمع صوته، تنظر لصورته وتبكي ، وتقرأ رسائله الّتي يحفظها قلبها، حتى غلبَها اليأس وتوقفت عن انتظاره، لكن دموعها لا تتوقف حتّى جفتْ عيونُها وذبلَت .

مرّ شهران وهي ما زالت بائسة ، بينما هشام أتّم حفل زفافه ، يومها ماتت سلوى قهرًا ودفنت نفسها وقلبها للأبد، وأعلنت ولادة سلوى جديدة قوية وقاسية ، و زادت رغبتها في الانتقام من المجتمع بأسره.رغبة أعمتها وأفقدتها صوابَها وعقلَها ،وسلمت نفسها للهوى واتبعت خطوات الشّيطان، أنشأت صفحة على الفيس بوك ، باسم مستعار بدأت الطّريق إلى

جهنم. تحدث الشّباب وتسامر هذا وتعلقُ ذاك كانت تتسلَى دون مقابل، حتّى تعرفت على صديقات السوء وعرفت الطّريق ، واعتادت أن تمارس الجنس الافتراضي مع الرجال بمقابل مالي يحول لحسابها أو كروت شحن للهاتف ، بدأت كلعبة ثّم أدمنت الموضوعَ ، غرتها الأموال والمتعةُ الزائفة ، أصبحت تشتري ما يحلو لها ملابس و مكياج وذهب، كانت تتزيّنُ وتسيرُ بلا أدب تغري الشّباب بجسدها الفاتن. كانت تتعمدُ أن تسيرَ من أمام المقهى الّذي يجلس هشام فيه ، لتحرّك شهوته وتثير غريزته وندمه عليها، كانت تعلمُ أنّه كالكلب سيلهثُ خلفهَا، لرغبته وطمعِه بمفاتنها وليس حبًا، فمثله لا يعرف الحب، وهي فقدت إيمانها وعقيدتها بالحب ذابت مثلمَا ذابت قيمها ومبادئها، أصبحت لا ترى الرّجال سوى ذئاب تنهشُ النّساء دون رحمة، كانت تعرفه جيّدًا ما أن تُلقي له الطُعم فيركض ويلهث خلفها. في المساء رنّ هاتف سلوى وعندما رأت رقمه تعالت ضحكاتها الساخرة ؛ فرحًا بنجاحهَا في إيقاعه وابتلاعه الطُعم، منحته ما يريدُ بتلذذَ بصوتها وتدللها حتّى أدمن كلامها كلّ ليلةٍ ، وعندما تعلق بها أحست بلذة الانتقام منه فغيرت رقمها. بعدها تعرفت على رجل عمره 45عامًا ، ساذج وطيب القلب، مقيم خارج مصر مثلت عليه البراءة حتّى أوقعته في شباكها، وفتنته بجمالها وسحرها، فعاد ليتقدم للزواج منها ،أمّا هي فلم تحبّه بل تزوّجته طمعًا في ثروته .أغلقتْ هاتفها القّديم ، ووضعته على إحدى رفوف خزانتها الجديدة؛ عازمةً أن تنسى ما مضى وتعيش حياة جديدة ،ظنّت أنّ أموال زوجها ستمنحها السّعادة والحب ،ولكن هيهات أن ترضى وقد اعتادت المغامرة.

سافر زوجُها بعد شهرين من زواجهما، وتركها للملل ينهشُها ، شعرتْ بالوحدةِ، تتّصل بزوجها دائمًا مشغولًا بالعمل، لا يفهمها ولا يجاريها بالحديث، لا د لع ولا هزار ولا كلام حب، كان يكبرها سنًا ويختلف عنها كليا، هو يريدُ الهدوء والاستقرار، ولا يفكرُ إلا بالعمل و الأموال، وهي تريدُ الانطلاقَ والمرحَ والجنونَ والحبَ والمغامرات. صارت تفتقدُ لذة الحياة وتشعر بالملل، تفتح الدولاب لتجدَ هاتفها القّديم ، تتبع خطوات الشّياطين وتفتحُ باب الفتنِ مرّةً أخرى ،تعود بقوة للشات ولعلاقتها المحرمة، وممارسةِ الرذيلة تجرأت وفتحت الكاميرا، ثم تمادت وانجرفت لتمارس الرذيلة في بيوت الدعارة، الّتي تعرفتْ على أصحابِها من النت، لم يكن ينقصها أموال ولا ثروة ، فزوجها ترك لها ما يكفي ويفيض، لكنّها اتبعت

خطوات الشّيطان وسلمت نفسها للهوي لتصبح عاهرة ،بل أصبحت من الجرأةِ بل الوقاحة تُحضر الرّجال لشقتها في الإسكندرية، كان زوجُها قد اشترى لها تلك الشّقة هدية لها العام الماضي، بل الأدهى عندما أرسل زوجها دعوة لزيارته، سافرت لزوجها زيارة لعدة أشهر، كانت تخونه مع الجيران وهو في غفلةٍ من أمره ، حتّى بعد أن أصبحت أم لطفلين توأم منه لم تغيّرها عاطفة الأمومة ولم يُصْلَحْ حالُها أبدا.

عادت سلوى من سفرها تحمل طفلين كالبدر، لكنّها لا تهتم بهما، أحضرت مربّية لهما لتتفرغَ لما تفعلُه، في ذلك الوقت لم يكن الأمر شاعَ بمدينتها، اتّصلت بها سمر تدعوها إلى حفل زفافها. كان قد تّم تأجيل الزفاف عامًا من قبل بسببِ مرضِ حسن و إجرائه عملية جراحية بالقلب.

استعدت سلوى للزفاف لتظهرَ في أبهى صورة ، كانت تعلمُ بحضور هشام لذلك أرادتْ أن تبهرَه لتعيدَه لأحضانِها فقد اشتاقت إليه.

الفصل الثامن عشر

في المساء كانَ حفلًا ملوكيًا في قاعة كبيرة في مدينة الإسكندرية ، أشبه بحفلٍ الأميرات الثّلاث شعرتْ سلوى بغيرة شّديدة فكم تمنتْ أن تتزوجَ من تحب وتعيشُ بأمانٍ و احترام، وتذكرت غدر هشام بها وحالها القذر الّذي وصلتْ له ، بعد انتهاءِ الحفلةِ كانَ العرسان يجهزون مفاجأةَ للعرائس ، لم يذهبوا لعشّ الزّوجية ، بل ذهب كل منهم بسيارته ومعه عروسه لمكان أشبه بالجنّة ، لقد حجزَ كل عريسٍ شاليها بالغردقة، وقد جهز أحمد المكان بالأضواء الخافتة والورود من باب الشاليه حتّى غرفة النوم، أما السرير كان مزّينَا بالياسمين والورود والعطور الفواحة. اقترب أحمد من سمر وطلب منها أن تغلق عيناها، فتح أحمد الباب الخلفي للشاليه، وخرجا معا لتجد سمر على الشاطئ قد جهّز أحمد طاولة عليها الشموع والورود، جلسا يتناولان العشاء ثّم أستأذن دقائق من سمر، بعدها عاد إليها يمتطِي حصانًا أبيضًا طارت من فرحتِها عندما رأتْ فارسها يأتي بحصانه ويحملها بين يديه؛ ليطير بهما الحصان في عالم من السّحر والخيّال، عالم مليء بالحب والرومانسيّة الجميلة كما رأت من قبل في أحلامها .

بعد أسبوعين بالغردقة ، كانت المفاجأة الثّانية ، بعد أن جهزت العرائس الحقائب للعودة للمنزل ، اتجه العرسان إلى المطار، ثّم إلى ألمانيا لإكمال شهر العسل هناك، كان كلّ يوم مفاجأة كأنّه حلم جميل وقصة خرافيّة من الحبِ والسّعادة الّتي لا تنتهي، حتى ورد اتّصال لأحمد في وقت متأخر من والده ، استيقظت سمر مفزوعة وسألت أحمد :- هل الجميع في مصر بخير؟

طمأنها أحمد بحب :- لا تقلقي حبيبتي ، والدي يطمئن علينا فقط، ولكن اختلاف التّوقيت، هو لا يعلم أن الوقت هنا متأخر. ثم قبّلها واحتضنها ، بعد أن تأكد أحمد من نوم سمر، قام ببطء حتّى لا يوقظها وتحدث إلى جاسر، للقيام بترتيبات قدوم حسن لإجراء عملية خطيرة بالقلب ،في الصّباح كان أحمد لا يعرف كيف يخبر سمر، بعد تناول الإفطار ضمها بحب وقال :-

حبيبتي ألم تشتاقي للأهل ؟

ردت سمر بشغف :- بلى ، اشتقت كثيرا لهم ، هل سنعود قريبا ؟

قبّلها أحمد على جبينها وهي تبتسم قائلا :- لا ، لكن جهزتك لكِ مفاجأة ستعجبكِ كثيرا ، سيحضرُ حسن اليوم لإجراء بعض الفحوص مع عمي وزوجته . قلقت سمر ولكن أحمد أخبرها:- أنّها مجرد فحوص للاطمئنان، لا تخافي .

ولكنّها صممت أن تذهب معه للمطار لاستقبال حسن ، حضر جاسر بسيارته، ولم يتمكن أحمد أن يخبرَه بأن سمر لا تعلم بالعمليّة، فاندفعَ جاسر وواسى سمر بأنّ حسن سيقومُ بالسّلامة من العمليّة وألّا تقلق.

انهارت سمر بالبكاءِ ، ممّا أحرج جاسر وشعر بضيق من نفسه ، وحاولَ أحمد تهدئتَها طول الطّريق ولكن دموعَها لا تتوقف، ما أن وصلوا المطار حتّى قفزت سمر خارج السّيارة، مسرعةً لاستقبال حسن ومنال ووالدها ،ملقية نفسها في حضن منال ، منهارة ببكاءٍ شديدٍ ، وبعد لحظات اتجه الجميع للمستشفى لإجراء العمليّة الّتي ظلّت ساعات ، مرّت على الجميع سنوات طوال من القلق والتوتر. وأخيرًا خرجَ حسن من غرفة العمليات سالمًا،ومتجهًا للعنايةِ المرّكزةِ.

حمد الجميع الله على سلامة حسن وطلبتْ منال من سمر أن تعودَ للفندقِ لترتاحَ مع زوجها، رفضت سمر ولكن بعد إلحاحِ والدها ومنال ذهبت على مضضٍ وخلدوا إلى النوم بعد يومٍ مرهقٍ. في الصّباح اتّصل جاسر بأحمد ليتّأكد من إتمامِ حجزِ العمرة الّذي أعدها مفاجأة لسمر، وبأن موعد السّفر بعد الغد ولكن أحمد لا يعلم بما يخبره هل يلغي الرحلة أم ينتظر رأي سمر، ظلّ فكره شاردًا طوال اليوم حتّى انتبه والد سمر له فأخذه جانبًا بعد صلاة المغرب وسأله عن ما يشغله؛ أخبره أحمد بالأمر، فنصحه بالذّهاب ستكون رحلةً ممتعةً وسترتاحُ سمر هناك كان حلمها دومًا العمرة والذّهاب لبيت الله، وستكون فرصة للدعاء لحسن.

كانَ أحمد مقتنعٌ ولكن يخافُ أن ترفضُ سمر، فاتجه والدها وأخذَها وتحدث معهَا في حضور منال وأحمد ، تعجبَت سمر ممّا تسمعُ هل تفرحُ بزيارةِ الكعبة ، أم تحزن لأن الوقت لا يسمح ، فكيف ستترك أخاها بحالته هذه وتذهب ،

أخذت منال ووالدها يقنعانها بالذّهاب بينما ظّل أحمد صامتًا ينتظرُ رد سمر الّتي وافقت بعد عناء، فرح أحمد بقرارِها واتّصل بجاسر مؤكدًا الحجز، في الصّباح عاد جاسر لوعيه، واطمأنت سمر عليه وسلمت على الجميع و اتّجهوا للمطار ومعهم جاسر وسامي وزوجتهما ساره ومايا.

بكت سمر من شّدة فرحتِها بمنظر الكعبة، وخرّ أحمد والشّباب ساجدين شكرًا لله ، كان الدعاء الأكبر من الجميع من نصيب حسن ، وكانت سمر تتحدث لمنال ووالدها كل يومٍ لتطمئن على حسن.

بعد أداء شعائر العمرةِ عزمت سمر أن تؤدي العمرة لوالدتها رحمها الله ، وقرّر الباقون أيضًا عمل عمرة لها ، مما زاد سعادة سمر، فما أجملَها من هديةٍ لوالدتِها ، ست عمرات لروحها الغالية.

عادَ الجميع إلى مصر بعد رحلة روحانية رائعة، في الوقت نفسه عاد حسن بعد أن تحسنَ كثيرًا، لكنّه سيذهبُ لألمانيا كلّ ثلاث شهور للمتابعة الدورية، وعادت الحياة لاستقرارها بمنزل العائلة.

بعد أيام من العودة اتّصلت سمر بصديقاتها سلوى وهالة و معلمتها هيام ، وطلبت منهم القدومَ لمنزلِها ليجتمعوا فقد اشتاقَت لهم كثيرًا.

اجتمعتْ سمر بهم بسعادةٍ وفرحٍ ، ولكن هالة كانت حزينة فقد تأخر زاوجها؛ بسبب رفض والدها ابن عمّها لخلافات بين الأسرتين لكنّها تحبه وتدعو الله أن يحققَ حلمَها به، وقد طمأنتْها سمر وأخبرتْها بأنّها دعت لها كثيرًا في العمرةِ. أمّا هيام تعيشُ في هدوء على ذكرى حبيبها رحمه الله وتعتبر أولاد إخوتها أولادها وتساعد بتربيتهم بكلّ حبٍ ورضا ، بينما سلوى تغيّرت كثيرًا وأصبحت تتباهى بالملابس الفاخرة والمجوهرات، والذّهاب لإنجلترا والرّحلات هنا وهناك ولا تبالي بأحد غير نفسها ،لم يكن أمرها كُشف بعد ، ففي بلدها لا تمارس الرذيلة جهرًا فهي حريصة على سمعتها هنا. حتّى هشام يطاردها في كلّ مكان، ولا تعطيه أي اهتمام بل يزداد عنادها، وعدم الرّد علي مكالماته أو رسائله بقصد إهانته وإذلاله و الانتقام منه ، فهي تتّلذذ بتجاهلها له،حتّى فاجأها ذات ليلة ووجدته يدقُ بابَ

منزلها ، ظلت دقائق مرتبكة لا تعرفُ هل تفتحُ له أم لا،خافت أن يثورَ جنونُه ويراه الجيران ففتحتْ مسرعةً ،وأدخلتْه غاضبةً من تصرفه ومستنكرة قدومه إليها. لكنه خرّ راكعًا تحت قدميها ، وباكيًا معلنًا شوقه وحبّه لها و استعداده أن يفعل أيّ شيء لترضى عنه، أمّا سلوى فقد أشفت غليلَها وأرضتْ غرورَها أخيرًا معتقدةً أنّها انتصرتْ في حربِها وانتقمتْ منه.لكنّه اقترب منها و ما أن أحست أنفاسه حتّى ارتعش جسدُها وضعفت أمامَه ، وسلمت نفسَها دونَ مقاومةٍ منها؛ لتعيشَ معهُ أجملَ لحظاتِ الحبِ الّتي طالمَا حلمت بها متناسية جرحه لها والكره الّذي ادعته من قبل ورغبتها في إذلاله وكأنّها مغيبة. لكن بعد أن استردت وعيها انهارت في البكاء ، ليس ندمًا على المعصية ولكن لاستسلامها لهشام ، وضعفها أمامه و استمتاعها بحبّه وشعورها بنشوة لم تحسها مع غيره ، فأيقنت أنّها ما زالت تعشقه ، أخذ هشام يهدئ من روعها ويحتضنها بحبٍ ،ولكنّها طلبت منه بغضب، أن يغادرَ فورًا .

****

الفصل التاسع عشر

ظلّت سلوى تبكي ، بينما اتّصل هشام بها عدةَ مرّاتٍ ولم ترد عليه، كانت تشعرُ بالّضيق لضعفها أمامه وحبّها له ، ظلّت أيّام لا ترد على اتّصالاته أو رسائله، حتّى قرّرت نسيانه كلّيًا ،وبدأت تستقبلُ رجالًا آخرين في منزلها و تجاهلتْ زوجها وأهلها وجيرانها، وانجرفت وراء وساوسها الشيطانية، ورغبتها في الانتقام من هشام ،التي غشت على بصرها وغيبت عقلها لتضيعَ شرفهَا وسمعتَها وتحرق الأخضر واليابس بنيران انتقامها، صار أهلُ المدينة يتحدثون عنها وذاعَ صيتُها في البلد من سوء سمعتها وتصّرفاتها، وأنّها حولتْ بيتَها لبيت دعارةٍ،ممّا أغضبَ أهلَ زوجِها فأرسلُوا إليه ليحضرَ من الخارجِ ؛ ليطلقَها بعد ما ألحقت بهم العارَ و الفضيحةَ .

أصبحتْ سلوى لا تبالي بأيّ شيء، حتّى جاءَ هشام إليها ذات ليلة، وظّل يدقُ الجرسَ دقاتٍ متتّاليةٍ ويطرق الباب بغضبٍ، فتحتْ سلوى غاضبةً: - ماذا تريد ؟! انصرف حالا، ولا تأتي إلى هنا مرّةً أخرى.

كادت تغلقُ الباب بوجهه، لكن لم تشعر إلّا به داخل المنزل، دفعها وصفعَها على وجهها، نظرتْ له مصدومةً ؛ بفعلته هذه سكبَ على نارِها زيتًا ليزيدَ اشتعالها وتشيطَ غضبًا منه، اقتربت سلوى من هشام وأمسكتْ به غاضبة :- بأيّ حقٍّ تضربنِي هكذا لم يفعلها زوجي ؟!

أجابها هشام منفعلا: - لأنّه ليس رجل، لو كان رجلا لمنعكِ عن نزواتكِ وانحرافكِ ،ماذا تظّنين نفسكِ فاعلةً ؟؟،

أهلُ البلدةِ لا يتّحدثون إلّا عنكِ ،وعن أفعالكِ المشينة، أصبحتِ عاهرةً.

هنا تعالتْ ضحكاتُ سلوى بهسترية وصفقت بيدها مرددة :- شكرًا على المعلومةِ يا عزيزي، نعم أنا عاهرة ، وأنت من أوصلني لهذا ألّا تتذكر ؟؟،

يوم أعطيتنِي ظهرك واتّهمتني بالباطلِ، واليّوم أحقق لك ما حلمت به، نعم أصبحتْ عاهرةً ،ما الّذي يهمك اتركني بحالي وابتعد عني، ليس لك حقوق عليَّ ، ولا لك أن تتّدخل بحياتي .

انهار هشام ممسكا بها بقوة ومرددا: - إن لم يكن يهمني ما جئت إليكِ يا غبية، أنا أحبكِ ،ولم أحبَ غيركِ أبدًا،ولم أنسكِ ، تزوجت مرّتين ولم أجدْ النّشوة والحب إلّا في حضنِكِ ومعكِ.

أخذتْ سلوى تضحكُ وتضحك بهستريةٍ ثّم قالت بسخرية: - تحبني ؟! متى وكيف؟، وقد ترجيتك قبلَ ذلك ألّا تتركني و أنت أهنتني وجرحت قلبي ، ورميتَ حبّي ومشاعري تحت قدميك ،ولم تبالي بألمي لقد قتلتني ألف مرّة،أنتَ من جعلتنِي أتزوج شخص لا أحبّه ولا أعرفه، أنتَ لا تعرف أيّ ألمٍ يعتصرُني عندما يلمسني بيده أو يقترب مني ، إنّه انتحار وموت أن تتزوج ممن لا تحب ، تكون معه بجسدك بينما روحك وقلبك في مكان أخر، وتلك كانت بداية العهر يا عزيزي. لقد اشتراني بثروته ، حاولتُ أن أحبّه مرارًا ولكن دون جدوى، كان يشعرني أنّه يغتصبني كلّ مرّةٍ يجمع بيننا فراش واحد، أصبحت أحتقر نفسي وأمقتها، فقرّرت الانتقام لكرامتي منه ومنك ، ومن الجميع . ولكنّي انتقمتُ من نفسي ساءت سمعتي، وأصبحت في نظر الجميع سيئةَ السمعةِ ،ولكن عندما كنت معك شعرت بأنوثتي الحقيقية ولامست أنثايا العاشقة وعادت للحياة المرأة داخلي ،عادتْ مشاعرِي وأحاسيسي الّتي دفنتها منذُ زمنٍ بعيدٍ ،وشعرت بضعفي بحبك، فابتعدت وقرّرت الانتقامَ منك ومن نفسي على هذا الحب اللّعين ليتني ما عرفتك ليتني ما التقيت بك أبدا.

اقترب هشام منها وأخبرها أنه هو الأخر يحبها ،نظرت سلوى له بسخرية وقالتْ :- بالماضي رفضتني وأنا شريفة و الآن تأتي إليَّ وأنا عاهرة تتمنَى حبِي وقربِي، يالا سخريةَ القدرِ، لا أدري هل أفرح أم أحزن ؟!.

في هذه اللّحظة اقتربَ هشام منها واحتضنها بعمق ، فشعرت برعشةٍ جسدها، وذابت بين أصابعِه في عالم الحبِ والعشقِ الّذي لا تستطيعُ مقاومته أو تجاهله، لكنّها استيقظتْ على دقاتٍ مفزعةٍ ومتتاليةٍ على بابِ المنزل. فتحت الباب لتجد زوجها وأهله ، كان ضعيفَ الشّخصية أمامَها ، حتّى بعد أن وجد هشام، لم يضربْها أو يغضبْ لشرفه، بينمَا تعالتْ أصواتُ أخوتِه وأخواتِه ،سبًا وقذفًا وإهانةً ، أمّا سلوى فلم تسكتْ رغم خطئِها ، بل ردت كلّ إهانة بأضعافها أمام زوجها، ورغم طلبِهم بأن يطلقَها بكى وتردّد، فهو يحبها ولا

يتّخيل عدم وجودها بحياته. ظلّت سلوى تضحك وتسخرُ منهم بل طالبت بالطّلاق بملء إرادتها فلم تعدْ تطيقُ حتّى أنفاسَه ، وتّم الطّلاق وتنازلت عن كلّ شيء إلّا طفليها، سيظّلان معها حتّى انتهاء سنّ الحضانة القانوني.

خرجت سلوى ولم تبالِ بكلامِ النّاس وكان هشام ينتظرها ، حيث اشترى لها شقةً فاخرةً تطّلُ على البحر في الإسكندرية، لتبدأ حياتهما الجديدة بعيدا عن المدينة التي اشتهرت فيها بسوء سمعتها.

لم يكن يهمها شيء لكن تذكرت فقط صديقتيها سمر وهالة فهما من أحبتهما بصدق هنا، وتمنت لو رأتهما مرة أخيرة وودعتهما.

****

الفصل العشرون

بخروجِ سلوى وهشام لم تنته المسرحية، بل بدأ فيلم جديد، فقد أصبحت فضيحة كبيرة وحديث المدينة لمدةٍ طويلةٍ، علمت سمر بالأمر حزنت حزنًا شّديدًا على صديقتها، وتحدثّتْ إلى هالة الّتي استنكرتْ فعلةَ سلوى وأدانتها، ودعت لها بالهدى وأن ينير الله بصيرتها.

في ذلك الوقت توفيّ والد هالة وبعد شهر من وفاته قرّر أخوها، أن يعلنَ خِطبَة هالة من ابن عمّها ليفرح قلبَها الحزين، الّذي انتظر الفرحةَ طويلًا لتجتمعَ أخيرًا بحب عمرِها بعد حرمان سنينَ طوال بسبب تعنت والدها ورفضه، بعد شهور تّم الزّفاف لتبدأ هالة حياةً زوجيةً تأخرت كثيرًا، ولكن كلّ شيء بقدرٍ و وقتٍ فقد عوضها الله وحملت بثلاث توائم مرّةً واحدةً وأنجبت بعد تسعة أشهر ثلاث أولاد ، أرسلت لسمر صورها معهم لأنها انتقلت إلى السعودية مع زوجها بحكم عمله هناك ، لكنّها على تّواصل دائم مع سمر، فرحت سمر لها، ووعدتها بالزّيارة عند قدومها للعمرة قريبًا ،فكلّ عامٍ كانت سمر تذهبُ للعمرة ، وتدعو الله أن يرزقها ، بطفلٍ يقر عينها وزوجها و يكمل سعادتها ويملأ فراغ حياتها ، شعر أحمد أنّها حزينة فجلس يحدثها عن عطايا الله وقدرته و عن الصّبر والرضا لأنّ الخير فيما يختاره الله ، وأن تعتبره ابنها تدللـه و تعطيه الحنان وجلس على حجرها يمازحها ممّا أضحك سمر، بعدما كانت حزينة ، فقد كان له القدرة على تحويل دمعَها لضحكات وحزنها لسعادة ، فهو النّعمة الّتي تحمد الله وتشكره عليها ليل نهار.

في هذا الوقت قد قرّر حسن إكمال دراسته بألمانيا ، ليتمكن من متابعة الطّبيب بصفةِ دوريةٍ بينما حسين اكتفى بالمعهد لعامين وفضل مزاولة التّجارة مع والده وعمّه فلم يُغْرِهِ السّفر خصوصًا أنّه تربطه علاقة حب بجارته كانت عمتها هيام معلمة سمر ويود الارتباط بها بعد الانتهاء خدمته بالجيش.

أمّا سلوى وهشام فخناقا تهّم لا تنتهي كلما فتحت سلوى موضوع الزّواج ، تحجج هشام بألفِ حجة فهو يحب الحّرية ويماطل سلوى فحياته رحلات وسهرات وليالي أنسٍ لا تنتهي ، وطالما سلوى معه ، لماذا يفكر في الزواج والمسئولية ، يتغير حال سلوى ويسيطر عليها

الحزن كلما فكرت بحالها وعلاقتها بهشام فهي تحبه بشّدةٍ ، ولا تقوى على فراقه ،ولكن أين ذهب وعده لها بالزواج ؟

كانت دائما نقطة الشجار والخلاف بينهما ، بينما كان هشام يراوغ بمكِر، وتستسلم له سلوى فضعفها أمامه ليس له حدود وعشقها له أنساها كلّ شيء، فهي تتبعه بلا عقلٍ وتهواه بجنونٍ، لقد ملك عليها عقلها وقلبها ونسيت حتّى أطفالها وأهملتهم وتركت رعايتهم للخادمة كانت تمنحهم فقط ساعتين كلّ أسبوع تذهب معهما للنادي، ولكن ذلك اليوم كانت متعبةً جدًّا من السّهر. استيقظت بصداع أفقدها توازنها وكاد رأسها ينفجر فأعلت بحتها صارخةً بوجه بهشام ،الّذي ترك المنزل غاضبًا وترك سلوى منهارةً،

أحضرت الخادمة لسلوى بعض الحبوب ، الّتي اعتادت أن تعطيها لها كلّما شعرت بالصّداع ، وطلبت منها أن تصطحبَ هي الأطفال للنادي ، فوافقت سلوى دون تردّد ، كان همها أن تنام وتستريح من الألم، خرجت الخادمة مع الطفلين ، بينما نامت سلوى نومًا عميقًا ،واستيقظت إثر وصول هشام ،الّذي جلس بجوارها مداعبًا لها ، معلنًا اشتياقه لها فلم تستطع مقاومته وذهبت إلى عالمه، حيث السّحر والهيّام ناسيةً ما يدور حولها، حتّى طفليها نسيتْ أن تطمئنَ عليهما، في الصّباح ذهبت سلوى لتطمئن على الأطفال فلم تجدهما بالغرفة، نادت على الخادمة فلم تسمع ردًا ولم تجد الخادمة ، ظنّت أنّهم خرجوا لشراء الطّلبات معها ،مرّت ساعات بدأت سلوى تقلق، فأيقظت هشام وأخبرته بما يحدث ، فاتّصل بالخادمة وجد هاتفها مغلقًا ،يمرّ الوقت وسلوى يزداد قلقها ، حتّى انهارت وطلبت من هشام إبلاغ الشرطة ، فاتّصل بضابط صديق له وأخبره بالأمر، كان قلق سلوى وصل أقصاه ، وبدأت تشعر بالصداع مجددًا، فذهبت كالمجنونة لغرفة الخادمة تبحث عن الحبوب ، فصُعقت عندما رأت علبة الدواء فارغة، بينما هشام تبعها ووجد في يدها هذه العبوة أخذها بعنف منها، وصرّخ في سلوى : - أنّها مخدرات يا سلوى ،منذ متى وأنت تتعاطين هذا ؟.

انهارتْ سلوى عندما علمَتْ حقيقة الأمر، وأخبرتْه بأنّها لم تكن تعلم أنّها مخدرات ظنّت أنّها للصّداع وأخذت تسّبُ الخادمةَ اللّعينةَ ،وتذكرت أطفالها كيف تركتهم للخادمة ووثقت بها ،ماذا فعلت بهم طالما نواياها سيئة؟ ، ظلّت تدعو أن يعود الأطفال سالمين، وهشام يحاول

الاتّصال بها مرارًا دون رّدٍ ، حتّى ورد اتّصال من رقمٍ مجهولٍ يبلغهم أنّ الخادمة والطفلين غادروا مصر وأن ينسوا أمرهم. ويشكرهم عل تعاونهم ، مع أكبر عصابة لخطف الأطفال في الشرق الأوسط ، ما أن سمعت سلوى المحادثة ، انهارت وظلت تكسر الأشياء من حولها ، حتى سقطت على الأرض ، أصاب هشام في ذهول مما يحدث ، فأحضر الطبيب وأعطى سلوى العلاج اللازم ، ووصف المهدئات لما أصابها من انهيار عصبي ، بينما هشام أبلغ الضابط بالمحادثة ، وحضر إليه لأخذ أقواله ، ومحاولة التحري أو الوصول إلي معلومات توصلهم لمكان الأطفال ، أيام مرت بين انهيار سلوى ، والبحث والتحري دون جدوى ، لقد أيقنت سلوى فقدها أطفالها بسبب إهمالها ، وزادت حالتها سوء خصوصا إدمانها للمخدرات ، الذى منعها هشام عنها، وحبسها حتى لا تخرج أو تسبب الأذى لنفسها.

كلما استردت وعيها يعطيها المهدئات لتنام ، فلقد تعبت أعصابه مما يحدث ، وبدأ يمل من الحزن والمشاكل ، فأحضر أصدقائه وصديقاته للسهر معه ، وتناول الخمور والموسيقي دون مراعاة لشعور سلوى.

أفاقتْ سلوى وصُدمتْ عندما رأتْ هشام في أحضان غيرها ، وهنا أمامها دون خجلٍ، ولا مراعاة اختفاء أطفالها وحزنها،ظّلت تصرخُ حتّى ضربها هشام وعنفها وأعطاها المهدئ ليخلص منها،أشارتْ عليه صديقتُه أن يضعها في مصحة، ويريحَ نفسَه من هذا العناء، فاتّصل بأحد معارفه وحجز لها في مصحة علاج للإدمان ، بكت سلوى وترجته ألا يفعل وتشبثت به بشدة ، لكن قلبه تحجر، وأخذها عنوةً للمستشفى كأنّه يتخلص منها، وقام ببيع سيارتها لدفع مصاريف المستشفى ، وعندما نفذت الأموال ؛ بحث عن مجوهراتها لبيعها فلم يجدها، لقد سرقتها الخادمة أيضًا ،فتوقّف عن زيارة سلوى فلا يريد أن يخسر أمواله على مدمنة لم تعد تعني له شيء، فأعطى هاتفها للممرضة ، وطلب منها أن تتّصل بأحد أقاربها، اتّصلت بأرقامٍ عديدةٍ الكلّ ينكرُ معرفته بها،أمّا زوجها فرفع قضية إهمال عليها ،لإهمالها الأطفال وضياعهم. ظلّت الممرضة تشفق على حالها وتتّصل حتّى وصلت لرقم سمر ، ترددت سمر في الرّد لم تعتد أن ترد على رقم غريب لكن كأنّ شيء ما تزعزع داخلها فشعرت بأهمية الأمر فردت سمر وسمعت القصّة من الممرضة التّي ترجتها أن تهتم

فغدًا ستُطرد سلوى ما لم تدفع وحالتها سيئة جدًّا حتّى أنّها حاولت الانتحار عدّة مرّاتٍ منذ أن قطع هشام زياراته.

****

الفصل الواحد والعشرون

أغلقت سمر الهاتف بعد أن وعدت الممرضة بالاهتمام بالأمر، وإرسال الأموال المطلوبة للمستشفى ولكن المشكلة الآن أحمد، تساءلت فيما بينها: هل أخبره أم لا ؟، فلم اعتاد أن أفعل شيء خفيةً عنه ، دائما اشاركه قراراتي واشاوره في كلّ أمرٍ.

ظلّت ساعات تفكر وأخيرًا خرجت بقرار إرسال الأموال بحوالةٍ بريديةٍ على حساب الممرضة مرددة لنفسها : لا ضرورة للنقاش مع أحمد ، فسلوى تحتاج للمساعدة رغم جريمتها إلّا أنّها في حاجة إليَّ، فهي الآن في أزمةٍ نفسيةٍ وماديةٍ وتحتاجُ الدعمَ .لم اعتد على رد السائل أو الامتناع عن مساعدة من يحتاج إليّ، فما بالك بمن كانت جارتي وصديقتي ذات يومٍ. إنّه وقت المعاونة وليس المحاكمة ، يكفي عقاب الله لها وحرمانها من أطفالها.

ظلّت سمر تبرر لنفسها حتّى لا تشعر بالذّنب ، رغم ذلك لم ترتاح وظلّت أيّامًا هكذا، واتّصلت بمعلمتها هيام أخبرتها الأمر لعلّها تتخلص من شعورها بالذّنب حيال أحمد ، لكنّها عنفتها وأصرّت عليها أن تخبره . كانت سمر شاردة فلاحظ أحمد شرودها و سألها مطمئنًا عن السبب تردّدت سمر وأنكرت في البداية ، ولكن هذه اللّحظة وردها اتّصال من الممّرضة وأحمد بجوارها ، فلم تعرف هل ترد أم ترفض الاتّصال، فردّت عليها لتخبرها بهروب سلوى من مركز العلاج .

حزنت سمر وأخبرتها أن تبلغها ، إذا علمت أي خبر عنها، بينما أحمد يستمع لحديثها ، نظر لها نظرة استفسار فأطلعته بالأمر راجيةً أن يسامحها ويقدر ما فعلت ، لم يكن من عادة أحمد الغضب أبدًا ، خصوصًا مع زوجته وحبيبة قلبه، لكن هذه المرة غضب أحمد جدّا من سمر واستنكر عليها عدم إخباره، وتصرفها دون علمه، فلأوّل مرّةٍ تخفى عنه شيئًا، وأخبرها أنّه يقدر حاجة سلوى للمساعدة ، ولا يلومها ولكن ما أغضبه أنّها تصّرفت دون استشارته وطلب منها ألّا تتصرف مرة أخرى في أي أمر دون علم؛ اعتذرت سمر منه ثمّ أخذ منها رقم الممرضة ليتّصل ويفهم كل شيء ، ويخبرها أنّه زوج سمر وأن أيّ اتّصال

سيكون معه هو من الآن. مرّت ساعات وصلت سلوى لشقة هشام ، لازال معها مفتاح الشّقة فتحت ودخلت لتجده في أحضان فتاةٍ أخرى،فلم تشعر إلّا وهي تكسرُ زجاجات الخمر وتتجه للمطبخ تحضرُ سكينةً وتحاول قتلها ، بينما هشام يمسكها ويمنعها ويتهمها بالجنون ،تنهار سلوى وتبكي مرددةً :- نعم أنا مجنونة لأنّي أحببتك وضيّعت نفسي وأطفالي بسببك . تصرخ سلوى بينما هشام يفاجئها بضربة على رأسها، لتهدئتها بعدما نفذ صبره وخاف أن يفُضح بين جيرانه ،غابت سلوى عن وعيها بعدها ، ثمّ اتّصل هشام بالمستشفى يبلغهم بحضور سلوى له ومحاولة قتله ، وأن يحضروا لإعادتها فورًا،ما إن علمت الممرضة ،حتّى اتّصلت بأحمد وسمر لإبلاغهما بالأمر.وهنا أوصى أحمد الممرضة بالاهتمام بسلوى وهو سيرسل لها الأموال اللّازمة لعلاجها ورعايتها ، نظرت له سمر برضا وحب ، فهي تعلم رحمته وعطفه على المحتاجين ، اقتربت منه وشكرته ، ثمّ اقترب هو أكثر وقبّلها برقة ، قائلا -:

الشكر الشفوي لا يصلح معي وحملها

همس أحمد لها :- أخبرتهم أنّ هذا اليوم لدي عملًا هامًا، وأنّ الحفل سيكون غدًا، بيده ،غلطتك كبيرة ولها عقاب أكبر، ظلّت سمر تصرخ به وتترجاه أن ينزلها وتسأله ؟ إلى أين تأخذني؟

ما إن وصلا سطحَ الفيلا أنزلها أحمد وضغط على جهازٍ صغيرٍ في يده ، فإذا بألعابٍ ناريةٍ وبالونات تتعالى وترسم في الفضاء كلمة - عيد ميلاد سعيد سمر- تتذكر سمر أنّه يوم عيد ميلادها تبتسم من المفاجأة الرائعة وتحتضن أحمد الّذي التف حولها ، ويرقصا معا تحت السّماء الصّافية في جوٍ من الرومانسية على ضوء الشّموع وحولهم الورود من كلّ لونٍ ،ولم ينس أحمد أن يحضر الكعك المفضل لها، سألته سمر ولكن أين الجميع ؟!، ألم تخبرهم بالحفل ؟

هذا العام أردته مختلفا أردت أن يكون حفلًا خاصًّا بنا، وغدًا حفل عائلي آخر بمنزل والدك .

ابتسمت سمر بفرح ، فلم تجد كلمات تعبر بها عن سعادتها لمفاجأة أحمد ،أمّا هو فاقترب منها وقبّلَها برقةٍ ،كان دائما يعاملها كوردة يخشى عليها من الذبول يلمسها برفقٍ ويرعاها بحبٍ ، ثمّ قبّلَ يدها وقدّمَ لها هديتَها ،احتضنته سمر وأخبرته أنّه هديتها الّتي تشكر الله عليها دومًا، منحها الله زوجًا وأخًا وأبًا وصديقًا وحبيبًا لن يكرره الزمن فهي تكتفي به عن العالم كلّه،أّصرّ أحمد عليها أن تفتح الهّدية، فإذا به ورق الحجّ نزلت دموع سمر من فرحتها ، فقد فاتتها عمرة رمضان هذا العام بسبب مرضها وحزنت بشّدة وقتها، فالحمد لله عوضها الله خيرًا بالحّج و مما زاد فرحها لما علمت بأنّ والدها ومنال ووالد أحمد ووالدته، سيكونون معهم في الحّج هذا العام أن شاء الله تعالى، ظلّت سمر تشكر الله وتحمده ، ونامت قريرة العين وهي تحلم بهذا اليّوم الّذي ستحج فيه بيت الله ،وتتمني أن يمر هذا الشهر سريعًا، قبل سفرها استأذنت أحمد بزيارة سلوى، فوافق على مضض وذهب معها، فرحت سلوى بها ودعت لها كثيرا وتمنّت لها السّعادة والخير.

بهذه الزّيارة دبّت الحياة بسلوى ومنحتها الأمل من جديد، وتحسنت نفسيتها وصحتها كثيرًا، وأوصت سمر أن تدعو لها في الحّج بالصّبر وبرجوع أطفالها لحضنها ،ويعينها على فراقهما .

مرّت الأيّام وسافر الجميع للحّج ملبيين نداء الله، ومرددين لبيك اللّهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك ، إنّ الحمد والنّعمة لك والملك لا شريك لك.

مرّت أيّام الحّج وعادوا بسلامٍ، وتحددَ موعد زفاف حسين وعاد حسن من ألمانيا مع جاسر وسارة وحضرَ سامي و مايا أيضًا ،وتجمّعت العائلة في البيت الكّبير مما زاد سعادة سمر،فهي تعشق هذه اللّمة والروح و الدفء و الأحاديث الّتي لا تنتهي مع سارة و مايا وأحاديث الكّبار، ولعب وضجة الصّغار حولهم ،كلّها أجواء تمنحها الحياة وتمدها بالأمل والسعّادة، فهي تعتبرها إكسير الحياة لا تقوى على العيش بدونهم؛ عائلتها هي روحها ونبض قلبها ،الّذي يتدفق دوما لذلك كانت دائمة الدعاء بأن تنجب أطفالًا وتُكَّونَ أسرةً كبيرةً ،فعشقها للّمة والدفء العائلي أمنية لا تتوقف عنها ، فالبيت بلا أطفال مقبرة لا تقوى على البقاء فيها، مهما حاولت النّسيان لكن بداخلها مشاعر الأمومة والرّغبة الجامحة لاحتضان

طفل يحمل اسم زوجها و حبيبها، ويتوج به حبهما و يملأ حياتهما سعادةً وفرحًا فهي أمنيتها الّتي لا تكف عن الدعاء، والأمل في الله أن تتحقق يوما. تكررت زيارة سمر وأحمد لسلوى لثلاثِ مراتٍ، لكن آخر مرّةٍ تعبت سمر طوال الطّريق، وتألمت جدًّا على غير عادتها ممّا أقلق أحمد، وأصّر على الذّهاب للطّبيب ليطمئن على حبيبته وكانت المفاجأة.

****

الفصل الثاني والعشرون

لقد أخبرهم الطّبيب بأنّ سمر حاملًا منذ شهرٍ ونصف تقريبًا، ما إن سمعوا الخبر حتّى خرَّ أحمد ساجدًا شكرًا لله ، وطارت سمر من الفرحةِ و احتضنت أحمد ، ونسوا وجود الطّبيب الّذي أعلن ضاحكًا:- نحن هنا .جلس أحمد وسمر أمامه وهما يستمعان للتعليمات بإنصاتٍ وحرصٍ وشغفٍ وفرحةٍ عارمةٍ ،ما إن خرجا من عنده حتّى تعانقا مرّةً أخرى ناسيين كلّ من حولهما ، فأخيرًا تحقّق حلمهما بطفلٍ يتوج قصة حبهما ويملأ حياتهما سعادةً بعد سنين طوال،اتّصل أحمد بوالدته وأخبرها وهي بدورها زفت الخبر لمنال الّتي أعلت الزغاريد فرحًا بالخبر السّعيد، وذهب الجميع لسمر وأحمد مهنأين ومباركين لهما ومتمنين أن يتِمَ عليهما نعمته ويرزقهما مولودًا معافى.

تبقى منال مع سمر لرعايتها فقد منعها الطّبيب من المجهود والتّعب وأمرها بالرّاحة التّامة؛ فأصبحت ملازمة الفراش تتحرك بحذرٍ وحرص ، وتوقفتْ عن زيارة سلوى بسبب تعبها ، أصبحت تتّصل بها كلّ أسبوع لتطمئن على صحّتها وأحمد يرسلُ لها ما يلزمها من أموال.

تمرُ شهور ويزداد معها تعب سمر أصبحت لا تنام ولا تقوى على الحركةِ، وتتنفس بصعوبةٍ مما يزيد قلق أحمد فطالما خاف على سمر من الحمل وتعبه وتذكر والدتها وزاد قلقه، فدائمًا كان يعتبر عدم حملها نعمة من الله ورحمة بهم ، لخوفه أن يصيبها ما أصاب والدتها.

زاد تعب سمر في الشّهر السابع وأصيبت بسكر الحمل، لكن الطّبيب يطمئنهم بأنّه أمر عارض ويحدث للكثيرات، يصّر أحمد أن يعرض سمر على أكثر من طبيبٍ ،يجري لها فحوصًا هنا وهناك لكن مع الأيّام تتعب سمر ويزداد خفقان قلبها، تحتاج مستشفى عالية الدّقة للولادة لتعسرها، فوضع الجنين غير طبيعي وسيحتاج لحضانةٍ فورَ ولادته، وحالة سمر غير مستقرةٍ وتحتاجُ لتنفس اصّطناعي وأجهزة خاصة لكن الوقت لا يسعهم للسفر للخارج ، اتّجهوا بها لمستشفى كبيرة بالإسكندرية ،مرّت ساعات من القلق والتوتر على أحمد والأهل، ثم وضعت سمر طفلتها بسلامٍ، ونقلت الطّفلة إلى الحّضانة وسمر تحت

الملاحظة ،صلى أحمد شكرا لله على سلامتهما داعيًا أن يبارك الله له بهما، ويتِمَ عليهما السّلامة والعافية.

استقر وضع سمر بعد أيّامٍ ،ودخل الجميع للاطمئنان عليها ،عادت سمر مع طفلتها زهرة للمنزل. أما أحمد فقد ذبحَ الذبائحَ ووزع على الجميع وأقام عقيقةَ كبيرة للأهل والأصحاب والجيران ،وتمَّ تعليق الزّينة والورود هنا وهناك ،فرحًا بسلامةِ سمر وزهرة ،وتذّكر أحمد يوم حفلة مولد سمر وابتسمَ لتلك الذكّريات الجميلة، رحب أحمد ووالده بالضّيوف، بينما لاحظ أحمد القلق على وجه سامي، فهو ليس صديقه فقط بل ابن خالته وأخيه و رفيق دربه، فأخذه جانبًا واستفسر منه، لكن سامي أنكر وتعلّل بتعبه وإجهاده من العمل .تذكر أحمد أنّهما لم يلتقيا منذ شهور لتعب سمر وانشغاله بها. فتركه أحمد رغم علمه، ويقينه بأنّ هناك خطب ما، تمنى أن يكون خيرًا. مرّت الحفلة على خير بعد انصراف الجميع صعد أحمد لغرفة سمر وزهرة ،ما إن حمل أحمد زهرة تذكر اليّوم الّذي حمل فيه سمر وهي مولودة جديدة وانتابه الشعور نفسه، فسبح لله وتعجبَ قائلًا:- أتذكر يوم حملتكِ وكنتِ في مثل عمر زهرة تقريبًا ، يومها شعرت بالشعور ذاته الّذي أشعر به الآن نحو ابنتي ، نعم أنتِ ابنتي وصغيرتي الّتي رعيتها بحب حتى كبرتِ وأصبحتِ زوجتي و حبيبتي وصديقتي ورفيقة عمري ابتسمت سمر من كلام أحمد وقالت له:

- بارك الله لنا بك وأطال بعمرك حتّى تحمل أحفادك وتشعر الشعور نفسه معهم، لا حرمنا الله من عطفك وحبك، كنت أحلم أن يعجَ البيت أطفالًا ، لكن تعبي جعلني أكتفي بزهرة، وعندما تكبر وتتزوج معنا هنا تقوم هي بإنجاب خمسة أطفال كما تمنيت.

ربت أحمد على كتفها بحب مرددا : - أتمنى من الله أن يحقق لكِ حلمكِ حبيبتي وتبقين سعيدة دائمًا ،لكن أغمضي عينيكِ الآن من أجل الهدية والمفاجأة.

تبسمت سمر مرددة: - أنت وزهرة أجمل هدية لي، سأظل اشكر الله ليل نهار عليها .

هز أحمد رأسه مرددا : - الحمد لله على نعمه، لكن رجاء أن تغمضي إنّها ستفرحك حقًا .
نفذت سمر طلبه واغمضت عيناها .

اقترب منها هامسا :- افتحي عينيك ،هذه أوراق الجمعية كما وعدتكِ بها (جمعية رعاية الأيتام).

تهلل وجه سمر فرحا : - الله عليك، أجمل هدية من أجمل أحمد في الدنيا، أنت نعمة الله لي، دائما لا تخلف أيّ وعد، أدعو الله ألا يحرمني منك ويبارك لي بك.

ثّم احتضن أحمد زهرة وسمر وظلّ يحكي لهما قصة قبل النوم ، فقد اعتاد أن يأخذ سمر في أحضانه كلّ ليلةٍ كطفلةٍ صغيرةٍ ويروي لها القصّص حتّى تخلدَ للنوم. واليوم أصبحتْ معهما زهرة حبهما الّتي رويت بدعوات وأحلام وأمال ودموع ،فهي عوض الله الجميل لهما ،نظر أحمد لسمر وزهرة وهما نائمتين ببراءة وحمد الله وشكره على نعمه.

في الصّباح تناول أحمد الإفطار مع سمر الّتي تحمل زهرة دومًا، فزهرة لا تكف عن البكاء وسمر تخشى عليها، ثمّ قبّل أحمد سمر وزهرة واستودعهما الله، وخرج ذاهبًا لعمله وبينما هو سائق تذّكر سامي وحالته الّتي كان عليها، وتغيّره الشّديد منذ فترة، كانا لا يفترقان أبدًا ولا يخفي عنه شيئًا، تساءل أحمد ما الّذي حلَّ به وعزم على محادثته اليّوم ومعرفة ما يحدث معه، لعلّه في مشكلةٍ ويخجلُ أن يشركه معه، ما إن وصل أحمد المكتب حتّى اتّصل بسامي محاولًا إخراجه من صومعته مستجديًا منه أيّ كلمة توحي بما يدور برأسه، معبّرًا عن قلقه لابتعاده عنه هكذا واتساع المسافات بينهما،فقبِل أن يكونا أصدقاء فهما أهل وأخوة، مع إلحاح أحمد وافق سامي أن يتقابلا في المساء ،لكن القدر لم يسعفهما ففي المساء قبل خروج أحمد بدقائق ورد اتّصال من مايا باكيةً ومنهارةً، حاولت سمر أن تفهم منها ما يحدث لكن بكائها بحرقه أثارَ قلق سمر، خاصّةً بعد أن أغلقت الهاتف دون أن تبلغ سمر ما الأمر، هرعت سمر لأحمد وقصّت عليه ما حدث ،اتّصل بسامي لكنه لا يّرد فاتّصل بمايا لكن ردت منال عليه، فتّعجب أحمد من الأمر ، فإذا بسمر تأخذ هاتفه ظنًّا أنّها مايا ، لتسمع صوت منال، فتسألها مستفسرة:- ما الأمر؟ ، تردّدت منال في إخبار سمر صمتت قليلًا ثّم أخبرتها :- أن مايا تشاجرت مع سامي ،وجاءت غاضبة إلى المنزل.

لكن مايا تجذب الهاتف من يد منال، وتنهار قائلةً :- لقد طلقني سامي يا سمر، وتصرخُ مغشيًا عليها.

تمسكها منال بقلق وتحاول إفاقتها ويلتف الجميع حولها ويتم غلق الهاتف، تاركين سمر بقلقها وتوترها، تصّر سمر على الذّهاب لمايا، ويرفض أحمد متعلّلا أنّها مازالت متعبة، لقد وضعت زهرة منذ أسبوع فقط ، وحالتها لا تسمح بالخروج في هذا الطّقس، ريّاح وأمطار وبرودة شديدة ، يصمم أحمد على رفضه ، فكيف تخرج وزهرة أين تتركها ؟؟!يغضب أحمد رافضًا رغم إلحاح سمر، الّتي تعارضه لأوّل مرة وترتدي ثيابَها مصممة على الذّهاب، في حالة بكاء هستيري فمايا أختها وصديقتها،ويجب أن تكون معها الآن ،تحت إصرارها لم يكن بوسع أحمد إلّا الموافقة على مضضٍ ،خرج معها ليوصلها المنزل الكّبير عائدًا بسرعة من أجل زهرة، اتّصل أحمد مرارًا بسامي الّذي لا يرد ، قذف أحمد الهاتف بغضبٍ مرددًا:- سحقًا لك يا سامي وسحقا لما يحدث ، أتّمنى من الله أن يمرَّ الأمر على خيرٍ.

مرّتْ ساعتان اتّصل أحمد خلالهما عدّةَ مرّاتٍ بسمر لتنتهي ويذهب لها ليحضرها للبيت، حتّى فاقت زهرة وظلّت تبكي ، وقتها اتّصل أحمد غاضبًا من سمر الّتي ما إن سمعت بكاء زهرة حتّى أصابها الجنون وقفزت من مكانها وأصبحت بين نارين ،أمومتها وخوفها على طفلتها ، وحبها وخوفها على مايا حتّى طمأنتها منال بأنّها وسناء هنا مع مايا و عليها الانصراف حالا من أجل زهرة ، فذهب حسين بسيارته وأوصلها لمنزلها ،استقبلها أحمد عابسًا بينما هرعت سمر لزهرة ، حاملةً أيها في حضنها لتطعمها وتشعرها بالدفء والحنان وتعوضها ساعات غيابها معتذرة لها ، ظلت سمر تحملها حتّى هدأت وخلدت للنوم فاتّجهت سمر لأحمد الّذي طال عبوسه فرفض التحدث إلى سمر، بل عزم على النّوم في حجرة أخرى تاركًا سمر في حزنها وندمها. فلأوّل مرّة يغضب أحمد منها بل يخاصمها هكذا ويكف عن الكلام معها، ظلّت سمر تبكي بغرفتها حتّى أشرقتْ الشّمس، وخرجت تجهز الإفطار لأحمد ،الّذي استيقظ باكرًا وارتدى ملابسه ،خارجًا دون أن ينطق أي كلمة أو يتناول الإفطار معها كعادته، ما أن رأته سمر يخرج حتّى أجهشتْ بالبكاء واتجهت للنافذة تراقبه حتّى خرج بسيارته، لكنّه لم يلتفت كعادته ويلوح لها بيده مما زاد من حزنها. دخلت سمر غرفتها محاولة أن تنام ، فقد شعرت بالتّعب و الإرهاق ، ساعات من القّلق حتّى غفت عيونها ،لم يتّصل أحمد كعادته بها فور وصوله أو كلّ ساعتين ليطمئن عليها هي و زهرة

،كان يدعي القسوة رغم قلقه، سمر أيضًا لم تتّصل ،ما بين قلقه وعناده معها ، ظلّ طوال اليوم خارج البيت حتّى الغداء لم يذهب لتناوله بالمنزل بل اكتفي ببعض السندوتشات بالمكتب.

اتّصل والده طالبا منه القدوم للمنزل لمناقشه أمر مايا وسامي ،لم يستطع الرفض فأنهى عمله وذهب إليه وباله مشغول بسمر وزهرة ، استمع للقصّة من مايا-: لقد طلقني سامي ، وللأسف لم تكن المرّة الأولى بل الثانية، فقد أخفيت عن الجميع مشاكلنا وصراعاتنا لقد تبدّل سامي ، وأصبح يسكر ويشرب الخمر، ويأتي بعد فجر كلّ يوم سكرانا ليتشاجر معي ،ويسمع الجيران أصواتنا كلّ يوم ،حاولت معه ليعود عن طريق الضّياع لكن دون جدوى،بل يتمادى بإهانتي وضربي وطردي، والمرّة الأولى للطّلاق ذهبت لوالديه فأصلحا بيننا وكلموه وحاولوا معه كثيرًا، ووعدتهما ألّا يعلم أحد من أهلي بما حدث حتّى لا تتغير صورة زوجي و يتعكر صفو النّفوس ، ولكن فاض الكيل، وهذه المرّة رجع البيت ومعه فتاة بأحضانه وعندما ثرت وغضبت ، ضربني وطلقني ورماني بطفليه خارج الشّقة، بملابس النوم دون عقل ،لقد ضلّ عن طريقه واتبع الهوى، ودمّر بيته ومستقبله .

كان أحمد مصدومًا مما يسمع سامي الّذي كان أعز صديق و أخ له ،سامي الّذي كان يخجل أن يحدث مايا أو غيرها ؟! ، يصّل به الحال لهذا عربدة وخمور وضربٍ وسب . كلّ ذلك خلال عدّة أشهر، انشغل أحمد بتعب سمر وحملها،ليفاجأ بغرقِ صديقِ عمره في بحر الرذيلة أي مصيبة هذه ؟! كانت الصدمة كبيرة للجميع.

أنهى أحمد حديثه مع العائلة ، متفقا مع عمّه ووالده أن يقابل سامي ، ويصّلوا لحلٍ لهذه الكارثة الّتي حلّت بهم واستأذن منهم للذّهاب للمنزل ، فقد زاد قلقه على سمر وزهرة ، فليس من عادتها أن لا تتّصل به خصوصًا مع تأخره، دخل أحمد المنزل ليجد الظّلام الحالك يخيّم على المكان وكأنّ المنزل مهجورًا، يشعل الأنوار ويتّجه بسرعة للغرفة ليجد زهرة تبكي و سمر غارقة في عرقها، وحرارتها مرتفعة جدًّا.

الفصل الثالث والعشرون

يصاب أحمد بهلعٍ وفزعٍ شّديدٍ فيسرع للهاتف ودموعه تسبقه، يتّصل بطّبيب صديق له يحضر الطّبيب للمنزل ليكشف على سمر، يطلب من أحمد نقلها فورًا للمستشفى فهي تعاني من حمى النّفاس وحرارتها لا تنخفض ، وأصابها نزيف حاد فالأمر خطير، أسرع أحمد مع الطّبيب إلى المستشفى ،بينما اتّصل الطّبيب صديق أحمد بوالد أحمد وأخبره، أسرع الجميع إلى المستشفى في قلقٍ وخوفٍ، اقتربت سناء وأخذت زهرة من يد أحمد الّذي يرتجف قلقًا على زوجته وحبيبته ودموعه تنهمر رافضة التّوقف ، يكاد يصرخ من ألمه وشعوره بالذّنب يكاد يقتله، لقد ترك وردته تذبل دون أن يرعاها كما وعدها من قبل ، الصراعات بداخله بين نار خوفه على سمر وشعوره بالذنب من خصامه لها وتركها دون سؤال منه طوال اليوم ،مرّت ساعات دون أن يخرج الطّبيب ممّا زاد توترهم، ما بين كل عدة دقائق كان يردد أحمد كلمة (يا ربّ)،حتّى خرجت الممّرضة أخيرًا لتخبرهم بأنّها بخير، ولكن ستُنقل للعناية المركّزة،حتّى تستّقر حالتها وعندما خرجوا بها على السّرير المتّحرك ،أسرع الجميع يطمأنوا عليها بينما انهار أحمد وأمسك بها ، في حالة بكاء هستيري، أبعده الطّبيب ووالده وحاولوا تهدئته قليلًا ، لكنّه كان يشعر باقتلاع قلبه منه وضيق تنفسه ، كاد يفقد وعيه ويسقط على الأرض لولا أن أمسكه صديقه، وأجلسه وأحضر له كأس من الماء في هذه اللّحظة أذن الفجر وذهب أحمد معهم للصّلاة ، صلى وهو مكسور ويغمره دموعه الّتي لا تتوقف ، وهو يدعو لحبيبته بالشّفاء والنجاة من الخطر .بعد الصّلاة ارتاح وهدأ من داخله وتذكر زهرة فهي لم تتناول أي شيء من ساعات طويلة، طلب من صديقه أن يذهب لطبيب أطفال بالمستشفى ليكتب لها أي لبن بديل، ففعل ذلك وأحضره لها ، وأخذت منال ترضعها وأحمد ينظر لها وكلّه حزن وألم على سمر. مرّت ساعات ولم تستعيد سمر وعيها، رغم نقل الدّم لها ،فجسدها النّحيل لا يقوى على تحمل كلّ هذا الألم لكن دعوات أحمد والجميع لها لا تتوقف.

اتّصلت سلوى بأحمد عند قلقها لعدم اتّصال سمر بها، وعندما علمت بمرض سمر أرادت القدوم لرؤيتها لكن أحمد منعها فلا داعي للمشاكل مع أهلها هنا، فقط طلب منها الدعاء لسمر.

مرّ يومان حتّى استعادت سمر وعيها أخيرا، بعد أن تقلب أحمد على نيران الألم والخوف وتنّفس الجميع الصّعداء بعد طول انتظار وحمدوا الله، بينما خرّ أحمد ساجدًا شكرا لله على عودة سمر سالمة له. واقترب منها يقبّلُ يدها وجبينها معتذرًا منها على إهماله لها والتّقصير بحقها، لكنّها ما زالت ضعيفة وهزيلة لا تقوى على الكلام فقد اختلطت دموعها ودموع أحمد وأشارت لزهرة، يحملها أحمد لها لتقبّلها بشوقٍ ولهفةٍ ،ظلّت سمر عدّة أيّام بالمستشفي حتّى استقر وضعها ، لكن الطّبيب طلب أشعة على القلب ،ممّا أثار قلق أحمد الّذي ظلّ متوترًا حتّى ظهرت نتيجة الأشعة، للأسف ارتفاع حرارة سمر وعدم إسعافها سريعًا بجانب قلبها الضعيف سبب روماتيزم بالقلب. كانت صدمة أحمد كبيرة عندما أخبره الطّبيب ، انهار باكيًا ومتألمًا ممّا سمع منه وتّمنى لو كان هو مكانها، وتذّكر نزولها في البرد القارص والشّتاء لترى مايا، ولكن لا يقوى على لومها وعتابها لقد ظلّ يحمد الله ويدعو لها ،إنّه القدر وعليه أن يرضى، ما حدث مجرد أسباب ولا ألف حذر يمنع القدر.

ولكن ظلّ يفكر كيف سيخبر سمر بالأمر، حتّى راودته فكرة ، واتّفق مع الطّبيب ألّا يخبر أحدًا بمرض سمر حتّى هي، وسيخبرها إنّها تحتاج الرّاحة التّامة ،وسيعلل ذلك بضعف جسدها، فلو عرفت ستتعب نفسيتها كثيرًا وتؤثر سلبا على صحتها، حتّى إنّ الدواء سيبدل العلب و يخبرها أنّه فيتامينات ضرورية أثناء الرّضاعة ومهمة لها ولزهرة، وسيعطيها العلاج بيده ليضمن أنّها تتناوله بانتظام .

وافق الطّبيب بعد إلحاح أحمد عليه مشددًا على أهمية العلاج والرّاحة والكشف الدوري والأشعة ولا مجال للإهمال أبدًا .

هز أحمد رأسه بحزن وأخبره:- لا تقلق ،فكيف توصيني على روحي وقلبي؟!، فالألم أصاب قلبي قبل أن يصيبها .

ترك أحمد الطبيب وذهب شاردا، لقد شعر كأنّه كبر مائةَ عامٍ بحمل هذا السّر وحده، فلا يقوى على أن يخبر أحد ليشاركه فجيعته ووجعه فالموت أهون عليه من أن يُحرم من سمر، كلّما أصابه اليأس دعا الله ليقويه وليتم شفاها،ويطيل عمرها من أجله هو وزهرة. كان ينظر إلى سمر ولا يرفع عينه عنها ، حتّى استغربت منه وسألته بقلق حاول أن يغير تفكيرها،

حتّى لا يثير شكوكها فأخبرها أنّه اشتاق لها كثيرًا ،وأنّه أخذ إجازة شهر من عمله ليبقى بجانبها هي وزهرة يرعاهما ويغمرهما حبا وحنان، فرحت سمر بالخبر وتهلل وجهها.

زاد اهتمام أحمد بسمر، كان يحضر لها خادمة تنظف الفيلا بينما منال تعد الطّعام كل يوم ،وأحمد يساعدها في رعاية زهرة ، تَعلم كيف يغَير لها ملابسها ،ويجَهز الطّعام لها ويهدهدها لتنام ،كان لا يفارقهما أبدا ويحرص على تناول سمر الدواء بيده كلّ يومٍ،حتّى جاءت تلك اللّيلة، كان أحمد وسمر يجلسان كعادتهما، يتبادلان الحديث وينعمان بالهدوء و السّكينة ومعهما زهرة الّتي تبتسم تارةً وتبكي تارةً، وبينما أحمد يروي لهما قصة الأسد الجائع كما قرّرا من قبل ، ليلة قصة للأطفال من أجل زهرة وليلة قصة رومانسية من أجل سمر، وقبل أن ينتهي أحمد شعرت سمر بنغزةٍ قويةٍ في قلبها ارتعش لها جسدها وارتعد معها أحمد وكاد قلبه يتوقف خوفا عليها.

ألقى أحمد القصّة من يده وهرعَ بجزعٍ لسمر الّتي تتألم بشّدةٍ ،وضع من يدها زهرة في عربتها الصّغيرة ثّم أخذ يطمئنها وأمرها بالاسترخاء في فراشها، حتّى يتّصل بالطّبيب ،أمسك أحمد الهاتف بسرعة وأخذ يتّحدث بخوفٍ للطبيب عن حالة سمر وتعبها ويستمع لما يقوله الطّبيب من تعليمات عن الدواء وضرورة إحضارها غدًا للفحص والأشّعة الدورية، أغلق أحمد الهاتف واتّجه لعبوة الدّواء معطيا سمر حبة منه، داعيًا لها بالعافية والعمر الطويل ثّم جلس بجوارها واحتضنها برفقٍ وأخذ يرقيها بصوته الحنون حتّى راحت في نومٍ عميقٍ، أمّا هو فظلّ يداعب زهرة ويهدهدها في سريرها الجميل حتّى نامت كالملاك البريء

قضى أحمد ليلته ساهرًا قلقً على وضع سمر، ينظر لها وهي نائمة ويدعو الله أن لا يحرمه منها ويشفيها، تتوالى على رأسه أفكار مزعجة ، تعب سمر وموتها فتتساقط دموعه بحورًا، حتّى أنّه أخذ يجهش وخشي أن يوقظ سمر فخرج للشرفة بحذر، أفرغ كلّ ما لديه من بكاء ، وحين سمع صوت زهرة تزمجر قليلًا دخل مسرعًا وحملها وأخذها لخارج الغرفة ؛لتنعم سمر بنوم هادئ لترتاح من تعبها، يداعب زهرة ويطعمها ويهدئها حتّى نامت.

دخل بها الغرفة على حذرٍ، ظلّ يراقب سمر وأنفاسها كلّ فترة مطمئنا عليها ،حاول النّوم مرارًا فلم يستطع، فأمسك القرآن وظلّ يقرأ ليهدأ من روعه ويبعد كل فكر سلبي حتّى أذن الفجر، لكنّه لم يذهب كعادته للصّلاة في المسجد ،خاف أن يترك سمر وزهرة وحدهما ،فصّلى بالغرفة وظلّ على سجادته يدعو ويستغفر حتّى راح في النوم ، فإذا به يري في حلمه والدة سمر تبتسم له من بعيد ثّم تقترب منه ، بينما كان يمسك سمر بشّدة بيده اليمني ويحمل زهرة على كتفه، وهي تضحك لجدتها فاقتربت والدة سمر وأخذت سمر من يدها مبتسمة لها وضمتها بشّدة ،وقبل أن يهَما بالرّحيل أعطته تفاحةً خضراءَ وأوصته برعايتها ثّم ذهبتا معًا ،حتّى وصلا لمكان بعيد مليء بالأشجار العالية والطيّور، التفتت سمر من بعيد ولوحت بيدها له وعلى وجهها ابتسامة عذبة وكأنّها عادت طفلة من جديد .فجأةً استيقظ أحمد على صوت سمر تناديه،قام مسرعًا فسألته متعجبة من نومته هكذا على الأرض، ابتسم لها مرددا :- صليت الفجر وجلست اردّد الأذكار فغفوت، طمئنيني عنكِ ، كيف حالكِ اليوم؟

طمأنته سمر وأرادت أن تخرج لإعداد الإفطار، لكن أحمد رفض بشّدةٍ وأجلسها على طرف السّرير قائلا لها- :ستجلسين هنا مثل الأميرة ،وسأذهب أنا لإحضار كلّ ما لذ وطاب لأميرتي الحسناء ولا أريد جدال.

وافقتْ سمر تحت إلحاحه وجلست تتأملُ زهرة ببراءتها وتتفقد أحوالِها ، فوجدت أحمد قد أطعمها وغَير ملابسها، فابتسمت بسعادةٍ وحمدت الله على زوجها الحنون الّذي لم يشعرها أبدًا بثقلها عليه، ولا بيتمها وفقدها الحنان والأمان أبدا.معه لم تشعر يوما بفقدها أمها، ولم تشعر بأيّ احتياج نفسّي أو مادي لمن يساعدها بتربيّة زهرة أو رعايتها وابنتها، فهو سندٌ وعونٌ لها،تجد به الأمّ والأب والأخ والصّديق قبل أن يكون زوجًا لها.

جلست سمر تلاعب زهرة بسعادة وهي تحمد الله كلّ لحظة سرًّا وجهرًا على نعمه عليها ورحمته بها ، وعلى هبة الله لها بزوج حنون هين لين وطفلة تمنتها طويلًا ليتوج حبّها بزهرة تفوح عبيرها لتملأ حياتهما فرحا وسعادة ، دعت الله أن يقَرّ عينها بزوجها وابنتها ويمَنُ عليها بالصّحة لرعايتهما. بينما سمر تستمتع بّصباحها الجميل وتنتظر أحمد ليعد

الإفطار، رنَ هاتفها لتجد سلوى تتّصل لتطمئن عليها، اعتذرت سمر منها لغيابها وانشغالها عنها هذه الفترة، غضبت سلوى منها بل رفضت اعتذارها فهي من يجب أن تسأل عنها، وأخبرتها بقلقها واشتياقها لرؤيتها كثيرًا، فمنذ فترة بعيده لم يلتقيا، وعدتها سمر بزيارتها قريبًا، ردّدت سلوى اعتذارها، وقالت: - أعلم أنّني أطالبك بالمزيد ، وأنّني أطمع بعطائك الّذي لا ينضب، وبحبك وحنانك، لكنني أعلم أن قلبكِ لا يكف عن العطاء، اعذريني لم يعد لي غيركِ واختلط صوت سلوى بالبكاء.

قاطعتها سمر مهونة عليها بكلماتها الرقيقة وحنانها وحبّها، معترفة لها باشتياقها أيضًا لها، وبأنّها أخت وصديقة، ووعدتها بزيّارة قريبة جدًّا إن شاء الله، وستقضي معها يومًا كاملًا لتعوضّها عن طول الغيّاب.

أغلقتْ سمر الهاتف في لحظة دخول أحمد بالطّعام ، مبتسما مهللا:- أحلى فطور لأحلى ملكة، ملكة قلبي وحبيبة عمري. ابتسمت سمر وهي تشكر أحمد وتردّد :-أخشى أن أتعود على ذلك، ما أحلى الكسل والرّاحة.

رد أحمد مبتسما :- تدللي يا حبيبتي وأنا في خدمتك يا ملكة الفؤاد، وبدأ يغني لها ،إدلل عليّ إدلل ، إدلل عليّ ، يا هبة ربي من السماء وأجمل هدية.

تعالت ضحكات سمر مرددة :- الله عليك، كاظم الساهر ، وورود وإفطار في السّرير ، اللهم لك الحمد .

رد أحمد مستنكرا :- لا للكسل، هيا بنا سنتناول الإفطار في الشّرفة وسط زقزقت العصافير ونسيم الصّباح العليل وروائح الزهور وعطر الياسمين ،هيا أسرعي يا وردتي الجميلة.

حملت سمر زهرة وخرجت تغمرها السّعادة ، ويملأها الدفء والأمان والرّاحة، تشعر بالّسكينة وهدوء النّفس بحضور أحمد وتطيل النّظر له، تشعر أنّها تشتاق إليه وهو أمام ناظريها وتريد أن تشبع عيونها به وتحمد الله بسرها مبتسمة له. لم يكن شعور أحمد يقّلُ بل يزيد عمَّا تشعر به سمر، إنه يفتقدها وهي معه، ويذوب عشقًا بها كلّ يومٍ أكثر وأكثر ممّا

قبل، يخافُ عليها بقدر حبّه وعشقِه ويحتويها بحبٍ ويحيطها بدفء قلبه وحنانه دومًا ، ليته يستطيع أن يتحملَ عنها الألم ويعطيها قلبه وعمره، ما إن انتهيا من الطّعام حتّى وصلت سناء لتمكث مع زهرة بينما سمر وأحمد سيذهبان للمستشفى لإجراء بعض الفحوص لها.

في الطريق اتّصل سامي بأحمد لتتذكر سمر موضوع مايا معه، وتشعر بالحزنِ فقد شغلها مرضها عن مايا ولم تقف معها في محنتها.

الفصل الرابع والعشرون

بعد إجراء الفحص والأشعة ، طلبت سمر من أحمد أن تذهب لمايا ساعةً فقط لتطمئن عليها،لم يرد أحمد فهو مشغول و شارد يفكر في ما رأى بالحلم، وفي صحة سمر ويتمنى ألا يفقدها، فبدونها لا حياة له، حتّى أعادت سمر الطلب منه ، فانتبه لها وتردّد في رفضه خاف أن تغضب سمر فتتعب، فوافقَ بشرط ساعة فقط ،من أجلِ زهرة ومن أجلِ صحتِها فهي تحتاج للرّاحة.

بينما توجهَ هو لسامي أيضًا ليضع حدًا لتلك المشكلة العالقة، أستمع أحمد لسامي وهو شارد الذّهن مشغول بأشعة وتحاليل سمر، فجأةً يثور سامي على أحمد-:أنت السبب يا أحمد ،ابتعدت عني كثيرًا، كنت لي أخًا وصديقًا، كنا لا نفترق وفجأة أخرجتني من دائرة اهتمامك وأنت تعلم بانطوائي ووحدتي بدونك، كنت أعتبرك وطنًا لي تركتني للضيّاع وحدي، وانشغلتَ عني بزوجتك وابنتك وطردتني من حياتك، فجأةً وجدتني وحيدًا بلا أخ أو صديق ،توهت و تخبطت هنا وهناك، أطلقت على كلّ عابر صديق و انجرفت خلف أصدقاء السوء لقلّة خبرتي وجاريتهم لأكون متحضرًا وليس معقدًا، جاريتهم تقليدًا ولم أكن سعيدًا أبدًا.

بات ضميري يؤنبني حتّى مات بالبطيء ،وأصبحت أسيرًا خلف القّطيع، الوحدة والجوع للاهتمام دفعني للرّذيلة؛ فعلت كلّ ما لا يخطر ببالك يا صديقي، خمور ومخدرات وزنا .

كنت لا أبالي وكأنني انتقم من نفسي دمرت حالي، فعلت كل ما كنت أنفر منه وأصفه بالحرام. وكأنني كنت جائع وارتويت من كلّ متاع الحياة حتّى شبعت ولم أكتف، أصبحت بلا أخلاق ولا مبادئ.

و مايا أيضا نسيتني وأهملتني مثلك، احتجت إليها ولم أجدها ، انشغلت عني بالأطفال وأبحاثها، رغم أنّها تركت العمل لرعاية الأطفال، لم تترك أبحاثها كنت تراسل الجامعة بألمانيا عبر الانترنت وتجهّز للماجستير، أنتما الاثنان خذلتموني وتركتموني وحدي .

فجأة وجدتني بلا وطن، فقدت اتزاني و ضعت يا صديقي، أعلم أنّني مريض عانيت من قسوة أبي وغضبه وتدليل أمّي المفرط ، ممّا أضعف شخصيّتي وأصابني بالانطواء حتّى

وجدتك ووجدت مايا،لا أنكر أنّكما منحتموني الحياة والعطاء بلا حدود، كنتما كرمانة الميزان لي، لكن إهمالكما سبب لي اختلال توازن وضعفت شخصيتي من جديد. كنت بحاجةٍ ماسةٍ لاهتمامٍ مضاعفٍ منكما ولم أكن أطلبه أبدا افتقدتك وفقدت نفسي معك.

الاهتمام لا يطلب يا صديقي، الاهتمام إذا طُلب أصبح كالدّواء ، يعالج المرض ولكنّه مؤقت ما أن ينفذ حتّى تطلب غيره ،الاهتمام الّذي يطلب لا يُشبع ولا يُغني من جوع . وانفجرَ سامي بالبكاء هنا اقترب أحمد وحاول ضمّه لحضنه وتهدئته، لكنّه نهره بقوةٍ وأزاحه بعيدًا مردّدًا :-

لم يعد ينفع يا صديقي لم يعد يجدي ،فالميت لن يعود للحياة، فات الأوان يا صديقي، صعب الآن أن نعود، المشكلة بعدما افترقنا كنت تعلم أنّني أمر بأسوأ المراحل النفّسية ولم تحاول حتّى الاطمئنان عليَّ ، مر شهر وأنا وحدي بعد أن تركتني مايا وأنت لم تهتم لم تحاول زيارتي أو السؤال عن حالي حتّى باتّصال واحد، حاول أحمد أن يشرح له ظروفه ومرض سمر، ولكن سامي كان يرفض أن يسمع ولم يهتم ، ظلّ يلومه ويتهمه يعتقد أنّه ضحيّة وأن أحمد سبب ما حدث، وأنّه أهمله و تخلى عنه، حتّى ورد اتّصال لأحمد من المستشفى ليسقط من يده الهاتف بعد تلك المكالمة؛ وينهار باكيًا. هنا يقترب سامي بفزعٍ ويسأل أحمد عمّا يحدث، يحاول أحمد تمالك نفسه ويحكي له :- سمر مريضة جدا يا سامي ، وأنا أخفي الأمر حتّى عنها واتحمل ألمَها وحدي، والآن اتّصل الطّبيب يؤكد ضرورة إجراء عمليه لها قريبًا .

ربت سامي على كتفه مرددا:- أنا أسف جدا ،لا أعلم بكل ذلك ، تحاملت عليك بكلامي ونسيت أن لك حياتك وهمك، لا تغضب مني ولانفعالي عليك، هون عليك يا صديقي، بأذن الله ستتعافى سمر.

وفي بيت العائلة ، تجلس سمر مع مايا تستمع منها وتشكو لها ظلمَ سامي وتغيّره عليها، وتغيّر أخلاقه للنّقيض وكأنّه تحوّل من ملاكٍ إلى شيطان، ومحاولاتها معه للعلاج النّفسي، والعلاج من الإدمان الّذي وصل له ، لكنّه لم يتجاوب مع العلاج ولم يهتم بها ولا بوالديه، وسقط في هاوية الضّياع .

انهارت مايا وأخذت بالبكاء وهي تردّد :- لقد أحببته يا سمر، أحببته وكنت أتحمل منه و مستعدة لتحمّل أضعافِ ما تحملت منه، لكن أولادي كيف سيتحملون ذلك، هل أنتظر ليصل بهما الحال ويصبحان مثله؟!، رفضه للعلاج أو تغيره يمزقني ويقهرني، لكنّني تعبت وأخاف على أولادي كثيرًا، أحاول أن أنقذهما من الضيّاع ،لن أتحمل فقدهما يا سمر لذلك أخذت قرار الطّلاق ولا مفر منه، مهما حاول أن نعود فلا أمل ولا جدوى ،الانفصال مؤلم وصعب عليَّ ولكنّه الحل الصّحيح لنا لا طاقة لي بضيّاع أولادي . وسأعود لألمانيا أكمل دراستي وأهتم بأطفالي هناك، دعواتك لي باختيار الأفضل.

كانت سمر تهوّن على مايا مصابها وألمها وتصبرها بكلمات حنونة مثلها، وتدعو لها بالفرج من ضيقها وأن يرعاها الله ويرشدها للخير.

في هذا الوقت اتّصل أحمد بسمر يبلغها أنّه بانتظارها خارج المنزل، ولتنزل سريعًا لقد تأخروا على زهرة.

ودعت سمر مايا وسلّمت على الجميع، وغادرت لتجدَ أحمد بانتظارها في السّيارة، ركبت بجواره سريعًا وانطلقا لمنزلهما حيث زهرة وسناء بانتظارهما، وقد أعدت سناء الطّعام، وأصّر أحمد عليها تناول الطّعام معهما، أخذت سمر زهرة و اتّجهت للغرفة لإطعامها والاهتمام بها بعد أن تركتها طويلا اليّوم، بينما طلب أحمد من سناء أن تبقى اللّيلة مع زهرة لترتاح سمر قليلا، شعرت سناء بحزنٍ عميقٍ من كلامِ أحمد معها فسألته عن الأشعة والتّحاليل، صمت قليلًا يفكرُ في الأمر، فلم يعد ينفع أن يخفى أمر مرض سمر، لابد من إجراء عملية لها وسيعلم الجميع عاجلًا أم أجلًا.

نزلت الدموع من عيون أحمد وارتمى بحضن والدته وحكى لها ما يخبئه ويتحمله قلبه من ألم وخوف على حبيبته وزوجته ، لم تتمالك سناء نفسها عندما سمعت كلام أحمد وبكت بشّدةٍ ،فلم تكن سمر مجرد زوجه لابنها ، إنّها ابنتها الّتي ربتها وحبّها لها قدرَ حبّها لابنها أحمد تمامًا ، هنا دخلت سمر فجأةً.

ارتبك أحمد بشّدةٍ خوفًا أن تكون سمر سمعت حديثهما، ثمّ سرعان ما وجد سببًا مقنعًا لسمر قال لها مبررا دموع سناء : - لقد تذكرت أمّي والدي رحمه الله؛ لذلك بكت وبكيت معها

،تعلمين منذ وفاته العام الماضي وأنا أحاول إقناع أمّي أن تنتقل للعيش معنا هنا لكنّها ترفض، لكن اليّوم اقتنعت أخيرًا وستظّل معنا لتهتم بزهرة معكِ.

فرحت سمر وضمت سناء بشّدةٍ :- وأخيرًا يا أمّي سوف ينير بيتنا، ويمتلئ بهجة وسعادةً بوجودكِ ، تعلمين كم تمنيت ذلك ، ما أجمل الأخبار وأحلاها اللّيلة .

شكرتْ سمر سناء وأحمد لهذا الخبر الجميل ،وذهبت معها تجهزُ لها الغرفة، تنفسَ أحمد الصّعداء بعد اقتناع سمر بكلامه، وحمد الله في سره أن مرَّ الأمر بسلامٍ . ظلّ أحمد شاردًا يفكر ويحدث نفسه ، كيف سيخبر سمر فهو لا يقوى على إخبارها ولا يعرف كيف سيكون حالها ،ولا يتّخيل أن يرى الخوف بعيونها أو يشعر بألمها أمامه، الأمر صعب عليه ، ظلّ يدعو الله أن يقويه ويحفظ له زوجته وقرة عينه.

في الصّباح بينما سناء وسمر يعدان الإفطار، رنَّ الهاتف ، ردَّ أحمد فإذ بوالد سمر الحاج عبد القادر اتّصل ليطمئن عليهم بعد أن علم بتعب سمر، وذهابهما للمستشفى أمس فقد كان مسافرًا واليّوم عاد فجرًا، وظلّ قلق بعد علمه بما حدث حاول أحمد أن يطمئنه، لكن قلب الأب وخوفه على ابنته حتّى بعد أن تحدث لسمر وسمع صوتها، لم يهدأ باله وحضر بنفسه للاطمئنان عليها، كانت سمر تشعرُ بسعادةٍ عارمةٍ فعشقها العائلة، والحب والدفء والحنان تملئها أملاً وتمنحها رضا وراحةً لا يمكن وصفها. بحضور والدتها منال ووالدها ، وحسين وزوجته وابنه الصّغير(طارق) اكتملت سعادة قلبها البريء فهي تملك قلب طفلة تفرحها أبسط الأشياء ،وما أعظم عندها من تجمع العائلة والحديث الشّيق معهم ،واكتملت فرحتها باتّصال حسن من ألمانيا فهو يمكث هناك للعلاج ، وكلّ شهرين يأتي لزيارتهم ثمّ يعود، لم يكن يتمنى الغربة، لكن مرضه حكم عليه بذلك ،فتأقلم مع الوضع رويدًا حتّى اعتاد كما اعتاد الألم والمرض والعلاج والعمليّات الّتي تتكرر كلّ فترة، لعله من شّدة التّعب فقد الإحساس بالتّعب وأصبح لا يبالي. وما خفف من غربته ، وجود سارة وجاسر وطفليهما معه وزيارات عمّه لهم كلّ فترةٍ ، ونزوله مصر بين الحين والأخر، لينعمَ بدفء عائلته وحبّهم له فيستمدُ الأملَ ويتناول إكسير الحياة ليعود ليكمل مسيرة علاجه و حياة فُرضت عليه ،كان أحمد مشغول البال اتّصل بجاسر والطّبيب بألمانيا وأرسل له أشعة وتحاليل

سمر، ليحدد موعد إجراء الجراحة ويرتّب أوراق السّفر،كلّ ذلك دون إعلامِ سمر، ولكن عليه إخبار الجميع الآن. عمَ الحزن المنزل وباتت الدموع لا تفارقهم والدعاء في كلّ صلاةٍ لا يتوقف، أمّا أحمد فظلّ يفكر في حيلة ذكيّة ليقنع سمر بالسّفر، دون أن تشك بالأمر حتّى وجد الفكرة الرائعة، ما إن وصلت تذاكر السّفر اتّجه أحمد لسمر فرحا ومهللا:- أخيرًا سوف نسافرُ لنعيدَ ذكريّات شهر العسل يا حبيبتي، جاسر أرسلَ لنَا دعوات أنا وأنت وزهرة ،والمفاجأة مايا وأطفالها سيسافرون معنا بعد أن وافق سامي بصعوبة، كان قلق أن تذهب مايا ولا تعود، لكن اقتنع بأهميّة ابتعادهما فترةً حتّى تهدأ الأمور وتتّحسن العلاقة بينهما، ما رأيكِ في هذه الأخبار الرائعة يا أميرتي ؟ ألّا أستحق مكافأة كبيرة ؟

ردت سمر متفاجئةً: - إلهي كلّ هذه المفاجآت، مهلًا حتّى أستوعب، أيّ رحلةٍ و أيّ دعوةٍ ومن سيسافر معنا ؟

أشعر بأنّ هناك سرًا بالأمر، وكأنّ زوجي قرّةَ عيني هو صاحب الخطة،يبتسم أحمد ويعلن برأته:-

المهم أن نستعد ونجهز الأمتعة، وسوف تكون أجمل رحلة مع وردة قلبي وزهرة حياتي ، ذهبت سناء مع سمر لتجهيز الحقائب ، وجلس أحمد يبكي وحده لم يكن الأمر سهلًا عليه، رغم تظاهره بالقّوة لكن عندما تخيّل سمر تدخل غرفة العمليّات وحدها، زاد ألمه لمَا ستشعر به من ألم وأخذ يبعد الأفكار عنه بالاستغفار والدعاء.

في المطار سلمت سمر على الجميع وغادرت ومعها أحمد وزهرة و مايا وأطفالها، بينما هي لا تعلم أن الجميع سيلحقون بهم بعد ساعات ،فلم يقبل أحد ترك سمر في هذا الوضع ،وهي تجري عمليّة خطيرة كتلك وحدها، حتّى لو معها زوجها وأخيها حسن لكنّهم وافقوا طوعًا للّحاق بهم لرغبة أحمد في سّرية الأمر، حرصًا على نفسية سمر. مرّت ساعات طوال من وصولهما بعد ترحيب سارة وجاسر وحسن والاحتفاء بهم حان موعد النوم ،وقتها أخبرَ أحمد سمر بأنّه يريد إجراء فحوصات طبيّة للجميع ككشف دوري للاطمئنان على صحّتهم بما أنّهم هنا بألمانيا فلديه طبيب صديق هنا.

الفصل الخامس والعشرون

في الصّباح اتّجه أحمد ومعه سمر للمستشفى بعد أن أقنعها بإجراء فحوصات طبية، ما إن دخلت سمر حتّى امتلأت عيون أحمد بالدموع أمسكت سمر يده ، وقالت مبتسمة له:- لا داعي للقلق مجرد تحاليل وأشعة، لا تخيفني يا أحمد.

أمسك أحمد يدها وقبلها ثّم قبل رأسها وهو يستودعها الله ، داعيًا لها أن يحفظها الله له من كل سوءٍ وتعود له سالمة. بعد أن أخذت سمر المخدر خرج أحمد ، ليجد الجميع وصل للمستشفى يرتمي في حضن عمّه والد سمر ويبكي بشدة، يحاول الجميع تهدئته، تستمر الجراحة ساعات طويلة، بينما يسود القلق والخوف ويستمرُ الدعاء لها. يمسك أحمد المصحف ويحاول القراءة ولازالت دموعه تتساقط ،يخرج الطّبيب أخيرًا؛ يتنفس أحمد الصّعداء، متجهًا له ليطمئن قليلًا، يخبرهم الطّبيب بأنّ الوضع لم يستقر بعد ،وأنّ سمر ستظلّ بالعناية للملاحظة الدقيقة حتّى تستّقر حالتها، يهدأ الجميع ما عدا أحمد يظلّ متوترًا ويردّد الدعاء، لا يعرف كيف مرَّ اليومان عليه كأنّهما دهرًا من الزمن، كان ما بين صّلاةٍ ودعاءٍ دون نومٍ أو طعامٍ . الوقت لا يمرُّ بل يُقطع منه ويحطم أعصابَه، وكأنَّ الساعات توقفت، يشعر بكلّ شيءٍ توقف إلّا دموعَه تنهمرُ دون توقفٍ ،وأخيرًا يُسمح له بالزيّارة دقائق معدودة، يدخل أحمد محاولًا التّماسك ، ليرى سمر ترقد على سريرها الأبيض كالملاك كأنّها نائمة نومًا هادئًا باستثناء تلك الخراطيم و الأجهزة المتّصلة بها ، والّتي ترعب من يراها، شعر بنغزةٍ بقلبه من ألمه لرؤيتها بهذه الصّورة ضعيفةً هزيلةً مستسلمةً؛ كيف سيواجه نظراتها له بعد أن تستفيق لترى ما حدث لها ؟هل ستسامحه وتغفر له خداعه وكذبه ؟. مرّت ثلاث أيّام صعبة على الجميع حتّى بدأت سمر تفتح عيونها؛ ليعود النور للحياة، ويعود النبض لقلب أحمد وروحه، يبتسم أحمد الّذي كاد يفقد نور عينه من كثرة بكائه ليلًا نهارًا، يقبلها ويحمد الله على سلامتها. ظلّت أيّامًا تفتح عيونها لحظات ثمّ تغيب في سبات عميق، أسبوع حتّى استعادت وعيها كاملا، أخذ أحمد يقبّلُ يدها ورأسها فرحًا بعودتها للحياة ويشكر الله على فضله، بينما سمر تدير وجهها عنه فلا تقوى علي إعلان الغضب والعتاب، لكن دموعها تتساقطُ وتبعد بوجهها عن أحمد كلّما حاول استرضائها طالبًا عفوها

عنه؛ ترفض حتّى أحضر لها زهرة ،هنا ابتسمت و ضمّت زهرة وقبّلتها بلهفةٍ عارمةٍ فقد اشتاقت لها كثيرًا.

مرّت الأيّام وتحسنت حالة سمر، وسامحت أحمد فهي تعلم خوفه وقلقه عليها وأنّ ما فعله لم يكن إلّا لمصلحتها ،وتخيّلت الرعب لو علمت قبل العمليّة لتوترت وارتفع ضغطها أو لعلّها ماتت رعبًا.

بعد الاطمئنان على سمر عاد الجميع إلى مصر، بينما ظلّ أحمد مع سمر و زهرة شهورًا بألمانيا لاستكمال العلاج والمتابعة، كان أحمد لا يكف عن المداعبة والتّدليل، يحضر لهما الألعاب و الحلوى ويروي لهما القصّص ويطعمهما ويهتم بهما كأنّ سمر وزهرة ابنتاه المدللتّين ،فلم يكفَ عن مناداة سمر صغيرتي، حبيبتي، قلبي، روحي، وأميرتي، يفعل كلّ شيءٍ ليغمرها بالسّعادة وكأنّها تعيش في حلمٍ جميلٍ لا تريدُ أن تستيقظ منه أبدًا، ورغم تعبها وسفرها لم تنسى سلوى ولا هالة ولا هيام ، فوفائها لصديقاتها لا ينتهي حتّى في أصعب أوقاتها لا تنسى واجبها في السؤال عنهم والتّواصل معهم والدعاء لهم. جاء وقت عودتهما لمصر وتمنت لو عادت مايا و أطفالها ، ولكنّها مصرة على الانفصال عن سامي وقد رتبت أمور حياتها بألمانيا.

عادت سمر ولكنها ستتردّد كلّ فترةٍ على ألمانيا مثل حسن لإتمام العلاج، فلم تعد بالنشاط نفسه والحيوية ذاتها ، كلّ خطوةٍ بحساب وكلّ نفسٍ محسوب عليها ،كانت حزينةً من داخلها ولكن أخفت على الجميع كعادتها ،فكم تمنت أن تنجب إخوة كثر لزهرة تلاعبهم وترعاهم بحرية وتعيش حياتها طبيعية مع زوجها وحبيبها تنطلقُ وتسافرُ وتجري وتلعبُ كالسّابق، ولكن هيهات أن تعود كما كانتْ قبل الجراحة ،فالأمر ليس هيّنًا أنّها لا تخشى الموت أكثر ممّا تخاف على أحمد وزهرة وأهلها أن يتجرعُوا مرارة الفقد الّتي ذاقتها على فراق أمّها من قبل ، تخشى عليهم من الألمِ والعذابِ ولا تقوى على مواساتهم، والفضفضة مع أحدٍ فمجردِ الكلام سيفتحُ أبوابًا للحزن والألم ، فقلبها يعزفُ لحنَ الصّمت الحزين.

مرّ عامان من المعاناة ذهابًا وإيابًا بين مصر وألمانيا، تغيّرت أشياء وتبدلت أخرى رحل عمّهم عبد الرّحمن منذ عام ،بينما سامي تّزوج بأخرى ويرفضُ العلاج ومايا أنهتْ مناقشة

الدكتوراه، وتقدّم لها دكتور زميل وسوف تتّزوج قريبا منه، وزوجة حسين حامل للمرّةِ الثانيةِ ،وهالة عادتْ لتستّقر بمصرَ مع زوجها، وسلوى ما زالتْ تُعالج نفسّيًا بعد فقدها أطفالها، ظلّت سمر تفكر ومرَّ شريط ذكرياتها والأحداث أمامها، كيف استطاعت مايا أن تنسى وتبدأ من جديد ،وسامي كيف تزوج غيرها هل تبخرت مشاعرهما يا ترى لو رحَلت سيتّزوج أحمد غيري ؟، ونزلت دموعها فآخر أشعة توجبَ جراحه ثانيةً لها بعد انسداد أحد الشّرايين، فهي لا تقوى من جديد على جراحة وتخدير، و لن تتحملَ ألم وخوف كلّ من حولها عليها مرة أخرى، فجأةً يرنُ جرسُ الباب بقوةٍ ،كان أحمد في الطابقِ الأسفلِ مع والدته وزهرة، تاركين سمر في غرفتها للرّاحة، ما إن سمعت سمر رنين الجرس حتّى هرعت لأسفلِ و انقبض قلبها، كان والدها جاء مع حسين و ملامحهما مليئة بالحزن ليعلنا خبر وفاة حسن بألمانيا.

تسقط سمر على الأرض بعد سماع الخبر المشئوم، بينما أحمد ينهار بجانبها ويتجمدُ من الصّدمة ولا يقوى على الكلامِ، يتّصل حسين بالطّبيب بينما يتّصل والده بالمطار ليعرف موعد وصول جثمان حسن ، لتحضير التّرتيبات اللّازمة للجنازة. يحضر الطّبيب ويفحص سمر ويعطيها العلاج اللازم، ويطلب أحمد من سناء أن تظلّ مع زهرة وسمر، ولكن سمر تصممَ أن تذهب للعزاء معهم رغم ضعفها ومرضها، يجتمع الجميع بالمنزل الكّبير ليعلن الشّيخ بالمسجدِ عن وصول الجثمان وصّلاة الجنازة؛ تنهار سناء وسمر ومنال والحضور بالبكاء، ليرقد حسن بسلامٍ بعد صراعٍ سنوات مع المرض.

مرّت أيّام العزاء ثقيلة ومحَملة بأنات الألمِ والحسرةِ على شباب حسن الّذي قضاه بين المطار والمستشفى ذهابًا وإيّابًا، زاد تعب سمر من شدة الحزن على فقد أخيها، اتّصل أحمد بالطبيب بأمريكا للسّفر لإجراءِ عمليّة جراحية أخرى بقلب سمر الضّعيف، و تم تحديد موعد الجراحة ، فلم يقصر أحمد معها عرضها على أطباء في كل بلد ، ولو باستطاعته لأعطاها قلبه ومنحها حياته راضيا مطمئنا ؛ لتستريح من تعبها و ألمها الّذي يمزقه ،ولكن تشاءون وتشاء الأقدار، فأنا أريد وأنت تريد ويفعل الله ما يريد ، فالقدر كتب سطوره الأخيرة ، فقبل ساعات من سفرهم ،تستفسرُ سمر من منال :- أين دُفن حسن ؟وهل ممكن أن يُدفن أحد معه لو مات الآن ؟

تستاء منال من كلامها وحزنها وتنهرها بالنّفي، فالقلوب لا تتحمل فراق حبيب أخر ،وتدعو لها بالعمر المديد وأن يمنحَها الله الصّحة والعافية لتّربي زهرة وتسعد بها وبشبابها.

وتطلب منها أن تنام لتستريحَ فأمامهم سفر طويل غدًا ، لم تكن منال تعلم أن سمر ستسافر في رحلة طويلة جدًّا، رحلة بلا عودة وستستريحُ إلى الأبد وتفارق الحياة .

ترحل سمر، بعد أسبوع من موت حسن أخيها تاركةً حزنًا عميقًا للجميع، خيّمَ الحزنِ على المدينةِ بأكملها، النّيل يغطيه السّواد والسّماء ملبّدة بالغيّوم ،والأرض يسودها الجفاف ، والبيت ساده الحزن والظلام بعد غياب النور بغياب ملكة البيت ونوارته، ترحل سمر وتتركُ زهرة بلا حضن ترتوي منه حبًا وحنانًا، ترحل تاركةً أحمد رفيق روحها وحيدًا، ترحل ليصاب أحمد بصدمةٍ ،لا تفقده النّطق فقط بل تفقده الحياة.

ينعزلُ أحمد بغرفتِه ويرفض أن يعود، تمرُّ شهور دون أن يخرج تبوء كل محاولتهم معه بالفّشل لا صديق ولا أخ ولا أم ولا طبيب يجدي نفعا معه ليخرجه من عزلته ، بعد أن فقد رغبته في الحياة .

فقط زهرة من استطاعت إخراجه للحياة عندما سمع صوت بكائها وصراخها خرج من صومعته ، ليجد زهرة على حافة النافذة تكاد تسقط منها لولا أن جذبها بسرعة، يضمها لحضنه ويظلّ يبكي، ولا يدري أنّه كان أشّد حاجة لهذا الحضن منها ليعيده للحياة، يضمها ويعدها أن يرعاها لتزهر سيكون لها أمًّا وأبا وموطنا مليء بالود والرحمة، هنا يتذكر أحمد يوم وعد سمر نفس الوعد بعد موت والدتها، يحتضن زهرة و يبكي بشّدةٍ.

ارتفع صوت أحمد بالبكاء ، فأسرعت والدته سناء التّي كانت مشغولة بالمطّبخ، وعندما رآها أحمد لم يتمالك نفسه و نهرها بشّدةٍ لإهمالها زهرة وتركها دون مراقبة وحدها، فقد كاد يفقدها كما فقد سمر لولا رعاية الله لها . اعتذرت أمّه وهي تبكي وتحمد الله على سلامة زهرة، شعر أحمد بالنّدم لتعنيفه أمّه هكذا فاعتذر منها وارتمى بحضنها باكيًا لعلّه يلقي بعضًا من آلامه وجروحه، مردّدًا :- أكاد أختنق يا أمّي ليتني متت معها، ليس خطئك، أنا المخطئ ،لا عليكِ، آهة يا أمّي من غياب سمر قلبي يتمزق، ليته يتوقف ويريحني من ألمه، أنا من أهملت زهرة ونسيت مسئوليتي نحوها، لقد تركتها سمر في رعايتي وأنا لم أحفظ

الأمانة واستسلمت لحزني وعزلتي، هربت وتركت زهرة ونسيت حاجة زهرة للرعاية ،أنتِ تحملت الكّثير يا أمّي أرجوك سامحيني.

أخذت أمّه تواسيه وتقويه بتشجيعه وطلبت منه الاهتمام بنفسه وزهرة ،وأن يعود للحياة ،فلا جدوى من عزلته ،العزلة لن تعيد سمر إليه، ليعود من أجل زهرة الّتي تحتاجه كثيرًا.

بدأ أحمد يخرج من غرفته للجلوس مع زهرة أصبح يطعمها بنفسه وتنام معه وعاد يحكي لها القصّص حتّى تنام، أمّا هو فلا ينام فتلك الذّكريات تطارده، فقد تركت سمر له ثروة هائلة من الذّكريات لا تدعه وشأنه يراها هنا وهناك كأنّها معه .ظلّ يتناول المهدئات لينام ويريح جسده المنهك من أجل زهرة فقط ، سنوات وأحمد يحاول العودة لحياته حتى تمكن أخيرا من العودة للعمل، وتوسعت مشروعاته في أنحاء مصر بل في ألمانيا ودول الخليج، وقد أنشأ قرى سيّاحية في الساحل الشّمالي أخرهم أسماها(زهرة سمر). ورغم نجاحه بعمله وتحقيق ثروة هائلة فلم تعد إليه ابتسامته أبدًا، قد يكون عاد للحياة ولكن الحياة لم تعد لقلبه، والنور لم يعد لحياته ، إنّه فقد لذّة الحياة فبموت سمر ماتت رغبته في الحياة. تمنى لو كانت سمر على قيد الحياة لتشاركه نجاحه ، الكلّ يحسده على منصبه وشهرته ولا أحد يشعر به ، فقد تمتلك كلّ مقومات الحياة لكنّك لا تشعر بالسّعادة.إنّه يعيش فقط من أجل زهرة ، لولا زهرة لفارق الحياة ومات يأسًا، فزهرة هي الخيط الّذي ربطه بالحياة مرّةً أخرى .

الشيء الّذي ظلّ يزعجه، إلحاح أمّه عليه وعمّه بالزّواج فكلّما فتحوا هذا الموضوع ، كأنّهم يفتحون جرحًا غائرًا يظّل ينزف أيّامًا وشهورًا ليلتئمَ من جديد، حتّى جاءت اللّحظة الحاسمة مرضت سناء والدة أحمد واستحلفته أن يفكر بالزّواج من أجل زهرة التي بلغت العاشرة من عمرها وأصبح أحمد بين ناريين ،إرضاء أمّه وحزنها و إلحاحها واعتقادها أنّها على فراش الموت، ولابد من تنفيذ وصيتها لترضى عنه، وألمه بمجردِ تفكيره دخول امرأة أخرى حياته فلا يتّخيل أبدًا وجود غيرها في بيته ولا حياته، كيف ترى عيونه غيرها بل كيف يشعر قلبه وينبض بغير حروف سمر، لا أحد يشعر به وبألمه ، اضطر أحمد للموافقة على الارتباط من أحد معارف والدته ورغم أنّه جلس معها فلم يرها ولم يقو على النّظر

إليها ،لكن أخذ يجبر نفسه إرضاء لوالدته حتّى جاء يوم كتابة عقد الزّواج ،فلم يقو أحمد على هذه الجريمة اعتبرها خيانة لسمر، لا لن يستطيع ذلك.

ظلّ يصرخ بهيستريا، ويكسر في غرفته ويدمر كلّ ما يقابله حتّى فقد ووعيه، فزعت والدته وأسرعت لتتّصل بعمّه ،ليحضر الطّبيب ويعطيه المهدئ، مرت أيّامًا حتّى تحسنت حالته قرّرت والدته وعمّه غلق موضوع الزفاف، بل تمَّ إلغائه نهائيا وتعويض العروسة بإعطائها الذّهب وكلّ الهدّايا والاعتذار لهم عن إلغاء الزواج، ظلّت زهرة بجانب والدها حتّى استعاد صحته ، وعاد يشاركها لعبها ومذاكرتها ولا ينسى أن يروي لها القصّص كل ليلة.

وذات ليلة أحضر قصة ألف ليلة وليلة الّتي كانت تعشقها سمر،فتحها والذّكريات تمر أمام عينيه ليجد بين صفحاتها ورقة مطويةً ومعطرةً بعطر سمر، يفتحها بشغفٍ ليجدها خطابًا من سمر، قبله قبلت حارة، كاد قلبه يتوقف من السّعادة لولا تمالك نفسه من أجل زهرة، يضعها جانبا حتّى تنام زهرة ، يطير إلى غرفته بلهفةٍ وشوقٍ ليقرأ الرسّالة.

الفصل السادس والعشرون

كان في رسالة سمر :

حبيبي وزوجي الغالي أحمد: لا أعلم ماذا أقول لك هل أقول لك وداعا، أم إلى لقاء آخر في الجنّة، أكتب لك الآن و أنا على فراش الموت، لو أنّني بين أحضانك لألفظ أنفاسي الأخيرة، لكنّني خشيت عليك من الألم و الفزع، خشيت أن أرى نهايتي في عيونك وخشيت من دموعك أن تزيد ضعفي، ليتك معي الآن، أبشرك ألّا تبكي فإني أشعر براحةٍ غريبةٍ، أخيرًا ذاب ألمي لا أشعر بأيّ ألم بقلبي أشعر كأنّني أطير غريبةٍ وأحلق بجناحي كفراشة بين أزهار الرّبيع، يا له من جمال أن تذهب في رحلة إلى الله خالق كل شيء،لا تحزن يا حبيبي وأمسح عنك دموعك، أعلم وأنت تقرأ الآن خطابي إنّني سأكون بين يد الله ، في عالم الحق فلا تبك رجاء فبكاؤك يؤلمني ، كنت تتحمل عني كل ألمي كنت تخشي عليَّ منه، فلمَا تؤلمني الآن بحزنك ودموعك. اعلم أنّني معكما هنا ستظل روحي معك وحولك ،وستظّل تقرأ القصّص لزهرة وأنا معكما بروحي ، أعلم أنّك لن تنساني ولكن لا تتألم هكذا، أشعر بك الآن ويؤلمني حزنك، أرجوك لا تبكي ولا تحزن و كون قويًا من أجل زهرة كما كنت من أجلي. هل تذكر يوم موت أمّي بما وعدتني أن تكون أمّي ،وألّا أشعر باليتم أبدًا وقد وفيت وعدك لي، أرجوك كن كذلك وأكثر لزهرة أعلم أنك لن تخذلها فأنت لم تخذلني أبدًا، لي نعم الزوج والأخ والأب والحبيب والصّديق والابن ،كنت لي وطنًا وسكنًا فكن لابنتنا زهرة هكذا، لن أقول لك كما اعتدت لا تتزوج وظلّ وفيًا لي، لن أكون أنانية لا أريدك وحيدا وحزينا، دع عنك حزنك وتزّوج وأسعد بحياتك ولكن أحسن الاختيار من أجل زهرة، السّعادة يا أحمد ، السّعادة الّتي منحتني إيّاها معك لا تحرم نفسك ولا زهرة منها ،عش الحياة ولا توقف حياتك بعدي وتعيش وحيدًا وحزينًا، ولا تنسى أن تصلني بصلة الرحم نعم صّلة الرّحم تطيل العمر و أنا أتمنى لك العمر المديد فلا تقطع رحمك ورحمي عائلتنا هي وطننا وبيتنا الّذي نحتمي به، السّعادة في روح العائلة لا تحرم نفسك وزهرة منها، أمّا سلوى فكنت أعتبرها أختي وبالتّالي تعتبر صلة رحم لا تقطعها، ليس لها أحدا بعدي، والجمعية الّتي أنشأتها لا تهملها هي نجاتك ونجاتي من طريق النار ولا تنسى مساعدة الجميع، وأخيرا أحببتك كثيرًا وحبّك هو الّذي أمدني بالحياة، لولاك معي لمت منذ أمد بعيد ،

اعلم أنّني لم أكن أخاف من الموت قدر خوفي عليك من الحزن بعدي، فعدني أن تكف عن الحزن وتجفف دموعك هذه لأنها تحرقني، وسامحني على كذبي عليك كنت أعاني واتألم وأكذب عليك وأقول أنا بخير حتّى لا تتألم، لا تبك حبيبي سنلتقي في الجنّة وامسح دموعك وكفى حزنا وألما. احتضن زهرة وانعم بنوم هادئ وحياة مليئة بالسّعادة و الرضا .

زوجتك المحبة : {سمر}.

بكى أحمد كثيرًا وظلّ يردّد د: - حتّى وأنتِ تموتين وتتألمين تفكرين بي و بالجميع ،آه منك يا حبيبتي إنّه قلبك الطيّب، لم تتلوثي من الحياة ومفاتنها. القلوب الطيّبة ترحل سريعًا لأنّها نجحت في الاختبار وأنتِ لم يكن هناك أطيّب وأحن من قلبك يا سمر، رحمة الله عليكِ يا حبيبتي.

يقرّر أحمد أن يكتب مرّةً أخرى فقد اعتاد الكتّابة كلّ ليلةٍ ولكن منذ موت سمر لم يفعل، أمسك بورقةٍ وبدأ يخط ما يجول بقلبه، لعلّ الورق يحمل القّليل من كثير بداخله، لعلّه يحمل معه بعضا من ألمه وحزنه ،ولم يجد ما يصف به حالته سوى كلمات قرأها من قبل لمحبوب فقد حبيبته :

(إنّ أقسى ما أعانيه في محنتي أنّي أسعى إلى النّاس هربا من نفسي، وأخلو إلى نفسي هربًا من النّاس وكلما شعرت بالحزن والنّاس معي غلبني حيائي منهم فابتسمت، وكلّما وجدتني وحدي حاولت أن أنسى ولكن كيف أنسى من كانت لي الحياة ،لقد كانت هنا وهي الآن ليست هنا، يا ربّ لقد كنت بها كثيرًا فأصبحت قليلًا، كانت لي وحدها أمّا وأبًا وأختًا وصديقة، ففقدت بها الأمّ والأب والأخت والصّديقة، كانت واحة صحرائي ونجم ليلي، فصارت حياتي صحراء بلا واحة وليلًا بلا نجوم ، لقد كنت أعيش على أمل أن أموتَ قبلها فتبكيني وتحنو على ذكري من بعدي، ولكنّك سبحانك أردت أن تموت قبلي، يسألني قلبي عنها فلا أجيب بغير الدموع، فيا ربّ ماذا أقول أنت أعلم بما أريد أن أقول ، فاغفر لي ولها)

تذكر كيف كان يقرأ وهي تسمعه بشغفٍ، تساقطت دموعه وهو يردد:- لم يعد للحياة معنى بدونكِ يا سمر، سأكتب لكِ كلّ ليلةٍ خطابًا، أصف لكِ حالي وأوصف لكِ زهرة وهي تكبّر يومًا بيومٍ.

في الصّباح تذكر أحمد سلوى وكيف أوصته سمر عليها فاتّصل بها ليجد، صوتًا غريبًا يردُ، ليخبره بنوم سلوى الآن وأن يتّصل لاحقًا بها. مرّت أيّام ثمّ عاودت سلوى الاتّصال به والسؤال عن حالته وعن زهرة ، وأخبرته أنّها كانت تتّصل بسناء للسؤال عنهما، أبلغها أحمد اعتذاره عن إهماله للسؤال عنها ، وأن وصية سمر أن يهتم لأمرها ومتطلباتها من أموال وأي علاج، صمتت سلوى قليلًا وبكت ثّم قالت : -رحمك الله يا سمر، لم تنساني حتّى بعد موتها، لن أطيل عليك ولكن لي رجاء وأمنية أن تسمح لي برؤية زهرة، اشتقت لسمر كثيرًا لعّل رؤية زهرة تريحني قليلًا، أتمّنى لو تحقّق لي أمنيتي وتحضر زهرة لرؤيتي .

وعدها أحمد بذلك وبعد أسبوع فعلا ذهب لزيّارة سلوى ومعه زهرة.

ضمتها سلوى وفرحت وكأنّها رأت سمر، فلم تكن سمر صديقة فقط بل أخت وفية، أعانتها وكانت سندًا لها عندما باعها وتخلي عنها الأهل والأحباب . وأحضرت سلوى لعبًا وحلوى لزهرة، وأخذت تلعب حولهما بينما بدأت سلوى تحكي لأحمد عن أحوالها وكلّ ما حدث بعد موت سمر: - تعلم لقد حاولت الانتحار مرّتين ، فقدت رغبتي في الحياة ولم أعد أملك القّوة والتّحمل للعيش، و بعد أن تحسنت سألت عنكم وصدمت لحالتك وقتها ، ولكن تعجبت مما وصلت له وسألت نفسي عن حالتك كيف لرجل بقوة إيمانك أن يسقط هكذا وينهار؟! ضعفت أكثر فكيف أقوى أنا رغم ضعفي علي فراق سمر، إذا كنت أنت بقوتك وأهلك وعزوتك لم تقوى على الصدمة

رد أحمد على سلوى:- إنّه الحب والتّعلق فلا قوة تفوقهما، ومهما بلغ إيماننا لكل منا نقطة ضعف ينهارُ عندها وقد يكون ابتلاءً واختبارًا لإيمانه ،إن لم ننسى ونتجاوز قد نموت، الحمد لله كان اختبارًا قاسيًا لكن مرَّ واجتزنا إيّاه برحمة الله بنا.

أكملت سلوى بأسى :- الحمد لله ، بعض المضرات نافعة، أظنّك تذكر هشام كيف ضيّعني وأفقدني أطفالي للأبد، عندما سألني الطّبيب عن حبي لهشام انهرت وغضبت كيف أحبُّ هشام بعد ما أوصلني له هل يُعقل كيف أحبّه ؟!، ظلّ الطّبيب يستفزني حتّى انهارت أعصابي، نعم أحببته رغم كلّ الألم الّذي سببه لي، فالحب ملازم للألم فأينما وُجد الحب وُجد الألم، كنت أذهب كلّ يومٍ لرؤيته رغم أنّي أتألّم لرؤيته مع غيري، فأموت أكثر وأكثر بحجم الكثرة في كلّ شيء، لكنّني أرفض هذا الحب ولن أستسلم كيف أحب من كان سبب ضيّاع أولادي ، نيران تشتعل بداخلي أحاول كلّ يومٍ أن أنسى دون جدوى، أصبحت أدعو له بالهداية ،حتّى بدأت أتحسن قليلًا وأقوى بنفسي بالله ،وفي أحد اللّيالي حدث حادث انقلبت سيارة قريبًا من المستشفى، وأحضروا المصابين كان هشام ومعه فتاة أخرى، كانت حالته خطيرة جدًّا نُقل للعناية فورًا في حين ماتت الفتاة لحظة وصولها، أمّا هو ظّل في حالة خطرة عدة أيّام ، وأنا أبكي وأدعو له، بقيت ساهرة على رعايته حتّى استرد عافيته ، ولكن فقد ساقيه وسيعيش عاجزًا طول حياته، عندما علِمَ بالأمر انهار وظلّ تحت العناية خوفًا أن يحاول الانتحار.

لم أشمت به ولكن حزنت عليه ، وكيف لا وهو حب عمري مهما فعل لم أكرهه، ظلّ شهرين في المستشفى للعلاج ، وبمّا أنّ لا أحد معه كنت أذهب للبيت لعلاجه ورعايته تصارحنا بألمنا وتصافت قلوبنا و قرّرنا الزّواج وهو من ردَّ على اتّصالك، بارك لها أحمد بزواجها من هشام و قال :- سبحان مغيّر الأحوال ، صدقتِ حقاً، رُبَّ ضّارة نافعة إنّها الأحوال، فالحمد لله على كل حال، أقدارنا كُتبت علينا ولا حول لنا ولا قوة بها، أتّمنى لك السّعادة وراحة البال.

شكرت سلوى أحمد لاهتمامه ، وودعت زهرة وتمنت زيارة أخرى.

كان أحمد كلّ ليلةٍ يقرأ رسالة سمر ويدعو لها ويقرأ القرآن ، ثّم يصّلي الفجر وينام.

وذات يوم استيقظ على صوت زهرة تبكي، وتنادي عليه قام مفزوعًا، وزهرة تردّد وتقول جدتي لا ترد عليّ ، يدخل الغرفة ليجد والدته ملقاة على سجادة صّلاتها، يحاول إفاقتها

ليكتشف أنّها فارقت الحياة، يبكي ويحتضن زهرة، وهو لا يعلم هل يبكي والدته أم يبكي سمر أم يبكي على كلّ غالٍ فقده في رحلة حياته.

من ذلك اليّوم تولي أحمد كلّ شيءٍ؛ كان يرفض أن تدخل خادمة غريبة للمنزل، كانت منال تأتي كلّ عدّة أيّام تساعده وتحضِرُ خادمتهم لتنظيف الفيلا، أمّا يوم الجمعة اعتادوا أن يقضوه مع العائلة، حاولت منال إقناع أحمد بالانتقال هو وزهرة للعيش معهم، ولكنّه يرفض أن يترك الفيلا الّتي شهدت أيّامه وذكرياته مع سمر.

في بيت العائلة ،تلعب زهرة مع أولاد خالها حسين، فقد أنجب أربع أطفال (طارق الأكبر ثم علا والتوأم (حسن وسمر) ، كانت زهرة سعيدة باللّعب معهم ،وتتّمنى لو ظلّت هناك ،لكن أحمد لا يستطيع العيش بعيد عن ذكرياته بمنزله فهو يشعر بوجود سمر معهما .كانت زهرة تقضي أغلب وقتها مع الجدة منال والعائلة، وفي العطلة تأتي مايا وجاسر وأولادهما من ألمانيا؛ تتجمع العائلة بالبيت الكبير، تظّل زهرة معهم طوال اليّوم وفي المسّاء يأتي أحمد لاصطحابها للفيلا.

مرّت سنوات وسنوات وكبرت زهرة، واختارت دراسة علم النّفس بكلّية الآداب كانت تشبه سمر والدتها في كلّ شيءٍ، تحب القصّص والشعر وتعشق القراءة، وكيف لا وقد اعتادت سماع القصّص وهي ما زالت في رحم أمّها، و أحمد يرويها لسمر بحبٍ وبعد ولادتها و مازالت حتّى الآن لا تنام إلّا على حكايات وقصص والدها الحبيب ؛ فعشقت الأدب وصارت تكتب شعرًا وقصصًا. كان أحمد يشجعها ويتمنى أن تصبح أديبة كبيرة ذات يوم ، مثلما كانت سمر تحلم له بذلك لكنّه اعتبرها هواية له.

في الجامعة تجلس (نور) بصمتٍ ، تترقب العابرين حولها ، تنتظر صديقتها زهرة ، عندما تصل زهرة تتبادلان التّحية وتذهبان معا للمحاضرة، لقد أحبت دراسة علم النفس كثيرا، لعلها تجد ضالتها، منذ صغرها تشعر إنها مريضة نفسية ، أوعلى الأرجح أنها محاطة بمرضى نفسيين، لقد تربت في أسرة متوسطة الحال، الأب بائع خضروات والأم سيدة منزل، لم يكن لها أخوة ولا أخوات علمت من والدتها أنّها حملت مرّات عديدة ، لكن كان الحمل لا يكتمل ، افتقدت لمة العائلة من صغرها ، لم تكن تسمع من أبيها غير السب

واللعن لأمّها المسكينة وتهديدات بالزّواج بأخرى ؛ لتنجب له الولد المنشود ،لا تعرف لماذا تتذكر الآن كل هذه الذكرّيات المؤلمة، وهل نسيت يوما؟!

لعلّه عنوان المحاضرة التّي ستُلقى اليوم، (التفكك الأسري وأثره علي الأبناء)، حضر الدكتور للقاعة حاولت نور أن تركز معه ما أن سمعت، أن التفكك الأسري صخرة تتحطم عندها نفسية الأبناء ، حتى عادت بالذكريات للماضي: عندما تزوج أبيها بأخرى، وطردها مع أمها، الّتي لم تكف عن البكاء أبدا. لتذهبا لبيت جدها الذي ما يلبث أن يموت بعد عدة أشهر، ليتركهما بلا عائل، كانت أمّها تتّسول كل شهر من أبيها بعض الأموال التي لا تكفي شيء، تعلمت أمّها الخيّاطة من جارتها، ظلت تسعى على رزقها منكبة على ماكينة الخيّاطة ليلا نهارا، لتُربي نور وتعلمها بعدما انقطعت الأموال الشّهرية الّتي تتسولها من أبيها، اعتمدت أمّها على عملها، حتّى مرضت بالسرطان وصارعت مع المرض سنوات، تموت أمّها وهي بالسنة الثانية من الجامعة، امتلأت عيونها بالدموع وتذكرت وقتها كيف غلبها اليأس وامتنعت عن الدراسة ؛حتّى أتت زهرة لزيارتها وأقنعتها بالعودة للدراسة، بل وعرضت عليها أن تظّل معها طوال اليوم بالفيلا وتأتي للنوم فقط ، تتذكر زهرة أيضا ما حدث مع نور خوفها أن تعرض على نور أموالا للمساعدة ، لكنّها عرضت عليها العيش معها وعندما رفضت نور، اقترحت أن يظّلا بالجامعة ثمّ يذهبا للدراسة بفيلا زهرة حتّى يأتي موعد النوم ، مبررةً لها ذلك بأنها تشعر بالوحدة فأبيها دائما بالعمل ، لقد أحست زهرة بقسوة الحياة على نور ووحدتها، فهي فقدت أمّها أيضا وهي مازالت طفلة بالكاد تتذكرها من الصّور فقط ، لا تمتلك معها أيّ ذكريات ،بعد محاولات مضنية وأسبوعين من الإلحاح من زهرة وافقت نور علي مضض، كانت تذهب مع زهرة وتنهي مذاكرتها قبل وصول أحمد.

تهز زهرة نور لتوقظها من عالم الذكريات المرير ،الذكريات التي تطاردها أينما حلت كأنها لعنة، تنتهي المحاضرة بما جلبته من ذكريات مؤلمة

تتجه نور مع زهرة للفيلا ككل يوم ،لم تكن المرة الأولى التي تدخل فيها نور فيلا زهرة ، لكنها أول مرة ترى أحمد ، لتقف متصلبة كالتمثال لم تنطق بكلمة ، كأنها تري نجم سينمائي

، لطالما عشقت القصص والمسلسلات خاصة تلك التركية والهندية التي تصور الحب بأبهى صوره ، مما جعلها ترسم وتتخيل حبيبها ، وتتمني لو عاشت الحب الذي حُرمت منه، لقد غابت عن الواقع تماما وتخيلت أحمد معها يرقصان علي أغنية رومانسية والورود تتساقط عليهما وخصلات شعره الأبيض تزيده وقارا وتزيدها عشقا ، تمنت أن يكون أبا وأخا وحبيبا لها كما سمعت عنه من زهرة، كانت زهرة قد روت لها قصته ووفائه لزوجته، وعدم زواجه بعدها لأنه عشقها عشقا خياليا ليس له مثيل فزاد إعجابها واحترامها له. تنتبه نور علي صوت زهرة ليعيدها من أحلام اليقظة الجميلة، وزهرة تعَّرفها بوالدها وهو يرحب بها ،ابتسمت له و انصرفت مسرعة قبل أن ينكشف أمرها ويسمع أحدهما دقات قلبها الذي يقرع طبولا احتفالا بفارس الأحلام الّذي ظهر أخيرا.

ودعت نور زهرة ، لتذهب لمنزلها وحيدة وحزينة ، ظلت شاردة الذهن تفكر حتى آذان الفجر، توضأت وصلت لكنها سمعت صوتا غريبا ، كأن أحدا يحاول فتح باب الشقة ، ذهبت مسرعة للباب لتجد شابان يحاولا فتح باب شقتها؛ تصرخ صرخات متتالية.

الفصل السابع والعشرون

يتجمع الجيران على صرخات نور ، ولحسن حظها كان المصليين يخرجون وقتها من المسجد وكان أحمد معهم ،فمنزل نور في أخر الشارع بجوار المسجد الذي أعتاد أحمد الصلاة فيه ، ورغم أن هذه المنطقة يكثر فيها الفيلات والمباني الشاهقة ، وفي البداية كانت منطقة هادئة جدا، الآن لم تخلو من العشوائيات؛ فبعض الناس وضعوا أيديهم على أراضي الدولة وقاموا بالبناء عليها دون حق، ومنهم من دفع غرامات للدولة أوله قضايا، فبدأ يظهر غرباء بالمنطقة وزادت الحوادث من سرقة وخطف.

اتّجه الجميع نحو منزل نور- كان المنزل طابق واحد بناه جدها رحمه الله-، عندما وجدت نور أحمد ارتمت بحضنه وهي ترتجف وتبكي بشّدةٍ، جذب الشباب السارقين للخارج وتم تسليمهم للشرطة ، ثم صمم أحمد أن تجمع نور ملابسها وأشيائها وتذهب معه حالا للفيلا ودون نقاش منها ، لم تستطيع نور الرفض جمعت بعض الأشياء الهامة وهي تبكي وذهبت مع أحمد.

في الفيلا دخلت نور وهي حزينة باكية، فعزة نفسها تمنعها من أن تظهر فقيرة وبائسة ، ينادي أحمد على زهرة فتنزل مسرعة تجد نور أمامها ، تنظر بتعجب؛ يخبرها والدها ما حدث هناك وبقراره أن نور من اليّوم ستظّل معها هنا ، وطلب منها أن تأخذ نور معها لغرفتها تضم زهرة نور وتواسيها وتحمد الله علي سلامتها ، وتفرح بقرار والدها ، فقد كانت أمنيتها أن توافق نور وتعيش معها، لكن نور ظلت عابسة ولم تنم أبدا.

في الصّباح يجهز أحمد الإفطار، وينادي على زهرة، بينما نور ترفض أن تنزل معها، متحججة أنّها لم تنم وستنام بعض ساعات، وافقت زهرة وتركتها على راحتها. ظلّت نور طوال اليّوم بالسّرير مدعية النوم، ليس نومًا ولكن هروبا من واقع ترفضه، فهي تتألم لحاجتها وفقرها وتنعي حظها العسر،بالأمس تمنت أن تأتي إلى هنا سيدة للبيت وزوجة لأحمد ،الّذي شغل بالها وقلبها واليوم تأتي مشردة ذليلة ،عالة عليهم وكأنّهم يتصدقون عليها ، نعم يحسنون معاملتها وزهرة تعاملها كأخت وهو ينظر لها كابنة له، لكنّه شعور مؤلم يمزق كرامتها وكبريائها تتمنى الموت على هذا الألم ، كيف تواجهه بحبها ، كيف وهو لا

يراها غير فتاة تحتاج عطفه ، الهواجس والظّنون لم تترك نور حتّى غلبها البكاء وملأها الحزن. لكن زهرة لم تيأس وظلّت تحاول معها حتى خرجت من الغرفة للحديقة ، وظلّتا تتحدثان عن الجامعة والمحاضرات ،كانت زهرة سعيدة جدّا بها ، وأخبرتها أن تجهز لها غرفة أخرى لتكون على راحتها فالفيلا كبيرة ، لم ترد نور عليها، كانت شاردة في حزن عميق. بينما واصلت زهرة الحديث عن مشاعرهما وما سيفعلان خاصة في الإجازة ستكون أيّام حافلة بالمغامرات والسّعادة، لعب ورقص وغناء وقصّص ومسلسلات ، كانت زهرة متحمسة بينما نور لا ترد، انتبهت نور على صوت أحمد ينادي زهرة ، فارتجف جسدها خجلًا وحبًا وهمست لنفسها : - ليته يعلم مشاعري ، لعشنا أجمل الأيّام معا، لكنّه يعيش في صومعته، وسط ذكرياته مع زوجته ولن ينتبه لي أبدًا.

بعد تناول العشاء ألقى أحمد عليهما تحية المساء وذهب للنوم ، بينما ظلت زهرة تحكي دون توقف، تنعتها نور لكثرة كلامها(الرغاية) ، وترجوها أن تتوقف قليلًا معلنة أنّها لن تظل هنا طويلًا ، لتُصدم زهرة بالخبر وتحطم أحلامها وفرحتها، فقد قررت نور أن تذهب لأبيها وتتّحمل معاناتها مع زوجته وتطلب من زهرة ألّا تناقشها في الأمر ،وتذهب للنوم تاركة زهرة في حزن كبير، بعد أن ذابت كلّ أحلامها.

في الصّباح تستيقظ نور مبكرًا تأخذ حقيبتها ، وتتجه لمنزل والدها الّذي تركته منذ سنوات طويلة ، دقت الباب وانتظرت والدها أن يفتح، وهي تسأل نفسها :- هل سيعرفني؟

لكن يفتح شخص آخر غريب وليس والدها، تسأله نور عن والدها، لتكتشف أنّه ترك المنزل منذ سنوات وسافر للعمل بالإسكندرية واستقر مع أسرته الجديدة، ولا أحد يعلم عنوانه هناك. تكاد أن تفقد توازنها من الصدمة ،تبكي متسائلة:- هل لهذه الدرجة لا يهمه أمري ؟، سنوات ولم يسأل عني أو يشتاق لي، ألستُ ابنته ومن دمه أيّ نوع من الآباء هو؟، هذا ليس أب ،إني أكرهه وأتمنى أن يموت ، رحمكِ الله يا أمّي لم يعد لي أحدا بعدكِ ، ليتني مت معكِ ،يا رّب ليس لي غيرك، أين أذهب الآن؟.

فجأة وهي تسّير بالشّارع باكية ، تجد أحمد وزهرة أمامها ،تنهار وترتمي بحضن زهرة ، مرددة بحزن :- لقد رحل أبي يا زهرة ، رحل للعمل بالإسكندرية ولم يهتم بي ولا بوجودي ، آه يا أمّي ليتني أموت لأكون معها.

تبكي زهرة معها وتحاول تهدئتها ، ثم تركبان السّيارة وتتجهان إلى الفيلا ، يعمّ الصّمت والحزن على المكان.

تذهب نور للغرفة لترتاح ، تود زهرة الذّهاب خلفها ، لكن أحمد يشير لها أن تتركها ترتاح فهي عانت كثيرا وتحتاج أن تبقى وحدها لترتاح، و ترتب أفكارها وتهدأ قليلًا.

مرّت شهور ونور يزداد تعلقّها بأحمد ،لم تكف عن التّفكير به ، تنام وتصحو على صورته وصوته، أصبح فارس أحلامها وحلم حياتها .لكنّها حزينة لعدم انتباهه لها، يعاملها كابنة له فقط، وهي لا ترضى بذلك، متى ستحقق حلمها؟، متى سيرقصان على أنغام الموسيقى الهادئة؟، كلّما قرّرت أن تبوح له تخجل وتتراجع حتّى فكرت أن تكتب له رسالة ،كتبت ومزقت آلاف الأوراق ،وأخيرا كتبت رسالة تبوح له بمشاعرها، وعطرتها ووضعتها على سريره مع وردة حمراء، ظّلت ساهرة طوال اللّيلة تنتظر أن ينادي عليها، تنتظر رده ولو بالرفض، لكنّه لم ينطق بحرف، مرّت لّيالي طويلة وهي تموت شوقا له وحيرة من أمره، فلا هو وافق وبادلها الحب كما تمنّت ولا هو رفض وأراحها من أوهامها تلك. حتّى جاء يوم الجمعة الّذي تذهب فيه زهرة ووالدها لبيت العائلة، كعادتهما منذ سنوات ولكن نور كانت ترفض دومًا الذّهاب، فلا تحب زهرة أن تغصبها وتلح عليها، استأذن أحمد بعد توصيل زهرة وأخبرها بأنه سيذهب ساعة لمقابلة صديق ويعود، اتّصل أحمد بنور ليخبرها أن تجهز نفسها وسوف يأتي لاصطحابها في مشوار، طارت نور من السّعادة ظنّت أنّه سيعترف لها بحبه. ويريد أن يفاجئها كما حلمت وتخيلت، لعله ينتظرها في مكان أكثر رومانسية كما ترى في المسلسلات، ظلت تحلم حتى وصل أحمد وخرجت لمقابلته وركبت السيارة معه وانطلق، ظل أحمد صامتا طوال الطريق حتى وصلا لحديقة قريبة، بدأ أحمد الكلام معتذرا لها عن تأخره بالرد على رسالتها ، فلم يجد الوقت المناسب للرد لذا أحضرها إلي هنا ، ثم قال لها: - لا نستطيع الكلام وحدنا بالمنزل ، لتسمعيني جيدا وتفهمي ما

سأخبركِ، أريدكِ أن تفهمي كلامي دون غضب، لأن جلوسنا هنا أيضا خطأ كبير، بلدنا صغيرة وأخشى عليكِ من كلام الناس فأنت مثل زهرة تمام.

عبست نور من كلامه ، وظلت صامتة . بينما استطرد حديثه :- أنا أقدر مشاعركِ نحوي ولكن واجبي توجيهكِ، ما زلتِ صغيرة واختلطت عليكِ المشاعر، افتقادكِ والدكِ وحبه وحنانه؛ صور لكِ مشاعركِ نحوى بغير ذلك، الإعجاب والتعلق ليس حبا ، أنتِ عندي مثل زهرة ابنتي الصغيرة لا فرق بينكما أبدا، سوف تقابلين فتى أحلامكِ وسأزوجكِ له يوما ما باعتباري أبًا لكِ، وهذا وعد مني . فلتنسي كل ما حدث وتعتبريه لم يكن، المهم أن تركزِي على دراستكِ، وتهتمي بدروسكِ لا تدعي الفراغ يغلبكِ بأوهام وظنون.

كانت نور تنصت إليه بتوتر، امتلأت عيونها بالدموع وأحمرّ وجهها خجلا، وهزت رأسها بالموافقة ولم تقو على الكلام أبدا ولا النّظر إليه، خجلت من نفسها وتمنت لو ابتلعتها الأرض، وظلّت أيّام تتجنب مقابلته.

مرّ العام و انتهت الامتحانات ، وكان موعد نزول مايا وجاسر وأولادهم لمصر ككل عام، وبالتالي الذهاب لبيت العائلة حيث لا تحب نور الذّهاب معهما ولكن لن يكون يوما ككل أسبوع.

فالعُطلة شهر كامل تقضيه زهرة مع العائلة هناك، فلابد من الذّهاب معها وإلّا كيف تجلس وحدها بالفيلا، اضطرت نور للموافقة رغم أنّها تشعر بالحرج والخوف، فمهما يكن هي ليست من العائلة، ولكنّها مجبرةً وليس لديها خيار آخر.

ذهب الجميع إلى بيت العائلة ونامت نور مع زهرة بغرفتها الّتي كانت غرفة سمر من قبل، كانت زهرة سعيدة ومتحمسة تخطط للأيّام والليّالي المقبلة، تحلم بالألعاب والسّهر والأحاديث مع الجميع.

لم تكف زهرة عن الكلام منذ وصولهم ظلّت تحكي لنور عن مايا وجاسر وأولادهم، حتّى نامت نور منهكة من التّعب. ابتسمت زهرة وقالت هل أنا حقًا كثيرة الكلام، لنكتفي بهذا

القدر الليلة، أطفأت الأنوار وخلدت إلى النوم. في الصّباح ذهب أحمد ومعه طارق للمطار واستقبلوا الأهلَ جميعًا وعادوا بسلامٍ للمنزل وبعد التّرحيب بهم تناولوا الغذاء بسعادةٍ.
شعرت نور بالسعادة رغم خجلها فهي تفتقد جو العائلة وأحست اليوم بشعورٍ غريبٍ ،دفء ومودة ورحمة كأنّها وسط أهلها ، حقًّا الآن عرفت ما تقصده زهرة وما كانت تعنيه والدتها رحمها الله بأنّ الحياة هي حضن العائلة.

في المسّاء اجتمع الشّباب والبنات في الحديقة ،البنات تحكي عن الملابس والموضة والأفلام والمسلسلات والقصّص والرّوايات الّتي قرأنهن والشّباب عن كرة القدم والدّراسة ومشاريع المستقبل.

التفت كريم بن جاسر لنور يسألها:- من تكونين ؟ فأوّل مرّةٍ أراكِ هنا .

صمتت نور قليلا وانبهرت بوسامته، ورائحة عطرة الّتي تفوح مثل عبير الزّهور، وعندما تلاقت عيونهما أحستْ برعشةٍ تسري في جسدها، وكأنّ قلبها يعزفُ ألحانًا جميلة والكون كلّه يرددها و كأنّ الرّبيع والخريف والصّيف والشّتاء اجتمعوا في لحظةٍ واحدةٍ، وجهها يعتريه نار الصّيف خجلًا وقلبها يرفرفُ كعصفور وسط حديقة بأزهارها العطرة ربيعًا، وأوراق الأشجار تتساقط فوق رأسها خريفا وكلماته تتساقط على مسمعها كأمطار شتوية فتنبت فرحًا وسعادةً، طال انتظار كريم ردًا منها لكنّها شاردة كأنّها في عالم آخر.

أنقذت زهرة الموقف وأبلغت كريم أنّها نور صديقتها وتعيش معها هنا بعد وفاة والدتها ،أكملت زهرة التّعارف وسلمت نور على الجميع والكلّ رحب بها، بينما ظلّ كريم يسترقُ نظراته لنور الّتي سعدت بها لكنها خافت أن تحلم وتتهدمُ قصور أحلامها مرةً أخرى، فحاولت ألّا تتّعلق به وتذكّرت السّر الّذي تخفيه عن زهرة وانقبضَ قلبها، انتهت السّهرة وذهب الجميع للنوم.

في الغرفة تنظر زهرة لنور بسعادة مرددة :- أعتقد سيكون هناك قصّة حب كبيرة ،كريم لم يرفع عينه عنكِ، إنّه الحب من أوّل نظرةٍ.

ترد نور مستنكرة :- حب!، الحب لم يُكتب لي يا زهرة، فلا تبني قصورًا على الرمال فتهدمها أمواج الفوارق والطّبقات أين أنا منه ؟!، هو طبيب و يعيش في ألمانيا، هناك فارق مادي واجتماعي كبير بيننا، لا تحلمين، لقد كففت عن الأحلام وقررت أن أعيش الواقع.

تعبس زهرة مرددة : - ماذا تقولين ؟ هل حقًا هذا تفكيرك طبقات وماديات، لا أعتقد أنّ كريم يفكر هكذا؟!،هو يتعامل بتواضع وأخلاق لم أشعر بغروره أو تعاليه، ولا أحدًا منا يفكر هكذا، أنتِ الآن من العائلة، لا تعيشي دور الحزن والألم، افرحي قليلًا.

ترد نور بأسى وحزن : - أيّ حب يا عزيزتي ؟!، مجرد إعجاب لا تتسرعي كعادتكِ، دعكِ مني الآن وأخبريني ماذا عن طارق ؟

تتعجب زهرة : - ما به طارق !، إنّه ابن خالي حسين كما تعلمين وأعتبره أخي وصديقي.

تضحك نور مرددة :- هل تمزحين معي ؟، طارق يحبكِ وهذا يظهر جيّدًا ،هل حقًا لا تعلمين أم لا تريدين إخباري بالأمر؟، هيا اعترفي يا صديقتي .

تبتسم زهرة مستنكرة : - أنتِ من تمزح ،لا شيء من ذلك أبدًا، ماذا حدث لكِ؟! لقد تعودتِ على الكلام الكثير أيضًا هيا نامي أفضل لكِ.

ترد نور ضاحكة : - حقًا أنا كثيرة الكلام ؟!، نامي أيّتها الملاك الهادئ قليل الكلام تصبحين على خير.

تحاول نور النوم ولكن تظلّ كل منهما ساهرة تحلم بفارسها ،أحلام وردية وتبنى قصورًا من الخيّال ،حتّى يغلبهما النوم.

في الصباح يستيقظ الجميع مفزوعين على صراخ بالشّارع .

الفصل الثامن والعشرون

امتلأ الشّارع بالنّاس من كلّ مكان، الرّجال والشّباب خرجوا مسرعين لمعرفة ما يحدث ،بينما البنات والنّساء ظلّلن يتابعن الأحداث من النوافذ دون أن يفهمن شيئًا .

دقائق وعاد الجميع بحزن وألم ، والنّساء والبنات كلّهن حيرة و رغبة في معرفة الأسباب ، ارتاح الجميع في مقاعدهم ليخبرهم أحمد في أسى :- أنّ حادثة ما سارت مع ابنة الجيران (حنين) ونُقلت للمستشفى أمس وللأسف لفظت أنفاسها الأخيرة منذ قليل وأمّها وأهلها منهارين، رحمها الله وعافانا من نار الفراق، أدعو لها بالرّحمة ولأهلها بالصّبر.

حزنَ الجميع لمَّا سمعوا وخاصّةً زهرة و نور فقد كانت حنين زميلتهما بالجامعة، منذ شهرين تمت خطبتها لمعيد بالقسم، تم تحديد زفافها وكانت ستتزوج بعد شهر، وعقد قرانها كان من أيّام قليلة، وتعجبًا ممَّا حدث وبدا عليهما الحزن والتوتر.

كان اليّوم حزين على الجميع، ذهبت منال وزوجة حسين للعزاء، بينما أوصتهما زهرة بمعرفة تفاصيل الحادث فهي تشعر بلغز ما في الأمر وتريد أن تفهم ما حدث لصديقتها، كانت تود الذهاب هي ونور لكن أحمد منعهما.

ظلّت زهرة قلقة تنتظر عودتهما، فهي تكره الانتظار ولا تتحمل؛ غضبت نور من قلقها وتوترها فقد وترت الجميع، وطلبت منها أن تهدأ وتنتظر عودتهم من العزاء، وصلت منال فأسرعت زهرة إليها تحثها علي إخبارها بما علمت.

تحدثت زهرة بتوتر وقلق :- أنا قلقة جدًّا ،هيا يا جدتي رجاء احكي بسرعة، كيف ماتت حنين ؟

التقطت منال أنفاسها وجلست مرددة: -اصبري يا زهرة، لا حول ولا قوة إلا بالله ، ادعي لها بالرّحمة ولأمّها بالصّبر ،لا داعي للكلام ابنتي الأمر صعب جدًّا، حسبي الله ونعم الوكيل في كلّ ظالمٍ .

اقتربت زهرة من جدتها وقالت في توسل : - أرجوكِ يا جدتي، بالله عليكِ أخبريني، أنا تعبت من التّفكير والانتظار ،لن أهدأ ألّا إذا علمت ، حنين كانت صديقتي، أنا أيضًا أشعر بنار من فقدها أخبريني.

هزت منال رأسها بأسى مرددة :- الأمر لله، أعلم أنّكِ عنيدة ولن تتركيني حتّى أخبركِ، فاسمعي ما حدث (حنين كانت تجهز لزفافها، خرجت لشراء مستلزمات لها، والدتها كانت ستخرج معها، لكن حدثت ظروف ولم تخرج معها، لأوّل مرّةٍ تخرج حنين وحدها وتركب تاكسي وللأسف السائق خدرها وأخدها لمكان بعيد واعتدى عليها ومعه آخر، نزفت فنقلوها ورموها أمام المستشفى ،لكن ماتت رحمة من الله.

رحلت حنين لكن تركت النار لأمّها والحزن للجميع، اللّهم استرنا جميعا وألهمنا الصّبر.

كانت زهرة ونور تبكيان بشّدةٍ، وزهرة تُردد:- هل أصبحنا في غابة ؟،لا أتّخيل ما حدث، آه يا حنين آه يا حبيبتي رحمك الله ، يا رب صبرًا.

استطردت منال بحزن : - المصيبة الأكبر أنّ ابنة عمّها هي من استأجرت الشّابين لفعل الجريمة؛ أعمتها غيرتها من حنين وحقدها عليها، فاتفقت على خطف حنين وأخافتها، وقد هربت ابنة عمّها مع زميلها الذي شاركها في تخطيط الجريمة عندما علمت بموت حنين، الحقد أعمى القلوب رحمتك يا ربّ بنا، ما الّذي حدث ؟!، اللّهم لطفك بما جرت به المقادير، والدها أصابته جلطة وفي حالة خطرة بالمستشفى وأمّها في حالة يرث لها، ليتولاهما الله برحمته الواسعة، وخطيبها يبحث مع الشّرطة عن المجرمين ويتوعد بالانتقام منهم .

رجع الرّجال والشّباب من العزاء، فأسرعت البنات لغرفهم وهن تبكيْنَ من الصّدمة والحزن على، وعندما علم أحمد أن منال حكيت لهم تفاصيل الجريمة، شعّر بضيقٍ وغضبٍ شديد، لأنّ نفسية البنات سوف تتعب والخوف سوف يسيطر عليهن، ويفقدوا الثّقة في الجميع. تأثرت منال بشدة واعتذرت منه، وأخبرته أنّ زهرة أصرت عليها لتحكي ولم تتركها منذ عودتها .

ربت أحمد على كتف منال بعطف مرددا : - لا بأس أمي، لا عليكِ، أعرف زهرة وفضولها ،سوف نجد حلًا بإذن الله.

مرّ يومان وزهرة حزينة لا تتكلم مع أحد ، صدمتها كبيرة ليس فقط بموت حنين بل من غدر ابنة عمّها بها، لهذه الدرجة وصلت خيانة البشر، ملأها الخوف وشعرت أنّ الدّنيا أصبحت غابة كبيرة والنّاس وحوش تفترس بعضها البعض ،ازداد الأمر سوءً عندما مات والد حنين بالمستشفى وبدأ الصّراخ يتعالى وأصبح الحزن يخيّمُ على المدينة بأكملها، تعبت نفسية زهرة أكثر؛ أخذها أحمد للفيلا هي ونور لتبتعد عن جوّ الحزن وتتّحسن، ولكن لا فائدة، فقرّر أحمد سفر الجميع للقرية السّياحية (زهرة سمر)الّتي شيّدها منذ فترةٍ، الكلّ يحتاج تلك الرّحلة لتحسين نفسيتهم بعد هذا الحزن العميق. وصل الجميع للقرية السّياحية، المنظر رائعًا مياه البحر الصّافية الزرقاء، والشاليهات منسقة تنسيقًا رائعًا، وأشجار الزّينة والرّمال الساحرة وحمامات السّباحة مصممةً تصميمًا هندسيًا رائعًا، وعلى الشاطئ جلس المصطافين يتمتعون بجمال الطّبيعة، والأطفال يمرحون بالسّباحة ولعب الكرة ،ويبنون قصورًا وبيوتًا من الرّمال تأتي أمواج البحر وتهدمه فيضحكون ويفرحون، كلّ ذلك يعطي الكّثير من الطاقة الإيجابية والسّكينة الّتي افتقدها الجميع، فلينعموا ببعض الرّاحة من عناء الحياة. جلس الجميع يتبادلون الحديث ويتمتعون بهذا الجوّ السّاحر المريح للنّفس قبل العين، البنات جلسن يتسامرن ببعض الألعاب الورقية والألغاز والقصّص، بينما الشّباب كانوا يستمتعون بالسّباحة وألعاب الماء، تناول الجميع وجبة الغداء واستراحوا قليلًا بالاسترخاء على الشاطئ، ثّم اقترح طارق لعب الكرة وعمل فريقين بنات وشباب ، لعلّ زهرة تنسى وتمرح معهم فهي تعشق كرة القدم ، بدأت المباراة و اندمجت زهرة وبدأت تفرح وتمرح معهم، وتعالت ضحكاتهم وصخبهم، وأخيرا تنّفس أحمد الصّعداء بعد أن رأى ابتسامة زهرة تعود لها بعد غيابِ أيّامٍ ،انتهت المباراة بفوز فريق البنات مما أدخل السّعادة لقلب زهرة .

ذهب الجميع للرّاحة ، وفي المسّاء لم يكن المشهد بأقل روعة فالسّماء صافية تملؤها النجوم والقمر منير، ومتعانق مع البحر كلوحة فنية ساحرة والأضواء والزّينة المعلقّة على الأشجار وبطول الطّريق للبحر تجعل الإنسان لا يقول إلّا سبحان الله المبدع، جلس الجميع لتناول العشاء على شاطيء البحر بسعادة ، ثّم انصرف الشّباب والبنات للتمشية على

الشاطئ، ثمّ جلسوا على الرّمال يتسامرون في سعادة، يتعّمد كريم الجلوس قريبا من نور، تفضحه نظراته لها وهي تخاف أن تتّعلق به ، تعلم الفرق الكبير بينهما ماديّا واجتماعيًا، لا تريد أن تحلم كثيرًا بجانب الألم الّذي تعاني منه ،ذلك السّر الّذي تخفيه حتّى عن زهرة ، تمرّ بوقت عصيب جدًّا ومشكلة قد تنُهي مستقبلها كلّه لذلك دائمًا شاردة ، ولا تشعر بالسّعادة الّتي تتظاهر بها ، تبتسم حتّى لا تلفت الانتباه ولعلّ مصيبة فقدان حنين ،أتت في وقتها لتُخفي بها سر تعاستها.

كان عيد ميلاد زهرة بعد أيّام؛ فبدأ أحمد يرتب مع الشّباب تجهيزات الحفلة ،ولكن طارق أراد أن يحدثه منفردًا ليخبره بأمر ما، نظر الشباب له وسألوا ما الأمر؟! ولكنهم انشغلوا في الزّينة والتّرتيب،حتّى انتهى أحمد وطارق من حديثهما، رجع طارق فرحا يبدو عليه السّعادة مردّدًا:- يا شباب أكثروا الزّينة والأضواء لأضعافها، فالمناسبة مناسبتان والفرحة فرحتان ،حاول الشّباب الاستفسار عن السبب ولكنّه تركهم بحيرتهم وذهب، بينما اتّصل أحمد بسلوى وهالة وهيام للحضور للحفلة فهو يعتبرهم من العائلة، وأبلغهم بإرسال سيارة لإحضارهم غدًا.

حاول طارق التّحدث مع زهرة بعيدًا عن الجميع، ليبلغها بحبّه ورغبته بالزّواج بها حتّى حانت له الفرصة وبدأ الحديث.

جذبها طارق بعيدا مرددا: - وأخيرًا أصبحنا وحدنا ،أريدكِ في أمرًا هامًا، ما رأيكِ بي ؟

تعالت ضحكات زهرة: - ها ها ها، هذا هو الأمر المهم ،لا وقت للمزاح.

وهمّت زهرة بالانصراف .

استأنف طارق متأففا منها:- انتظري، أنا لا أمزح، حقًا كنت أريد أن أعرف رأيكِ بي، الموضوع باختصار أنا أحبّكِ وأريد الزّواج منكِ، هل توافقين ؟

صمتت زهرة قليلًا واحمرت وجنتاها خجلًا، وهمت بالرّحيل، أمسكها طارق واقترب منها مرددا:- لن تهربي يا زهرة، أريد جوابا الآن.

ابتسمت زهرة بخجل وهزّت رأسها بالموافقة ثّم جرت بسرعة، وخلفها طارق الّذي أمسك بها مرة أخرى بسعادة وفرحة عارمة، حتّى أنّه احتضنها وظلّ يدور فرحا وكأنّه يطير بها في السّماء بجناحي الحب وليس على الأرض، تصل نور لترى ما يحدث و تصفق لهما مرددةً:- وأخيرًا سوف نفرح بكما.

تباعد الحبيبان عندما رأيا نور، وشعرت زهرة بخجل وانسحب طارق بصمت، وترك زهرة ونور تتبادلان الأحاديث والشّجار والشّد والجذب كعادتهما ،حتّى تعانقَا أخيرًا وباركت نور لزهرة ودعت لها أن يبارك الله لهما و يتم عليها سعادتها، وتمنت زهرة لها السّعادة أيضا مع كريم ،فهي تلاحظ اهتمامه ونظراته لها وحبّه وتتمناه زوجا لها. حاولت نور تغيّير الموضوع ،لكن تحت إصرار زهرة سقطت دموع نور وهي ترد د:- كم كنت أتّمنى كريم ولكن كُتب عليَّ التّعاسة والألم رغمًا عني، أنتِ لا تعلمين شيئًا يا زهرة؟! وبدأت نور في البكاء.

****

الحلقة الأخيرة

احتضنت زهرة نور مرددة:- أتّمنى ألّا أسمع منكِ هذا الكلام يا نور، يجب أن تتفائلي يا حبيبتي، لقد مررنا بأيّام صعبة حادثة فقدان حنين، وألمنا من قبل على فقدان أمّهاتنا ولكن الحياة تستمر، لا تستسلمي للحزن، كريم إنسان محترم جدًّا ويحبّك وقد أخبرني برغبته في الارتباط بكِ وطلب مني أن أفاتحكِ في الأمر، أرجو أن تفكري جديًّا بالأمر، وتنسي الماضي بكل ما به من حزن و ألم، و تبدئين صفحةً جديدةً، المستقبل أمامكِ والحياة يجب أن تعاش فلن تتوقف عند موقف أليم أو جرح، فكلّ مُرٍ سيمرُّ وكلّ ليلٍ ينتهي بنهارٍ، والسعادة قراركِ أنتِ، اذهبي أنتِ للسّعادة ولا تنتظريها أن تأتي إليكِ.

ترد نور باكية: - كم أتّمنى أن أفرح وأعيش الحب يا زهرة، فأنا لا أعشق الألم والتّعاسة، لكن قدري أن أظّل بعذاب وحزن، ليتني أستطيع أن أحكي لكِ لأرتاح من عبء كبير.

ربتت زهرة على كتفها مرددة: - وإن لم تحكي لي لمن ستحكي إذا؟!، أنا زهرة أختكِ وصديقتكِ أليس كذلك؟

تنهار نور باكية ويزداد قلق زهرة، وتحت إلحاح زهرة عليها تحكي نور وهي تبكي: - ألمي كبير جدا ولا يوصف، بعد وفاة أمّي تعبت وتألمت وشعرت بالغربة والوحدة، ودُمرت نفسيتي وفقدت الأمان والاهتمام والحب ، نعم أنتِ لم تتركيني وفتحتِ لي قلبكِ وبيتكِ لكنّني لا استحق ذلك أنا سيئة جدا يا زهرة، سامحيني لقد تعلقّت بوالدكِ، تمنيّت أن يكون لي أبًا مثله ، وعندما رأيته تحركت مشاعري نحوه، تغيّر تفكيري وحلمت به فارسا ينقذني من عناء غربتي ووحدتي، وبدأت أفكر فيه كرجل تصّورت أنّه حب، أعتذر منكِ يا صديقتي فقد اختلط عليَّ الأمر، فقداني لأبي وموت أمّي سبَبَ لي تشتت وتيه كبير، لكن والدكِ جعلني أفهم خطئي وصحَّحَ لي ما اختلط عليَ، وبدأت أنسى مع الوقت رغم جوعي للاهتمام والحب، تمنّيت أن أجد من يهتم بي، من يعتبرني الأهم بحياته، بعد فترة انبهرت بدكتور(جمال) كان رجلًا كبيرًا قارب السّبعين عامًا،اهتم بي وأصبحنا نتحدث كثيرًا، كانت سعادتي كبيرة كلما اتصل يسأل عني، ونسيت مشاعري ناحية والدكِ، ومع الوقت أصبحنا نتكلم بالساعات وحكيت له كل شيء عن حياتي، عن أحزاني وآلامي وأحلامي وطموحاتي،

كان لا يمل ويسمعني بإنصات شديد، شعرت معه بالأمان والاحتواء و تعودت على وجوده وعلى سؤاله عني، الاهتمام والعطف منه كان بالنسّبة لي طوق نجاة، أنا أحببته كأبٍ وأستاذٍ وصديقٍ، لكن صدمتي كانت كبيرة عندما اعترف لي بحبّه، من صدمتي أغلقت الهاتف ولم أرد عليه وبكيت بشّدةٍ .

كانت زهرة تنصت مصدومة من كلام نور، وحزينة لما تسمعه منها.

بينما جففت نور دموعها واستطردت حديثها:- الأبشع ما حدث بعد ذلك، لقد طلب إقامة علاقة معي وقرر تهديده لي، بكيت على نفسي وانهرت، صدمتي كانت كبيرة، أستاذ جامعي ومسّن يفكر في طالبة أصغر من ابنته بهذه الطّريقة وقتها صارت حادثة موت حنين، فقدت الثّقة في الجميع وكانت فرصة لأحزن من غير قيود، كان الجميع حزينًا على حنين بينما أنا أعلنت الحداد على نفسي وعليها، من وقتها لم أحدثه لكن أخاف من تهديداته لدرجة أنّني قررت ألّا أكمل الجامعة، لا أريد رؤيته أبدًا.

بكت زهرة ممّا سمعت وتعجبت ممّا يحدث واحتضنت نور وظلّتا تبكيان معا هنا دخل أحمد وسأل عن سبب بكائهما، فأخبرته زهرة أنّهما تذكرتا حنين، ودّت زهرة لو أخبرته ليحمي نور من خوفها، ويكون سندا لها ضد هذا الظّالم ، ويخلع عن نور رداء الألم والخوف، لكن نور رفضت ووعدتها زهرة ألّا تخبر أحدًا بما حدث، فهي لا تريد مشاكل ومتاعب فقد اكتفت طوال حياتها من الألم، وتريد راحة بالها والابتعاد عن كل شيء.
ورغم ذلك قررت زهرة بعد تفكير أن تخبر أبيها بالأمر، فهو ليس أمر هين لتخفيه وهي اعتادت أن تحكي كل شيء لأبيها، فهي تعتبره صديق وأخ قبل أن يكون والدها.

وعدها والدها ألّا يخبر أحد بما أخبرته وأن يبحث عن حل لحماية زهرة، اتّصل أحمد بعميد الجامعة كان صديقًا قديمًا له، وأخبره بأمر الدّكتور جمال وتهديده للفتيات، واتّضح أنّه على علم بما يحدث فليست أوّل شكوى منه، وأنّه تحت المراقبة للتّأكد من الشّكاوى المقّدمة ضده.

في صّباح يوم عيد ميلاد زهرة ،اجتمع الجميع على مائدة الإفطار بحب وسكينة وحوارات مرحة، وبينما كانت نور تتّصفح أحد الجرائد على النت فجأة تقف مصدومة ممّا رأت، تسألها زهرة فلا تجيب تجذب زهرة منها الهاتف لترى وتفزع هي الأخرى ممّا تُشاهد.

الكلّ يتابعهما بترقبٍ وشغفٍ لمعرفة ما جذب انتباههما، يمسك أحمد الهاتف من زهرة ويتابع الأمر، ليُصدم هو الآخر ثمّ يقول:- دائمًا الجزاء من جنس العمل (وما ربّك بغافل عمّا يعمل الظّالمون) صدق الله العظيم.

هذه نهاية كلّ ظالم كان الخبر بالجّريدة مع صورة الدكتور جمال: (دكتور جامعي يستغل منصبه و يهدد طالباته و يطالبهم بممارسة الرّذيلة معه، والمواقع على النت تنشر فيديو له يدينه بالجرم المنشود، بينما العالم يستنكر فعلته ويطالبون بفصله وسحب الدكتوراه منه، تتدخل العدالة الإلهية بعد انتشار الخبر بساعات على شبكات النت يأتي قضاء الله لإنصاف الحقّ، حيث تنقلبُ السّيارة بالدّكتور جمال على الطّريق ويلفظ أنفاسه الأخيرة قبل وصوله للمستشفى).

يردد أحمد:- سبحان الله (ويمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين) صدق الله العظيم .
اللّهم لا شماتة اللّهم عافنا وأعف عنا وارزقنا حسن الخاتمة.

تتساقط الدموع من عيون نور وهي بين حزن وحيرة، فمن شّدة الصدمة أصبحت لا تعلم هل تفرح بانتقام الله منه أم تحزن لفضيحته وموته ففي يوم ما اعتبرته أبا لها، لكنّه الآن بين يد الرّحمن ليتولاه الله برحمته.

في المسّاء تقام حفلة كبيرة، الأضواء والزّينة والبهجة تعمّ القريّة السّياحية بأكملها، احتفالًا بعيد ميلاد زهرة قلب وحياة أحمد ،الّتي تفتحت وبثت السّعادة والأمل له ، لكن اليوم ستكون الفرحة والاحتفالات كبيرة، فقبل إطفاء الشّموع يطلُب أحمد من الجميع الانتباه، تقف زهرة وبجوارها نور، يأتي طارق وكريم يفتح كل منهما علبة بها خاتم جميل يقدمه لحبيبته معلنا حبّه لها، ويطلب منها الزّواج.

تنظر نور و زهرة لأحمد ؛ يهزّ رأسه بالموافقة فتهزان رأسيهما أيضا بخجل وفرحة؛ تتساقط الورود فوق رؤوسهم ، وتتعالى الزغاريد وتنطلق الألعاب النّارية بالسّماء ،ويصفق الجميع بسعادة. يرقصُ كل حبيبان معًا تحت سماء الحب وأضواء قلبيهما الّتي تبث فرحًا وسعادةً،

يعلن أحمد موعد الزّفاف العام القادم بإذن الله ، و يتّمنى لهما السّعادة والبركة.

يمرّ العام سريعًا ما بين الدراسة والتجهيز للزفاف، تنجح زهرة بامتياز كعادتها ويتم تعينها معيدة بالجامعة، بينما نور تحصل على جيّد جدًّا وستكمل ماجستير بألمانيا كما وعدها كريم، بعد أيام تتزين القاعة للحفل، يتّم الزّفاف الأسطوري الجميل ويستقر كل حبيبين في عش الزّوجية بسعادةٍ وحبٍ.

يقف أحمد يفكر يمررّ شريط ذكرياته مع سمر، لقد تركت له ثروة من الذكريّات تعود إليه كالأمواج ما بين مد وجزر تغتاله من بين الجميع، فكأنّها معه تحدثه وتشاركه فرحته بزهرة، يبتسم لها وكأنّه يعلن وفاءه بعهده، فقد رعى زهرته حتّى سلمها لحبيب قلبها وزوجها، كلّ تلك السّنوات مرّت كأيّام وكأنّه فقد سمر أمس وكأنّها معه لم تغب أبدًا، كما لن تغيب زهرة عنه فبعد رحلة شهر العسل ستعود مع زوجها للفيلا حيث قرّرا العيش مع أحمد.

بعد زواج زهرة تمّر شهور قليلة، يتعب أحمد وكل يوم يزداد تعبه ولا سبب عضّوي لتّعبه وكأنّه زهد الحياة ، وأراد أن يلحق بسمر حبيبة عمره، فقد تصّور بزواج زهرة أن مهمته تمت هنا ومسئوليته انتقلت لزوجها.

جلس ووضع ألبوميْ صور أمامه أحدهما لسمر يضم صورها من طفولتها حتّى قبل موتها بأيّام وهي تضم زهرة، والآخر ألبوم زهرة يحتوي كل صورها من يوم مولدها وبعد تأمله وضع أخر صورة به كانت صورة زفافها، ظنا منه أنّه أتمَّ رسالته في الحياة ولم يعد هناك ما يفعله، لا يدري لقد أصابه الحزن وغلب عليه فجأة، أهو زهد أم يأس؟، لكنّه استسلم لهواجسه واستعداده للرّحيل رغم وجود زهرة معه ومحاولاتها المستمرة لإخراجه من حزنه، ومن تلك الصومعة الّتي صممها لنفسه وعزلته الّتي عاد إليها.

ذات ليلة نام أحمد ودموعه تنهمر، ليجد سمر تمسح دموعه وتنظر له بحزن كأنّها غاضبة منه، يحاول التّحدث معها فترفض وقبل أن ترحل مبتعدة تعطيه بنتا صغيرة وتوصيه برعايتها.

يستيقظ أحمد على آذان الفجر، يذهب ليصّلي بالمسجد كعادته وعند عودته يجد زهرة تصرخ من الألم، لقد تذكر الآن سفر طارق لعدّة أيّام للعمل، ونسيّ أمر حمل زهرة وحاجتها للرّعاية، ظلّ يؤنب نفسه بينما يتّصل بالطّبيب كانت زهرة حاملا في شهرها السّابع وأصابها التّعب ، قلق أحمد وأسرع للاطمئنان على زهرة محاولا طمئنتها، يصّل الطّبيب الّذي يقرّر سرعة نقلها للمستشفى للولادة حالا، تحتاج زهرة لنقل دم يزداد قلق أحمد ويلوم نفسه لقد أهمل زهرة ، ظّنا منه أن دوره قد انتهى بزواجها.

أخيرا تلد زهرة طفلة جميلة، يحملها أحمد ويُقبلها ويسميها سمر، ويتّذكر الحلم الآن وواجبه نحوها من رعايتها هي وزهرة، فلم تكتمل رسالته بعد فليس دور الأب أن يربي ويرعى حتّى زواج ابنته ينتهي دوره ويرحل تاركا إياها لزوجها، فالأب هو الأمان والسند والوطن لابنته طوال حياتها، ولادة سمر كانت بمثابة نور لأحمد ليبصر الحقيقة وكأنّها الأمل الّذي سيحييه من جديد ليكمل مسيرة وفائه، يتعهد أن يرعى سمر الصّغيرة مثلما اهتم بزهرة وزوجته سمر من قبل.

يتّذكر سمر زوجته وتنهمر دموعه، يتمنى لو كانت هنا لتشهد ولادة حفيدتها الجميلة، فكم تمنت أن يمتليء البيت بصغار زهرة ورعايتهم بحب وسعادة معها.

يتّذكر أحمد عهدًا قد قطعه على نفسه ووفاء قلما تجده بين بني البشر، وفاء لقصّة حب قد اكتملت أركانها أخيرًا، وأحس بقيمة تضحيته من أجل حبّه.

{تـــــــــــــــمت.....}